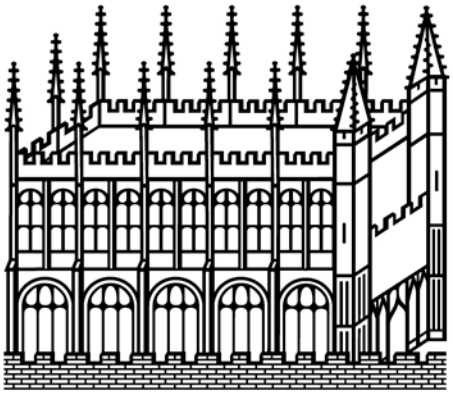

Bodleian Libraries

UNIVERSITY OF OXFORD

This book is part of the collection held by the Bodleian Libraries and scanned by Google, Inc. for the Google Books Library Project.

For more information see:

http://www.bodleian.ox.ac.uk/dbooks

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-ShareAlike 2.0 UK: England & Wales (CC BY-NC-SA 2.0) licence.

.841

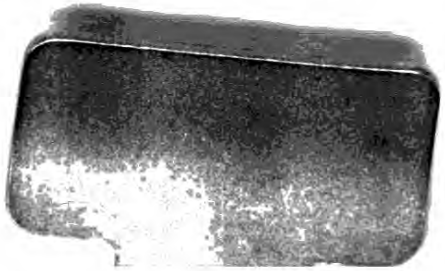

سلسلة المطبوعات العصرية

تطلب من المطبعة العصرية ـ بمصر (ص . ب ٩٥٤)

القاموس العصرى انكليزى عربى
« عربى انكليزى
« المدرسى عربى انكليزى وبالعكس
المعجم العصرى عربى فرنسى
قاموس الجيب انكليزى عربى
قاموس الجيب عربى انكليزى
قاموس الجيب انكليزى عربى وبالعكس
القاموس المدرسى فرنسى عربى
قاموس اللغة العربية الدارجة انكليزى عربى
الهدية السنية لطلاب الانكليزية
التحفة المصرية لطلاب الانكليزية
حكايات للاطفال ٤ أجزاء (كامل كيلانى)
قصص جغرافية للاطفال جزآن («)
مراجعات فى الادب والفنون (للعقاد)
روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون)
روح السياسة «
أصول الحقوق الدستورية (لابسمن)
الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
الحركة الاشتراكية (لرمزى مكدونلد)
ملقى السبيل فى مذهب النشوء والارتقاء
البلاغة العصرية واللغة العربية (لسلامه موسى)
الادب الانكليزى الحديث « «
طريق المجد « «
كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين « «
مصر أصل الحضارة « «
أناتول فرانس فى مباذله (شكيب ارسلان)
الدنيا فى اميركا للاستاذ (أمين بقطر)
حضارة مصر الحديثة ، لزعماء الثقافة المصرية
حضارة بابل واشور
اسرار الحياة الزوجية (ن . ح)
جمهورية افلاطون ، طبعة ثانية
أحاديث روسية ، الياس انطون الياس
خواطر حمار (للمرحوم الاستاذ حسين الجمل)

حصاد الهشيم (لفقيد الادب الاستاذ المازنى)
قبض الريح « « « «
نسمات وزوابع ، شعر منثور (مصور)
التعليم والصحة للدكتور محمد عبد الحميد
مركز المرأة فى شريعتى موسى وحمورابى
المرأة الحديثة وكيف نسوسها لعبدالله حسين
تذكرة الكاتب ، لتقويم الاخطاء اللغوية
الضعف التناسلى للمرحوم الدكتور فخرى
الامراض التناسلية وعلاجها «
يسوع ابن الانسان (لجبران جبران)
النبى « «
المجنون « «
رمل وزبد « «
كلمات جبران « «
السابق « «
مراقى النجاح (الارشمندريت بشير)
آراء حرة (دكتور طه حسين بك وآخرين)
رواية تاييس ترجمة احمد الصاوى، لاناتول فرانس
« الزنبقة الحمراء « « «
« مكايد الحب فى قصور الملوك ، أسعد داغر
« القصص العصرية (٧٠ قصة مصورة)
« مسارح الاذهان (٣٥ قصة مصورة)
« أهوال الاستبداد (خليل بيدس)
« الانتقام العذب (أسعد خليل داغر)
« روكامبول ١٧ جزء (طانيوس عبده)
« أم روكامبول ٥ أجزاء « «
« باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
« غرام الراهب «
« دار العجائب (لنقولا رزق الله)
« الغلامان الطريدان «
« فدية الشرف «
« حورية (طبعة ثالثة)
« فاتنة المهدى أو استعادة السودان

(بقية قائمة مطبوعات المطبعة العصرية ترسل مجاناً لمن يطلبها)

67/706
CANCELLED
OXFORD INSTITUTE

يرتجف ، وعيناه تشتعلان ، وأحسّ بالأرض تسيخ وتنشق تحت قدميه ...

ثم رتّل العذارى نشيد زكريا :

— تبارك الرب إله اسرائيل .....

وما لبثت أصواتهن أن انقطعت فى حلوقهن ، إذ رأين وجه الراهب ، فولّين ، مذعورات ، صارخات :

— وطواط ! وطواط !

فقد حلّت بيافنوس نقمة ربه ، فسخطه ، فاستحال إلى شخص قبيح مروع ، حتى إذا ما مرّ بيده على وجهه ، أحسّ ببشاعة خلقته .

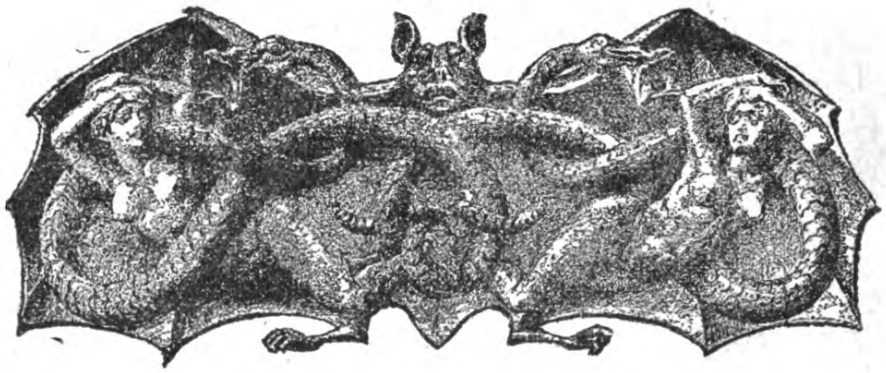

— لا تموتى ! انى أحبك فلا تموتى ! اسمعينى يا حبيبتى تاييس . لقد خدعتك ومكرت بك . وما كنت إلاّ معتوهاً شقيًّا . إن الله والسموات ليست شيئاً مذكوراً . وما من شيء له وزن ، وهو حق ، إلا الحياه الدنيا متاع السرور ، وإلاّ الحب الجسدى ؛ انى أحبك ! فلا تموتى ، لا تذعنى للمنون ! ذلك يكون محالاً وأمراً باطلاً . انك جميلة فتّانة آية الآيات . تعالى نتبادل الحب ونرشف كؤوسه . اصغى لى يا حبيبتي واسمعينى وقولى : « سأعيش ، لأنى راغبة فى العيش . سوف أحيا ، إنى أريد الحيـــاة » . تاييس ! تاييس ! انهضى !

لم تسمعه . كانت عيناها تَسْبَحان فى اللانهاية . . .

تمتمت :

— السماء تُفتح . انى أرى الملائكة والأنبياء والقديســين . . . فى وسطهم تيودور الصالح مملوء اليدين بالأزهار . انه يبسم لى ويدعونى اليه ... يأتى إلىّ ملكان . ها هما يقتربان . . . ما أجملهما ! . . . إنى أري الله .

تنهدت ابتهاجاً وانقلب رأسها على الوسادة بغير حراك .

ماتت تاييس .

فعانقها بافنوس عناق اليأس والقنوط الأخير . وقد التهمتها عينـــاه باشتهاء . . . وغلّ . . . وحب . . .

فزجرته ألبين قائلة :

— إخسأ يا لعين !

ووضعت أصابعها برفق على جفنى المائتـــة . فتراجع بافنوس وهو

— تاييس !

فرفعت جفنيها ، وولت مقلتيها البيضاوين صوب الصوت .

فأشارت ألبين إلى النساء المحجبات أن يتراجعن بضع خطوات .

وكرر الراهب نداءه :

— تاييس !

فرفعت رأسها ، وخرج من بين شفتيها الباهتتين همس خافت :

— هذا أنت يا أبى ؟ . . . أتذكر ماءَ الينبوع ، والتمر الذى لما هززنا الينا الجزع تساقط رطباً جنياً ؟ . . . فى ذلك اليوم يا أبى ، ولدت للحب . . للحياة . . .

ثم انقطعت عن الكلام ، وعاد رأسها فسقط .

دَهمَها الموت ، وكلَّلَ العرق البارد جبينها . ومزّق جلال السكوت صوت يمامة نائحة ... ثم امتزجت تنهدات الراهب وزفراته بمزامير العذارى:

— اغسلنى كثيراً من إثمي ومن خطيئتى طهرنى ، لأنى عارف بمعاصيّ وخطيئتى أمامى دائماً . .

ثم جلست تاييس فجأة فى فراشها ، وانفتحت عيناها البنفسجيتان ، وقالت وهى تحدق إلى الأفق ، وقد مدت ذراعيها نحو التلال البعيدة :

— هو ذا ورد فجر الصباح الأبدى !

ولمعت عيناها ، وصبغت حمرة خفيفة وجنتيها . وبدت أحلى وأجمل مما كانت فى أى وقت من الأوقات . فركع بافنوس أمامها ، واحتضنها بين ذراعيه الأسمرين ، وصرخ بصوت بلغ من الغرابة مبلغاً أنكره هو نفسه :

يا أبى الموقر بما ينال قداستك وورعك من جزع لذكرى تلك المشاهد التمثيليّة . بيد أنك لو كنت رأيتها فى تلك المشاهد الصالحة تتفجّر فى عبراتها الصادقة ، وتمدّ ذراعيها كالسعف نحو السماء . إذاً لتأثرت أشدّ تأثر . سُسْت النساء ورعيتهن زماناً طويلاً ، ومن مبدئى أن لا أقاوم طبيعتهن ، فليست كل البذور تنبت أزهاراً متشابهة . وليست كل النفوس تطهّر بوسيلة واحدة . ويجب أن نذكر أيضاً أن تاييس قد وهبت نفسها لله وهى لا تزال شائقة فاتنة فى ريعان صباها . وأن نقدر مثل هذه التضحية، التى إن لم تكن منقطعة النظير ، فهى بلا مراء نادرة الحصول . هذه لملاحة ، ثوبها الطبيعى ، لم تفارقها بعد ثلاثة أشهر من إصابتها بالحمى التى تكاد تودى بها . وكانت أثناء مرضها تطلب بإلحاح أن ترى السماء ، فأمرت بأن تنقل فى كل صباح الى صحن الدير قرب البئر تحت شجرة التين القديمة ، التى فى ظلها كانت رئيسات الدير يقمن محافلهن . ستجدها هناك أيها الأب المحترم ، لكن خفّ وأسرع ، ان الله يدعوها اليه ، ولا تلبث أن تلبى الدعوة . وفى هذا المساء يغطى الكفن ذلك المحيا الذى فطره الله لإفساد العالم وإصلاحه . . .

تبع بافنوس ألبين الى الساحة المغمورة بنور الصباح . وقد كوّن الحمام على طول السقف المتّخذ من الآجُر صفاً من اللآلىء ، وكانت تاييس راقدة على فراش فى ظل شجرة التين ، يغشاها بياض ناصع ،وقد تعارضت ذراعاها على صدرها ، ووقفت بجانبها نساء متنسّكات ، يرددن صلاة النزع:

— ارحمنى يا الله كعظيم رحمتك حسب كثرة رأفتك امح معاصىّ !

فناداها :

وجيزة عن سيرها فى الزمن الذى قضته بيننا بعد رحيلك ، وكانت حبيسة الصومعة التى أغلقتها بخاتمك . أرسلت اليها مع طعامها ناياً كالذى تضرب به الفتيات اللواتى يحترفن حرفتها فى الولائم والحفلات . فعلتُ ذلك لكيلا تتعبها الهموم وتكتئب . وكى تظهر أمام الله سبحانه من البراءة والمواهب ما لا يقلُّ عما أظهرته أمام الناس . وقد أحسنت صنعاً وكنت صادقة الفراسة . لأن تاييس أخذت توقع يومياً على الناى مدائح « مخلص البشر ».

وقالت العذارى اللائى شاقتهن أنغام الناى الخفى : « انا نسمع عندليب الخمائل السماوية ، نسمع تَمّة [1] يسوع المصلوب التى تحتضر » . كذلك قضت تاييس توبتها . وبعد ستين يوماً فتح الباب الذى ختمته من تلقاء نفسه ، وانكسر الختم الصلصالى من غير أن تمسه يد بشرية . فأدركت من هذه العلامة أن الله تعالى قد غفر للضاربة بالناى خطاياها . ومن ذلك الحين شاركت بناتى فى عيشهن ، فكانت تعمل وتصلى معهن . وصارت لهن قدوة صالحة بما فى حركاتها وكلماتها من حشمة ووقار . وكانت بينهن مثال الخفر والعفاف . وفى بعض الأوقات ، كان يتقسمها الهم والشجن ، ويتناوبها الغم والحزَن ، غير أن هذه السحب ما لبثت أن تقشعت . ولما رأيت أنها شديدة التعلق بالله ، منقادة اليه بالإيمان والأمل والحب . لم أخف أن أستخدم فنها ، بَلْهَ جمالها ، فى تهذيب أخواتها . فدعوتها لتمثل أمامنا أعمال النساء الشهيرات ، والعذارى العاقلات اللواتي ذكرهن الكتاب المقدس . فمثلت استر ، ودبورة ، ويهوديت ، ومريم أخت لعاذر ، ومريم أم يسوع . انى عالمة علم اليقين

---

(١) أى وزّة عراقيّة وهي بالافرنسية Cygne وبالانكليزية Swan

تايس القديسة

الهرم ، وأولئك الحكماء الذين جلسوا بقربها فى مأدبة الاسكندرية ! ما كان أمتع حديثهم وأرقّه ! إن سرْباً من الضحكات الرائقة حام حول شفاههم ، وضمَّخ السرور خواطرهم . ولأن أنفاس تاييس هبت عليهم ، فكل ما قالوه فاح حباً ، وجمالاً ، وحقاً . ولقد خلع الإلحاد الجميل على أقوالهم ثوبَ ملاحته . فأفصحوا ببلاغة عن الجلال البشرى . . وا أسفاه ! ليس كل ذلك الآن إلا حلماً . تاييس على وشك الموت ! أوّاه ! ما أشد بداهة أنى مائت لموتها ! ولكن . . أنَّى لك الموت أيها النطفة القذرة الجافة ، أنَّى لك الموت أيها الجنين المنقوع فى مرارة الضرّ وحزازة الدمع ؟ أيها السِقْط الشقى هل يعلق بوهمك أنك ستذوق طعم الموت ، أنت الذى لم يعرف الحياة ؟ . لكن لعلّ الله يكون موجوداً فيقضى علىّ بعذاب الآخرة! هذا رجائى ومشتهاي . أيها الإلـه الذى أمقته ، استجب لى ! اقذف بى إلى جهنمك وبئس المصير . وانى لكى أكرهك على فعل ذلك ، . . . . فى وجهك . . . يجب أن أجد جحيماً أبدية لا ينطفىء سعيرها ، ولا تخبو نيرانها ، كيما أستطيع أن أبخر فيها أبدية السخط التى احتوت عليها نفسى .

. . . . . .

وعند طلوع الفجر ، تلقت « ألبين » كاهن أنصينا فى مدخل الصوامع ، فقالت له :

— مرحباً بك أيها الأب الموقر فى أخبية السلام . انك آت بلا شك لتبارك القديسة التى أعطيتنا إياها . أنت تعلم أن الله قد دعاها اليه . وكيف لا تعلم البشائر التى يحملها الملائكة من بادية إلى بادية ؟ حقًّا لقد دنت تاييس من نهايتها السعيدة ، فقد تممت أعمالها . وعلىّ أن أخبرك بكلمات

مياه الغرام ، وهو وحده لم يبلل منها شفتيه ، وقف فى حالة عتوّ ونفور ، وولول حزناً ، ونشج توجعاً ، ومزّق صدره بأظفاره ، وعضّ زنديه ، وحدّث نفسه :

— ليتنى أجد سبيلاً إلى قتل من أحببتهم أجمعين .

فلأنه فكرةُ هذا التقتيل بحميًّا لذيذة وحنق عذب ، ففكّر فى ذبح نسياس ، على مهل رويداً رويداً ، بينما هو يحدق فى قرارة ناظريه . ثم ما لبثت حميته أن خمدت فجأةً فبكى وتأوّه ، ووهن العظم منه ،فارتدّ ضعيفاً وديعاً ، وسكّن اضطراب نفسه حنوٌّ مجهول، وتملكته رغبة الارتماء على عنق رفيق صباه ، ليقول له :

« نسياس انى أحبك لأنك أحببتها . حدثنى عنها ! اخبرنى بما قالته لك . . » .

وكانت مرارة تلك الجملة : « تاييس على وشك الموت ! » لا تزال عالقة بنياط قلبه :

— يا أنوار النهار العسجدية ! يا أظلال الليل الفضية ! أيتها النجوم ! أيتها السموات ! أيتها الأشجار المرتعشة قممها ! أيتها الوحوش الضارية ! أيتها الحيوانات الأليفة ! يا نفوس الرجال المتلهفة ! ألا تسمعون ! « تاييس على وشك الموت ! » . أيتها الأنوار الساطعة والأنفاس الصاعدة ، والعطور الطيبة — امّحي وافني ! يا بهاء الكون ورواءه ، وأشكاله وأفكاره — اختفى واختبئى !

« تاييس على وشك الموت ! . . . » تاييس كانت جمال العالم ، ينعكس حسنها على كل ما يقربها فيصبح زينة للناظرين . . . ما كان ألطف ذلك الشيخ

الأبدية إنما هى فى قبلة واحدة من قبلاتها . وأن الحياة بدونها لا معنى لها وليست سوى حلم مزعج ؟ يا لك من غبى أخرق ، تراها ثم لا تفتأ ترغب فى طيبات عالم ثان ؟ يا لك من نذل جبان ، تراها وتخشى الله ؟ الله ! السماء ! ما هما وما نصيبى منهما ؟ وهل يساوى ما يمنحانه لى أقل جزء مما كانت ستمنحه لى تايس ؟ أفٍّ لك من معتوه سخيف بحث عن رأفة الله وطلبها فى كل مكان إلا على شفتى تايس ! أية يد غطّت عينيك ، ألا فليكن ملعوناً ذاك الذى أعماك حينذاك ! كنت تستطيع أن تشترى بثمن قصاص الآخرة لحظة من حبها والتمتع بها فلم تفعل ! لقد فتحت لك ذراعيها ، المفطورين من لحم ممتزج بعطر الزهر . ولم تتملّ لذة الغرق فى حضنها ، والاستناد إلى صدرها العارى الذى لا يوصف !

لقد أصخت إلى الصوت الحسود الذى قال لك : « أعرض عن هذا » . فيالك من مغفل ، مغفل شقى ! آه يا للحسرات ! يا للندامات ، أوّاه يا لليأس ، يا لخيبة الأمل ! لحرمانى أن أحمل إلى الجحيم ذكرى تلك الساعة التى لا تنسى ولا تمحى ، صارخاً إلى الله : « أحرق لحمى ! جفف الدماء التى فى عروقى ، اسحق عظامى ، غير أنك لن تستطيع أن تنتزع منى التذكار الذى يعطرنى وينعشنى للأبد ، وإلى الأبد ! . . . ليتك يا الله تعلم كم أسخر من جهنمك ! ! تايس على وشك الموت ، فلن تكون لى أبداً ؟ أبداً ، أبداً ! »

وبينا السفينة تتبع التيار السريع ، لبث طوال أيامه منكباً على وجهه ، يكرر :

— أبداً ! أبداً ! أبداً !

ولما ذكر أنها وهبت نفسها للجميع إلا له ، وأنها سكبت على العالم

بالمجد ، وامتد ظله خلفه — بمئة من السماء — امتداداً عظيماً كبساط لا آخر له ، رمزاً إلى التذكار الطويل الأمد الذى سيخلفه هذا الولى العظيم بين البشر . . .

* * *

أما بافنوس فقد وقف مصعوقاً ، ولم يرَ ولم يسمع شيئاً غير الكلمات التى ملأت وحدها أذنيه ، وكانت : « تاييس على وشك الموت ! » . لم يخطر بباله قط مثل هذا الفكر . قضى عشرين سنة يتأمل فى رأس مومياء ، ومع ذلك أدهشه تصوُّر أن الموت يغمض عينى تاييس !

« تاييس على وشك الموت ! » قول غير معقول ! « تاييس على وشك الموت ! » يا لشدة الهول المروع فى هذه الكلمات الأربع ! . « تاييس على وشك الموت ! » إذاً فما الحاجة للشمس والأزهار والغدران والبرايا جميعاً؟ « تاييس على وشك الموت ! » فما فائدة الكون ؟

ثم وثب فجأة صارخاً : « اذهب لتراها ، لتراها مرة أخرى ! » وأخذ يعدو . ولم يدر أين هو ، ولا إلى أين يذهب . لكن الوجدان قاده وسدَّد خطاه . فسار رأساً إلى النيل . وكان سطحه مغشيًّا بشُرُع المراكب فقفز إلى ظهر سفينة لبعض النوبيين . وهناك انبطح فى مقدمتها ، تلتهم عيناه الفضاء ، وصرح بحزن وغضب :

— تبًّا لي من مجنون معتوه ، لأنى لم أحظ بتاييس لما سمح الزمان ! ياما أشدّ حماقتى لأنى اعتقدت أن فى الدنيا شيئاً سواها ! يا ويح الجنون ! لقد فكرت فى الله ، وفى خلاص نفسى ، وفى الحياة الأبدية ، كأنما كل هذه تعدّ شيئاً مذكوراً جنب رؤية تاييس . كيف لم أدرك أن السعادة

— العذارى الثلاث يخاطبنى قائلات : « ان قديسة على أهبة مفارقة الأرض ، تاييس الاسكندرية على وشك الموت ، وقد أعددنا لها مضجع مجدها ، لأننا نحن فضائلها :

« الايمان . والخوف . والحب »

فسأل أنطوان :

— وماذا ترى أيضاً يا بنىّ الحبيب ؟

فنظر بولس بتَـله ، من سمت الرأس إلى سمت القدم ، ومن المغرب إلى المشرق ، ثم وقع ناظراه فجأة على كاهن انصينا ، فشحب وجهـه من جزع قدسى ، وعكست حدقتاه لهباً خفياً ، وقال :

— أرى ثلاثة زبانية قد امتلأوا فرحاً ، واستعدّوا لقبض هذا الرجل. وهم يشبهون برجاً وامرأة وساحراً . والثلاثة يحملون أسماءهم موسومـة بميسم من حديد حامٍ ، الأول على جبينه ، والثانى على بطنه ، والثالث على صدره ، وأسماؤهم هى : « الكبرياء . والانغماس فى الملذات . والشك »

لقد رأيت هذا كله .

ثم عاد بولس إلى حالتـه الأولى من البساطة ، بعينيه الغائرتين ، وحنكه المعلّق .

ولما نظر رهبان أنصينا إلى أنطوان بقلق ، فاه القديس بهذه الكلمات :

— قد أعلن الله حكمه العادل ، فلنعبده ونحن سكوت .

ثم سار وهو يبارك الجموع . وكانت الشمس قد بلغت الأفق ، فزمّلته

وقال للشبان :

ــ افرحوا وابتهجوا ، ودعوا الحزن للسعداء فى هذه الحياة الدنيا .

وهكذا طاف مقدمة جيشه البنوى ، يمحض النصح ، ويبذر العظات . فلما رآه بافنوس يقترب منــه ، خرّ ساجداً ، يتنازعه الخوف والأمل ، وصاح غاصًّا بآلامه المبرحة :

ــ أبتاه ! أبتاه ! أبتاه ! أغثنى فانى من الهالكين . لقد وهبت روح تايس لله ، وعشت فوق قمة عمود ، وفى قاع قبر . فتصلبت جبهتى من طول التصاقها بالرغام حتى صارت مثل ركبة الجمل ، ومع ذلك لايزال الله معرضاً عنى . باركنى يا أبت فأنجو . هزّ الزوفى فأطهر وأعود نقياً أتلألأ كالثلج .

فلم يجبه أنطوان . بل رشق رهبان أنصينا بتلك النظرة التى ما كان بوسْع أحد الثبات أمامها . . . ثم استقر ناظراه على بولس ، الملقب بالساذج ، فحملق اليه طويلاً ، ثم أشار إليه بالدنو منه . ولما أبدى الجميع دهشتهم لمخاطبة القديس رجلاً مختل الشعور ، قال أنطوان :

ــ ان الله قد أنعم على هذا الرجل بما لم ينعم به على أحد منكم . ارفع بصرك يا ولدى بولس ، واخبرنا بما تراه فى السماء .

فرفع بولس الساذج عينيه ، وأشرق وجهه ، وانطلق لسانه ، فقال :

ــ أرى فى السماء سريراً مزداناً بسجوف من أرجوان وذهب ، تحيط به ثلاث عذارى ، ساهرات على حفظه ، كى لا تقرب منه روح غير الروح المجتباة التى أُعِدّ لها السرير . . .

فبادر بافنوس يردد الشكر لله حاسباً أن هذا السرير رمز إلى تمجيده لكن أنطوان أشار اليه بالصمت والإصغاء للساذج الذى تمتم فى ذهول الانجذاب . قائلاً :

فارتفعت فى الحال من أقصى الحائط الحي إلى أقصاه ، مثل قصف الرعد المتوازن ، أنشودة : « طوبى للذى يخاف الرب »

ثم تفقّد أنطوان مع ماكاريوس وأماتاس صفوف الشيوخ والرهبان والنساك . هذا الرجل الذى رأى السماء وجهنم ، هذا الزاهد الذى حكم الكنيسة المسيحية من قلب معقله ، هذا القديس الذى ثبّت يقين الشهداء فى أيام المحن والاضطهاد ، هذا اللاهوتى الذى صعقت فصاحته أهل الضلال — أخذ يخاطب أبناءه واحداً بعد واحد ، برقة وحنان ، ويودعهم وداعاً جميلاً فى عشيّة ميتته السعيدة التى وعده بها الله الذى أحبّه

قال للرئيسين افرايم وسرابيون :

— انكما تقودان الجيوش الجرّارة ، وكلاكما ماهر ومتدرّب فى فنون الحرب ، لذلك سوف تتقلدان فى السماء سلاحاً ذهبياً ، ويمنحكما ميخائيل رئيس الملائكة لقب قائدى قواته .

ولما رأى الشيخ بالمون عانقه وقال :

— هذا أعزّ أولادى وأفضلهم جميعاً . لروحه شذا عطرى كأريج زهر الفول الذى يزرعه فى كل عام .

ووجه إلى الرئيس زوزيمس هذه الكلمات :

— انك لم تقنط من رحمة الله ، لذلك فسلام الله فيك وعليك : وقد أزهرت زنبقة فضائلك على سماء فسقك .

وكان كلامه مع كلٍّ منهم مملوءًا حكمة وارشاداً .

قال للشيوخ :

— رأى الرسول حول عرش الله أربعة وعشرين شيخاً فى ثياب بيضاء ، وعلى رؤوسهم التيجان .

وقال للشبان :

— افرحوا وابتهجوا ، ودعوا الحزن للسعداء فى هذه الحياة الدنيا .

وهكذا طاف مقدمة جيشه البنوى ، يمحض النصح ، ويبذر العظات . فلما رآه بافنوس يقترب منه ، خرّ ساجداً ، يتنازعه الخوف والأمل ، وصاح غاصًّا بآلامه المبرحة :

— أبتاه ! أبتاه ! أبتاه ! أغثنى فانى من الهالكين . لقد وهبت روح تاييس لله ، وعشت فوق قمة عمود ، وفى قاع قبر . فتصلبت جبهتى من طول التصاقها بالرغام حتى صارت مثل ركبة الجمل ، ومع ذلك لا يزال الله معرضاً عنى . باركنى يا أبت فأنجو . هزّ الزوفى فأطهر وأعود نقياً أتلألأ كالثلج .

فلم يجبه أنطوان . بل رشق رهبان أنصينا بتلك النظرة التى ما كان بوسْع أحد الثبات أمامها . . . ثم استقر ناظراه على بولس ، الملقب بالساذج ، فحملق اليه طويلاً ، ثم أشار إليه بالدنو منه . ولما أبدى الجميع دهشتهم لمخاطبة القديس رجلاً مختل الشعور ، قال أنطوان :

— ان الله قد أنعم على هذا الرجل بما لم ينعم به على أحد منكم . ارفع بصرك يا ولدى بولس ، واخبرنا بما تراه فى السماء .

فرفع بولس الساذج عينيه ، وأشرق وجهه ، وانطلق لسانه ، فقال :

— أرى فى السماء سريراً مزدانا بسجوف من أرجوان وذهب ، تحيط به ثلاث عذارى ، ساهرات على حفظه ، كى لا تقرب منه روح غير الروح المجتباة التى أُعِدّ لها السرير . . .

فبادر بافنوس يردد الشكر لله حاسباً أن هذا السرير رمز إلى تمجيده لكن أنطوان أشار اليه بالصمت والإصغاء للساذج الذى تمتم فى ذهول الانجذاب . قائلاً :

فارتفعت فى الحال من أقصى الحائط الحي إلى أقصاه ، مثل قصف الرعد المتوازن ، أنشودة : « طوبى للذى يخاف الرب »

ثم تفقّد أنطوان مع ماكاريوس وأماتاس صفوف الشيوخ والرهبان والنساك . هذا الرجل الذى رأى السماء وجهنم ، هذا الزاهد الذى حكم الكنيسة المسيحية من قلب معقله ، هذا القديس الذى ثبّت يقين الشهداء فى أيام المحن والاضطهاد ، هذا اللاهوتى الذى صعقت فصاحته أهل الضلال — أخذ يخاطب أبناءه واحداً بعد واحد ، برقة وحنان ، ويودعهم وداعاً جميلاً فى عشيّة ميتته السعيدة التى وعده بها الله الذى أحبّه

قال للرئيسين افرايم وسرابيون :

— انكما تقودان الجيوش الجرّارة ، وكلاكما ماهر ومتدرّب فى فنون الحرب ، لذلك سوف تتقلدان فى السماء سلاحاً ذهبياً ، ويمنحكما ميخائيل رئيس الملائكة لقب قائدى قواته .

ولما رأى الشيخ بالمون عانقه وقال :

— هذا أعزّ أولادى وأفضلهم جميعاً . لروحه شذا عطرى كأريج زهر الفول الذى يزرعه فى كل عام .

ووجه إلى الرئيس زوزيمس هذه الكلمات :

— انك لم تقنط من رحمة الله ، لذلك فسلام الله فيك وعليك : وقد أزهرت زنبقة فضائلك على سماء فسقك .

وكان كلامه مع كلٍّ منهم مملوءًا حكمة وارشاداً .

قال للشيوخ :

— رأى الرسول حول عرش الله أربعة وعشرين شيخاً فى ثياب بيضاء ، وعلى رؤوسهم التيجان .

النائية . وارتدى بعضهم أطماراً لا تكاد تستر أجسادهم السوداء الذابلة . وكان كثيرون منهم عُراةً غير ان الله قد كساهم شعراً كثيفاً كجزّة الغنم . وكانوا جميعاً يحملون السعوف الخُضْر فى أيديهم . فأشبهوا قوس قُزح من زمرّد . ويصح تشبيههم بفرقة المرتلين المجتبين ، أو بجدران حية من مدينة الله . . .

وكان المحفل منظماً تنظيماً تاماً ، حتى ان بافنوس لم يجد أقلّ صعوبة فى العثور على مرءوسيه من الرهبان . فاتخذ مكاناً بقربهم بعدما احتاط فى اخفاء وجهه بحجابه ليبقى مجهولاً عندهم ولا يكدر عليهم ترقبهم الدينى . وبغتةً ، تعالى هتاف الجميع حتى بلغ عنان السماء .

— القديس ! القديس ! هوذا الولي العظيم ! هوذا حبيب الله الذى لم تتغلب عليه جهنم ! أبونا أنطوان !

ثم ساد السكوت ، والتصقت كل الجباه بالرمال . فتقدم أنطوان من قمة أكمة فى الصحراء ، يسنده تلميذاه المحبوبان ، ماكاريوس وأماتاس ، وسار الهوينا منتصب القامة ، يشعر الناظر اليه بأن فيه بقية من قوة فائقة . وقد سترت لحيته البيضاء صدرَه العريض . وانعكس عن جمجمتـــه المصقولة اللامعة شعاع النور كما عن جبين موسى . وكان لعينيه نظر النسر ، وعلى فمه بسمة الطفل . فبارك قومه بأن رفع ذراعيه اللتين أوهنهما عمل شاق مدة قرن كامل . وجهر صوته ، لآخر مرة ، بكلمات المحبة الآتية :

— ما أجمل خيامك يا يعقوب ! وأخبيتك يا اسرائيل !

وأنفع . وأثَّر فى نفسى بحيث جعلنى أترك الدنيا على الفور وأنزوى فى الصحراء . وفيها تمتعت عشرين حولاً بسلام لم يكدِّر صفوه شيءٌ قط . فكنت أعمل مع رهبانى حائكاً ، وبنّاءً ، ونجاراً ، وكاتباً ، مع أنه والحق يقال لم يكن لى نحو الكتابة إلا ميل ضئيل ، إذ آثرت دائماً العمل على القول ، وفضّلت الفعل على الفكر . وها هى أيامى ملوءها الفرح ، وليالىّ بغير أحلام ، وإنى لأعدّ نعمَ الله تعالى علىّ فلا أحصيها ، لأننى احتفظت بالأمل حتى في إبان أشد المعاصى هولاً . . .

فلما سمع بافنوس هذا القول . رفع بصره إلى السماء ، وتمتم :

— أترحم يا رب هذا الرجل المدنس بهذه الخطايا كلها ، أترحم هذا الزانى ، أتكلأ بعين رعايتك هذا المنتهك للحرمات ، ثم تعرض عنى أنا الذى كنت آتمر بأمرك ، وأنتهى بنهيك ! ؟ ما أشد غموض عدالتك يا إلهى ! وما أبعد طرقك عن الإدراك !

فمدّ زوزيمس ذراعيه قائلاً :

— أنظر يا أبى الموقر . ترى على جانبى الأفق صفوفاً طويلة سوداء كأنها نَمْل راحل . أولئك اخوتنا ذاهبون مثلنا للقاء انطوان

ولما وصلوا إلى الملتقى ، رأوا مشهداً بديعاً . كان جيش النسّاك يمتد ثلاثة صفوف فى نصف دائرة كبيرة . فالصف الأول يتألف من سكان الصحراء الأقدمين ، بأيديهم الصلبان وقد تدلّت لحاهم إلى الأرض . والصف الثانى من الرهبان الذين تحت امرة « افرايم » و « سرابيون » ومعهم نساك النيل . ووقف وراءهم الزاهدون الذين توافدوا من معاقلهم

السابحة فى النسمات الرائقة ، وعلى الأرض المزهرة ، وفى المياه الصافية فطوبى لمن تكون روحه وعاءً مختوماً ! طوبى لمن يعرف كيف يكون أصمّ وأبكم وأعمى ، ولا يدرك كنه شيء فى الدنيا ، ليدرك كنه الله !

ففكر زوزيمس فى هذا الكلام ، وأجابه بقوله :

— ينبغى لي يا أبي المحترم أن أقرّ لك بآثامى ما دمت قد كشفت لي عن ذات نفسك . وهكذا يعترف كل منا للآخر طبقاً للعادة الرسولية . لقد حييت قبلما أترهب حياة الرذيلة . ضربت فى أرجاء « مادورا » وهى مدينة مشهورة بغوانيها . وبحثت عن صنوف التمتع وضروب التلذذ . وكنت فى كل ليلة أتعشى مع بنات الهوى والفتيات العازفات بالناي . وآخذ إلى بيتي من تستهوينى منهن . وليس فى وسع قديس مثلك أن يتصوّر مطلقاً إلى أي درك هوت بى شهواتى . يكفينى أن أقول لك اننى لم أغادر كهلة صالحة أو راهبة ، فأتيت المنكر ، وارتكبت كل محظور ومحروم . وقد هيجت حرارة مشاعرى بالخمر ، حتى شهد لى أهل مادورا بأننى أشد السكيرين إغراقاً فى رشف بنت الحان ، وأقدرهم على استفراغ الدنان . ومع ذلك كنت مسيحياً ، واحتفظت مع كل حماقاتى وضلالاتى بإيمانى بالمسيح المصلوب . وأخيراً ، استغرقت عيشة الخلاعة والإسراف كل مالي . وبدأت أشعر بغصص الفاقة ، واذا بى أرى أحد رفقاء مسراتى قد أصيب فجأة بداء عضال فظيع . فلم تعد ركبتاه تقويان على حمله ، وعصته يداه المرتعشتان ، وأغمضت عيناه الخابيتان ، فما كانت تصدر من حلقه إلا تأوهات مروعة وكلّ ذهنه ، فهجع ، إذ مسخه الله حيواناً تنكيلاً به لأنه عاش كالحيوان . ولقد كان لى فى ضياع مالى تبصرة نافعة ، لكن مَثَل صديقى كان أبلغ

الى الاسكندرية سمعت فى بضع ساعات خطباً كثيرة ، وعرفت أن جيش الضلال لا عدد له ، وقد طاردنى ، وأحاطت بى سيوفه . . .

فأجاب زوزيمس :

— علينا أن نذكر يا أبي الموقر ، أن الأولياء ، لا سيما المتنسكون منهم، يُعرضون لتجارب مخيفة ، واذا لم تكن أذرع الملائكة قد حملتك إلى السماء ، فمن المحقق أن الرب قد أنعم بهذا الفضل على صورتك ، إذ كان فلاڤيان والرهبان والناس شهوداً على صعودك الى السماء

فعزم بافنوس على الذهاب لتلقى بركة انطون ، وقال :

— اعطنى يا أخى زوزيمس سعفة ، ولنتوجه للقاء أبينا .

فأجاب زوزيمس :

— هيا بنا ! ان الأوامر العسكرية تلائم الرهبان ، الذين هم جنود قبل كل شيء . ولأننا كلينا رئيسان فسنسير فى المقدمة ، وأولاء يتبعوننا وهم يرتلون المزامير .

بدأوا المسير، وقال بافنوس :

— الله أحد ، لأنه الحق الذى هو واحد ، والدنيا شتّى ، لأنها غيّ وضلال ، على المرء أن يُعرض عن مشاهد الطبيعة كلها حتى التى تظهر أنها غاية فى الطهارة والبراءة . فتنوّعها الذى يزينها لنا انما هو دليل على شرّها المستطير . أنا لا أقدر على رؤية حزمة من البردي فوق المياه الراكدة بغير أن تتشعب نفسي الهموم وتساورنى الكآبة . كل شيء تحسُّ به المشاعر وتدركه قبيح كريه . أصغر حبة من الرمل ذات خطر شديد . كل شيء يفتننا ويصيبنا بالإحن والنكبات . وما المرأة إلا مزيج من كل هذه الغوايات

الربع سوى عفاريت ووطاويط . صلوا من أجلى ، أنا بافنوس ، كبير رهبان أنصيبا ، أشقى عباد الله . . .

فلما سمعوا اسم « بافنوس » هزُّوا سعفهم ، وردَّدوا التسابيح ، وصاح الذى تكلم من قبل ، متعجباً :

— أفيمكن أن تكون أنت بافنوس ذلك القديس الذائع الصيت بأعماله ، حتى أن الناس يعدونه بالغاً يوماً فى الفضل مبلغ أنطوان العظيم ؟ يا أقدس قديس انك أنت الذى هدى العاهر تاييس الصراط المستقيم ، وأنت الذى إذ صعد على عمود عال حملته الملائكة ، فرأى الذين يحفرون العمود ليلاً انتقالك الميمون إلى السماء . وقد أحاطت بك أجنحة الملائكة فى سحابة بيضاء ، وامتدت يدك اليمنى وباركت مساكن البشر . وفى صباح اليوم التالى إذ لم يرك الناس ، ارتفع أنين طويل إلى العمود غير المتوَّج ، على أن تلميذك فلاڤيان أذاع المعجزة وقام مقامك فى تولى شؤون الرهبان. لكنَّ رجلاً واحداً ساذجاً يُدعى بولس ، حاول أن ينقض ما أجمعت عليه الآراء ، فقد أكَّد أنه رآك فى حلم محمولاً بالشياطين. . فأراد الناس أن يرجموه ، وقد نجا من الموت بأعجوبة . وأنا « زوزيمس » رئيس هؤلاء المتنسكين الساجدين عند قدميك ، أركع أمامك مثلهم ، كى تبارك الأب مع الأبناء ثم تخبرنا بالعجائب التى أنعم الله عليك بأن أجراها على يديك

فأجاب بافنوس :

— لست أستحقُّ شيئاً مما وصفتنى به . فان الرب قد بلانى بأهول التجارب . ولم تحملنى الملائكة ، بل انَّ حائطاً من الظل قام أمام ناظرى وتقدَّمنى . . لقد عشت فى حلم ، وكل شىء من دون الله حلم . لما شخصتُ

* * *

لما أفاق بافنوس وفتح عينيه ، رأى حوله رهباناً فى حلل سوداء ، وكانوا يصبون الماء على صدغيه ويتلون التعاويذ ، وقد وقف كثيرون منهم خارج القبر حاملين سعف النخل .

قال له أحدهم :

— سمعنا ، ونحن نجتاز الصحراء ، صيحات مرتفعة من هذا القبر ، فدخلنا ، فألفيناك طريحاً فوق الحجارة مغمى عليك . ولا ريب ان الشياطين صرعوك ، ولما شعروا بدنونا ولّوا هاربين . . .

فرفع بافنوس رأسه ، وسأل بصوت خافت :

— من أنتم يا إخوانى ؟ ولماذا تحملون سعف النخل ؟ أو ليس هذا لأجل دفنى ؟

فأجاب أحدهم :

— ألا تعلم يا أخى ان أبانا أنطوان ، وقد بلغ من العمر خمساً بعد المائة ، قد أتاه نذير بأن نهايته دنت ، فنزل من جبل كلزان ، حيث كان معتزلاً ، ليبارك أبناءه الروحيين الكثيرين . فها نحن أولاء ذاهبون حاملين السعف لنلقى أبانا الروحي . فكيف بقيت جاهلاً مثل هذا الحادث الجلل ؟ أفلم يأتِ إلى هذا القبر ملك لينبئك ؟

فأجاب بافنوس :

— وا أسفاه ! لست جديراً بمثل هذا الفضل العظيم . وليس سكان هذا

— يا يسوع ! يا سيدى يسوع ! لماذا تتخلى عنى ؟ إنك ترى الخطر المحدق بى . فتعال شد أزرى أيها المخلّص الحليم . هو ذا أبوك أصبح لا يحبنى ولا يسمعنى ، فاذكر انه لم يعدْ لي سواك . إنه لا يَرجى منه شيءٌ لي . إننى لا أستطيع إدراك كنهه ، وهو لا يرق لحالى . لكنك ولدت من امرأة ، وهذا ما يجعلنى أطمئن اليك ، وأرجو الخير على يديك . تذكر إنك كنت بشراً . اننى أضرع اليك لا لأنك نور من نور ، وإلـه حق من إلـه حقّ ، بل لأنك عشت معدماً وضعيفاً على هذه الأرض حيث أشقى وأعانى . ولأن الشيطان جرّب جسدك ، ولأن عرق النزْع ثلّج جبينك . لإنسانيتك يا معلم الانسانية أصلي وأتوسل ، يا سيدى يسوع ، يا أخي يسوع !

ولما فرغ من ابتهاله ، وقلَب كفيه ، اهتزّت جدران القبر بقهقهات مهيبة متتابعة . وقال له الصوت الذى سمعه فوق قمة العمود ، باستهزاء :

— إن هذا الدعاء جدير بصلوات ماركوس الضال . ان بافنوس اريوسى[1] ! بافنوس اريوسى !

فكأنما انقضّت صاعقة على الراهب . خرّ مغشيًّا عليه

. . . . . .

(الخير والشر)

---

(١) الاريوسى هو من ينكر لاهوت المسيح عليه السلام .

ولما جدل الحبل قطع الخوص ليصنع منه حصراً وسلالاً . فأشبهت حجرة الضريح مشغل صانع السلال . واستطاع بافنوس أن ينتقل فيها بسهولة من العمل إلى الصلاة . بيد أن الله تعالى كان لا يزال معرضاً عنه ، لأنه استيقظ فى إحدى الليالى على صوت ثلُجت بسماعه أطرافه رعباً ، إذ عرف فيه صوت الرجل الميت

دعا الصوت مستعجلاً بهمس خفيف :

— هيلين ! يا هيلين ! تعالي استحمي معي ، تعالي سريعاً !

فأجابته امرأة لامس فمها اذن الراهب :

— لا أستطيع النهوض يا حبيبى ، ان رجلاً راقداً فوق صدرى .

فأحسّ بافنوس فجأة بخده وقد استقرّ على ثدى امرأة ، عرف أنها الضاربة بالطنبور ، ولكنها تخلصت قليلاً ورفعت صدرها ، فتعلق بافنوس تعلق اليائس بالجسد الناعم ، الدافىء ، العطر ، وصاح وقد أضنته منيةُ القضاء المبرم والرغبة فى الموت الزؤام

— إلبثى ، إلبثى يا سمائى !

لكنها كانت إذ ذاك واقفة بالباب ، فضحكت ، وفضّضت أشعة القمر ابتسامتها ، وقالت :

— وماذا يفيدك بقائى ؟ ان ظل الظل يكفى عاشقاً مثلك وُهب له مثل هذا الحدْس النيِّر ، فضلاً عن إنك قد أثمت ، ففيم ترغب بعد ذلك ؟ وداعاً ! ان عشيقى يناديني . . .

قضى بافنوس الليل فى بكاء ونحيب ، ولما لاح الفجر ، فاه بضراعة أرق من شكاية ، قال :

وسرق منه يوماً شيطان ، لا يزيد طوله عن طول ذراعه ، الحبل الذى يتمنطق به . فناجى نفسه بقوله :

ـ أيها الفكر ، إلى أين اقتدتنى ؟ . . .

فصمم على أن يشتغل بيديه ، كى يمكّن عقله من الراحة التى كانت تعوزه . وكان بقرب الينبوع أشجار موز كبيرة الورق نامية فى ظل النخيل. فقطع جذوعها وحملها إلى القبر حيث سحقها بحجر وحوّلها إلى ألياف أو خيوط دقيقة مثلما شاهد صانعى الحبال يعملون . لأنه ارتأى صنع حبل بدل الذى سرقه الشيطان منه . فأحس الشياطين ببعض الانزعاج وكفّوا عن ضجيجهم . وأقلعت فتاة الطنبور عن السحر ، واستكنّت على الجدار الملوّن . وشدّدَ بافنوس شجاعته وإيمانه وهو يدق سيقان الموز ، وحدث نفسه بما يأتى :

ـ سأتغلب بعون الله على الجسد . أما الروح فقد احتفظت بالرجاء . وعبثاً تحاول الشياطين وهذه المرأة الجهنّمية أن تدخل على نفسى الشكوك فى طبيعة الله . سأجيبها بلسان يوحنا الرسول : « فى البدء كان الكلمة . وكان الكلمة الله » . إن إيمانى بهذا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وإن كان هذا الذى أؤمن به لغواً باطلاً زدت إيمانى به رسوخاً وثباتاً . بل أنه يجب أن يكون لغواً باطلاً ولو لم يكن كذلك لما كنتُ أؤمن به بل كنت أعرفه . فالآن لا تمنح المعرفة الحياة ولكنّ الإيمان وحده هو الذى ينقذ .

عرّض الألياف المفسولة للشمس والندى . وعُني فى كل صباح بتقليبها ـلا تتعفن . وسرّ باحساسه بأن سذاجة الطفولة قد انبعثت فى نفسه .

الأزهار رؤوساً بشرية صغيرة ، أشرقت وجوهها وازيّنت كمعبودات المصريين ، ونسوراً وصقوراً ، وقرص قمر متألق ، بينما كان نسياس على حافة ينبوع يدرس ، فوق فلك حلقي ، حركات الكواكب المنتظمة . . .

وعندئذ اقتربت من الراهب امرأة مقنّعة تحمل فى يدها غصناً من الريحان ، وقالت له :

— انظر ! البعض ينشد الجمال الخالد ويطلب تأييد حياته الفانية ، والآخرون قليلو الاكتراث ، ولكنهم باستسلامهم هذا وحده للطبيعة الجميلة تراهم سعداء ذوى جمال وفى رغد من العيش يمجدون مبدع جميع الكائنات . فالإنسان هو أنشودة مطربة من أناشيد الله . وتراهم جميعاً يعدون السعادة جائزة والهناءة مباحة ، فاذا كانوا على حق صادقين ، فلشدّ ما تكون يا بافنوس غراً غافلاً

ثم زالت الرؤيا

* * *

وهكذا حاربت بافنوس التجارب والغوايات فى جسده وعقله حرباً لاهدنة فيها . لم يدعه إبليس طرفة عين مستريحاً . وكانت وحدة ذلك القبر أعمر الناس من مفارق الطرق فى مدينة كبيرة . وضجّ الشياطين من حوله بالقهقهات المرتفعة . وقامت هناك ملايين من أشباح الموتى بأعمال الحياة العادية . ولما مضى فى المساء إلى الينبوع ، رقصت حوله المسخوطات مختلطات بالهمّات الحقول . وقدنه فى دورانهن الفاسق . وعادت الشياطين لا تخشاه ، وأثقلت عليه بالمداعبات وغمرته بالشتائم البذيئة واللعنات واللطمات .

ـ ربما كان الرجل المدفون هنا تحت قدمى عارفاً بسر الكلمات المسطورة فى ذلك الكتاب المملوء بالألغاز ، فى ضريح ملكي قريب من هنا . فبفضل هذه الكلمات يتخذ الموتى الأشكال التى كانت لهم على ظهر الأرض ؛ فيرون نور الشمس وبسمة المرأة .

وكان أشد ما يخشاه أن تتعانق فتاة الطنبور والرجل الميت ، كما فى الحياة، فيراهما متلاصقين . . . وخيّل اليه أحياناً انه سمع صوت قبلات خفيفة . . .

ملك الاضطراب زمام أمره . والآن ، وقد تخلى عنه الله ، خاف الفكر كما خاف الشعور . وفى أحد الامساء ، بينا كان ساجداً كعادته ، قال له صوت مجهول :

ـ بافنوس ! ان على سطح الأرض من الناس أكثر مما تظن : ولو أظهرت لك ما رأيت لمتّ من الخبل . فمنهم رجال لهم عين واحدة فى وسط جباههم . ورجال لهم ساق واحدة يحجلون بدل المشى . ورجال من شجر تنمو جذورها فى الأرض . ورجال يغيرون أجناسهم ، وأناث يصرن ذكوراً . ورجال بغير رؤوس ولهم أيضاً عينان وأنف وفم فى صدورهم ـ فهل تصدّق ، بذمتك ، أن المسيح قد مات لأجل خلاص هؤلاء الناس؟

ورأى مرة أخرى رؤيا . رأى فى نور ساطع جسراً وجداول وحدائق. وكان على الجسر أريستوبول وشيراس يركضان جواديهما السوريين . وقد صبغ حب السباق وجناتهما بالاحمرار . وكان الشاعر كاليكرات ينشد أشعاره تحت إيوان ، والكبرياء الراضية تتهدج فى صوته وتشرق من عينيه. وكان زينوتميس فى بستان يجمع تفاحاً ذهبياً ، ويلاطف ثعباناً ذا جناحين لازورديين . وهيرمودور يفكّر تحت شجرة لبخ مقدسة تحمل بدل

يا بافنوس فى غرابة موقفك عندما تنظر روحك السعيدة من علياء السماء فترى جثمانها يستسلم للخطيئة ! والله الذى وعد أن يرد اليك هذا البدن بعد يوم الحساب ونهاية الدهور سوف تعتريه هو أيضاً دهشة شديدة ! كيف يقدر أن يُحِلَّ فى مجد سماوى جسماً بشرياً يسكنه شيطان وترعاه ساحرة؟ انك لم تحسب حساب هذه المشكلة ، وربما لم يحسب الله لها أيضاً حساباً ، إنه — والكلام بينى وبينك — ليس على شىء من الحذق والدهاء . وان أبسط ساحرة لتخدعه بسهولة . ولو لم يكن لديه رعده وجنادل سمائه ، لأخذه أطفال القرية بلحيته . الحق انه ليس من الفطنة بمنزلة خصمه الثعبان المسنّ . فهذا الأخير فنّان عجيب . ولستُ على هذا الحسن والجمال إلاّ لأنه أتقن زينتى ، وعلّمنى كيف أضفر شعرى ، وأجعل أصابعى كالورد ، وأظفارى كالعقيق . وأراك قد استخففت به لما أتيت لتعيش فى هذا القبر ، إذ أقصيت بقدميك الأفاعى التى كانت هنا وسحقت بيضها ، ولم تبحث عنها لتعلم هل كانت من أسرته . فأخشى يا صاحبى المسكين أن تكون قد سعيت إلى حتفك بظلفك ، وعلى نفسها جنت براقش ! ومع ذلك فقد أنذرت من قبل وجرى فى علمك أنه موسيقار عاشق . فماذا فعلت ؟ انك تحدَّيت العلم والجمال . فما أشقى حظك وأعثر جدك ، أمّا « يهوه » فلن يجىء ليشد أزرك . فهو ضخم بحجم الكائنات كلها ، فلا يستطيع التحرك لحاجته إلى فضاء . واذا أتى بأقل حركة ، وهذا مستحيل ، انقلب الكون كله . . . يا ناسكي الجميل ، هات قبلة !

لم يكن بافنوس يجهل ما تأتى به فنون السحر من غريب الفعال ، فحدث نفسه ، وقد ألح عليه الوهم والقلق :

فى أناقة النخيل ، وطيران الحمام ، وقفز الغزلان : وتموُّج الغدران ، وضوء القمر . واذا أغمضت عينيك ، وجدتني فى سويداء قلبك وقرارة نفسك . منذ ألف سنة ضمني إلى صدره الرجل الراقد هنا ، ملفوفاً بأكفانه ، فوق مضجع من حجر أسود . منذ الف سنة تملَّى القبلة الأخيرة من فمى ولا يزال رقاده معطراً بشذاها . انك تعرفني يا بافنوس حق المعرفة.فكيف تتجاهلني؟ اني أحد تجسدات تاييس التى لا تعد ، وأنت راهب راسخ فى العلم والمعرفة، وقد سافرت ، والسفر خير معلم ، وكم من يومٍ يُقْضَى فى الغربة ويأتى بُطرف وفوائد لا تُنَال فى عشر سنوات تقضى فى الوطن . لقد طرق سمعك أن تاييس عاشت قديماً فى « أسباطة » باسم « هيلانة » وكانت لها حياة أخرى فى مدينـــة طيبة ، وأنا التى كانت تاييس طيبة . فكيف غاب عنك هذا الأمر ؟ لما كنتُ على قيد الحياة ، اشتركت فى أكثر خطايا العالم ، والآن وان كنت لست سوى خيال ، لا أزال قادرة على الاشتراك فى ذنوبك وحملها عنك أيها الراهب الحبيب . فما مصـــدر دهشتك ؟ أيَّان تذهب ، تجد تاييس حتماً امامك .

فدقَّ بافنوس جبهته بالحجارة وصرخ من شدة الفزع.وكانت الضاربة على الطنبور تترك الحائط فى كل ليلة ، وتتقدم وتتكلم بصوت جلىّ، ممزوج بأنفاسها الباردة . ولما قاوم القديس هذه التجارب كلها ، قالت له :

ـــ ملِّك هواي فؤادك وأذعن لي ! ما دمت تقاومنى فسأعذبك وأنكّل بك . انك لا تعرف مبلغ صبر امرأة ميتـــة . سوف أنتظر اذا لزم الأمر حتى تموت ، وبوسعي ، لكونى ساحرة ، أن أضع فى جثتـــك الهامدة روحاً تعيد اليها الحياة فلا تأبى إجابة ما رفضته الآن . فكّر

مزقتها السهام ، ومزارعين منهكين بالزرع والحصاد ، ونساءً يرقصن على نغمات الرباب والناي والعود ، وفتـــاة تضرب بالطنبور وزهرة اللوتس تتألق على شعرها الأسود المقوص بشكل بديع . وكان ثوبها الشفاف يمكّن الناظر من رؤية تقاطيع جسدها الرائعة . أما ثغرها وصدرها فقد نازعا الأزهار بهاءَ الصنع وجمال التكوين . فلما تأمّل بافنوس فيها ، غضّ من بصره وأجاب « الصوت » بقوله :

ـــ لماذا تأمرني بمشاهدة هـــذه الصورة ؟ أنها ولا شك تمثل الحياة الترابية للكافر الدفين هنا تحت قدمي ، في قاع جب ، في تابوت من صخر بركاني أسود . أنها تعيد حياة رجل ميت وتذكّر به وهي على الرغم من ألوانها البرّاقة ليست سوى أظلال ظل ، حياة رجل ميت ! . . فيا للغرور! .

فردَّ عليه « الصوت » بهذه الكلمات :

ـــ انَّه ميت ولكنه قد عاش ، وأنت ستموت ولن تكون قد عشت

من ذلك اليوم لم يذق بافنوس طعم الراحة قط . واستمر الصوت يكلمه بلا انقطاع . ونظرت اليه الضاربة بالطنبور محدقةً من تحت أهداب عينيها الطويلة . ثم كلّمته قائلة :

ـــ انظر ! اني خفيَّة وحسناء . فاحبني . وأفرغ في حضني الهوى الذي يضنيك . إنَّ خوفك لا يجديك نفعاً ، ولن تستطيع الفرار مني . أنا جمال المرأة . فيا أيها المعتوه أين المفرّ ؟ سوف تجد صورتي في بهاء الأزهار ،

عن يمينه ويساره ممتدَّة أمامه إلى ما وراء الأفق . وكانت مساكنها منفصلة بعضها عن بعض ومتشابهة كأنها أهرام قطعت إلى منتصف ارتفاعها ، تلك كانت أجداثاً ، محطمة الأبواب ، ومن خلال قاعدتها شخصت عيون الضباع والذئاب التي تطعم جراءها . وعلى مدخلها جثث الموتى وقد عرّاها اللصوص ونهشتها الحيوانات المفترسة . ولما اجتاز بافنوس هذه المدينة — مدينة الموتى — سقط منهوك القوى أمام قبر منفرد بقرب ينبوع يظلله النخيل . وكان القبر كثير الزخرفة ولكنه بلا باب وفى داخله حجرة مملوءة بالأفاعى . فتنهد قائلاً :

— ههنا منزلي المختار . هيكل توبتي وندامتي ، وخِباء حسرتي وانابتي .

ثم دلف اليه ، وطرد الصلال بقدميه ، ولبث ملقى على الحجارة ثماني عشرة ساعة ، ثم ذهب إلى الينبوع وشرب منه براحة يده ، وجمع قليلاً من التمر وبعض الحبوب من أغصان اللوتس فتقوّتها . واستصوب هذه المعيشة فجرى عليها . فما كان يرفع جبهته عن حجارة القبر من الصبح حتى المساء .

* * *

ففي ذات يوم إذ كان مطروحاً على هذا الوجه سمع صوتاً يقول له :

— تأمَّل في هذه الصور لتتعلَّم !

فلما رفع رأسه رأى فوق جدران الحجرة تصاوير تمثل مشاهد مضحكة ومألوفة . وكانت قديمة العهد وغاية في الإتقان . بعضها يمثل طهاةً ينفخون في النيران بخدود منتفخة ، وبعضها يمثل أناساً ينتفون ريش الأوز أو يطبخون فى الآنية شرائح الضأن ، وبقربهم صياد يحمل على كتفيه غزالة

فكنت ألعوبة الشياطين . وكذلك كان إبليس هو الذي أتى بي إلى هنا . لما رفعني فوق هـــذا العمود : صعدت معي الأهواء والكبرياء . فليست تجاربي هي التي تهولني . فقد كابد مثلها أنطوان فوق جبله ، وأودّ أن تمزّق سيوفهـا بدني أمام أعين الملائكة . نعم ! لقد توصلت إلى إعزاز آلامي ، غير أن الله صامت لا يبدي ولا يعيد ، وصمته يحيرني ويدهشني . انه يتخلى عني وليس لي سواه . إنه يدعني وحيداً في مخاوف إعراضـه . إنه يفر مني وإني أروم الجري خلفه . هذا الحجر يلهب قدميّ بشواظ من نار ، فلأنطلق سريعاً ، فلأتركنّه . . . وأرقَ أسباب السموات لعلي أدرك الله!..

وللحال أمسك بالسلم الذي كان قد بقي مستنـــداً إلى جانب العمود ، ووضع قدمه عليه وهبط درجة فألفى نفســه مواجهاً لرأس الوحش الذي ابتسم ابتسامة غريبة . فتحقق أن المكان الذي اتخذه لسلامه ورفعته لم يكن سوى أداة جهنمية لرزئه المبرم . فسارع في النزول إلى الأرض وزلّت قدماه والتفّت ساقاه وتمايلتا ، ولكنه وقد أحسّ بظل العمـــود فوقه أكره نفسه على الجري . وكان الكرى قد أخذ بمعقد كل جفن ، فاجتاز الساحة الكبيرة المحوطة بالحانات والنُزُل والفنادق ولم يَرَهُ أحد . واندفع إلى درب مؤدٍ إلى تلال ليبيه . وتبعه كلبٌ نابح لكنه وقف في مبتدى رمال الصحراء فلم يعدها . وأمعن بافنوس السير في بلاد مسالكها مفاوز للوحوش الضارية . وخلّف وراءه الأكواخ التي هجرها مزيفو النقود . وقضى فى فراره الموحش ذلك الليل والنهار الذي تلاه .

أخيراً ، وقد بلغ به الجوع والظمأ والإعياء حدَّ النزْع ، وهو لا يزال يجهل مبلغ بعد الله منه ، عثر على مدينة خيّم عليها السكوت ، وقد انبسطت

ثم وازن ذراعيه الممتدّتين ، فكانا كجناحي طائر مريض عاريين من الريش ، وأوشك أن يقذف بنفسه ، فرنّت في أذنيه قهقهة استهزاء مرعبة ، فسأل وقد أرهقه الجزع :

— من ذا الذي يضحك هكذا ؟

فعوى الصوت ، يقول :

— آه ! آه ! إنّا لا نزال في بدء صداقتنا وسوف تتقوى يوماً آصرة المحبة بيننا فتعرفني جيداً . هو أنا يا عزيزي الذي جعلك تصعد إلى هنا ، ويحق لي أن أبدي سروري بإذعانك الذي أتممت به جميع رغباتي . فأنا مسرور منك يا بافنوس !

فتمتم بافنوس بصوت يتهدّج من الخوف :

— إلى الوراء ! إلى الوراء ! لقد عرفتك ، أنت أنت الذي رفعت المسيح على ذروة الهيكل وأريته جميع ممالك الدنيا(١)

وسقط على الحجر فزِعاً ، وفكّر :

— لماذا لم أعرفه من قبل ؟ انني أشقى من أولئك العمي والصم والمفلوجين الذين وثقوا بي . لقد فقدت كل دراية بالأشياء غير العادية . وصرت شرًّا من المعتوهين الذين يأكلون التراب ويقربون جثث الموتى . وعدت لا أميّز ضجة جهنم من صوت السماء . لقد عدمت كل فطنة ، حتى فطنة الطفل الرضيع الذي يبكي عندما يؤخذ عن ثدي أمه ، وفطنة الكلب الذي يقتفي أثر صاحبه بواسطة الشمّ ، والنبات الذي يتجه صوب الشمس ،

---

(١) يريد به الشيطان

— قم يا بافنوس واذهب للقاء قسطنطوس الطاغية فى قصره ، لأنه بدل أن يحتذي أخاه قسطانس فى حكمته ، مال إلى ضلالة أريوس وماركوس . اذهب ! سوف تفتح أمامك الأبواب النحاسية وسوف ترن نعلك فوق الممشى الذهبي أمام عرش القياصرة ، وسوف يغيّر صوتك الرهيب قلب ابن قسطنطين ، ويمتد سلطانك على الكنيسة . وكما تقود الروح الجسد . كذلك تسود الكنيسة على الامبراطورية . سوف تعلو يا بافنوس على الوجهاء والأمراء والشرفاء . سوف تضع حدا لجوع الناس وشراهتهم ، وعتوّ البرابرة وفظاعتهم . وعندما يرى الشيخ كوتا أنك على رأس الحكومة: يبذل جهده ليحظى بشرف غسل قدميك . وعند موتك يؤخذ ثوبك الوبري إلى بطريرك الاسكندرية أثناسيوس الكبير الذى شاب فى المجد ، فيلثمه ويعدّه ذُخراً من وليّ حميد — اذهب ، على الطائر الميمون !

فأجاب بافنوس :

— فلتكن إرادة الله !

ثم اجتهد فى الوقوف ، واستعد للنزول ، لكن صاحب الصوت ناجاه قائلاً :

— إياك والنزول على السلّم ! فهذا ما يفعله الرجل العادي ولا يليق بمواهبك . قدّر سلطانك بأحسن من هذا يا بافنوس الملائكى ! ومن كان وليّا قديساً مثلك يجب عليه أن يطير محلّقاً فى الجو — اقفز ! ان الملائكة بانتظارك لتتلقاك فاقفز !

فأجاب بافنوس :

— لتكن مشيئة الله كما فى السماء كذلك على الأرض !

الذى دعا كوتا الناسك اليه عشاء ربّانيًّا ، وليمة روحية ، مائدة سماوية ! ! وألبست قصة هذا اللقاء زخارف تفاصيل عجيبة ، كان الذين ابتدعوها أول من صدقها ! ! فقالوا انه لما اعتنق كوتا الإيمان بعد جدل طويل ، هبط ملك من السماء يمسح العرق عن جبينه ! وزعموا أن طبيبه وكاتم سرّه اهتدى بمثله.

ولما اشتهرت المعجزة ، دوّنها شمامسة كنائس ليبيه الكبرى ضمن الوقائع الموثوق بصحتها ! . . .

ومن ذلك الحين يمكن القول بلا تردد أن الدنيا من أقصاها إلى أقصاها قد تملكتها الرغبة فى زيارة بافنوس . وإن كل المسيحيين فى الغرب ، كما فى الشرق ، ولووا أبصارهم الخاشعة شطره . وأوفدت أشهر مدن إيطاليا السفراءَ اليه . وكتب إليه قيصر روما قسطانس التقي ، الذي ظاهر الأرثوذكسية المسيحية ، كتاباً قدمه القاصدون الرسوليون باحتفال مهيب..

* * *

في إحدى الليالى والمدينة راقدة فى الظلّ عند قدميه ، سمع بافنوس قائلاً يقول :

— لقد صرت يا بافنوس شهيراً بأعمالك ، قوياً بأقوالك . لقد رفعك الله لرفعته ، واختارك لعمل المعجزات ، لتبرىء المرضى ، وتهدي الوثنيين ، وتنير الخاطئين ، وتزعج الجاحدين الأريوسيين ، وتعيد إلى الكنيسة السلام . . .

فأجاب بافنوس :

— فلتكن مشيئة الله !

فعاد الصوت يقول :

بين العامة بالمرض الإلهي ، وإن تكن الأمراض جميعها إلهية على السواء، لأنها كلها تأتى من الآلهة . وللوهم تأثير فى هذا المرض . وأنت ترى يا لوسيوس أن هذا الكاهن ، الجاثم هكذا فوق رأس معبودة ، يؤثر فى أذهان المرضى تأثيراً أقوى من تأثيرى أنا المحنى فى معمل عقاقيرى فوق هواوينى وقواريرى توجد يالوسيوس قوى أشد بأساً من العقل والمعرفة.

فسأله كوتا :

— وما هى ؟

فأجاب أريستيه :

— الجهل والحماقة .

فقال كوتا :

— ان ما أراه أمامي الآن لمن الأشياء التى يندر أنى رأيت أشد منها شذوذاً . وآمل أن يروي يوماً كاتب قدير قصة تشييد « مدينة العمود » . ولكن لا يجوز للرجل الرزين العامل أن يعاق حتى بأندر المشاهد عن تأدية واجباته ، هيا بنا نتفقد الترع . الوداع يا بافنوس الصالح ! أو بالحري إلى الملتقى ! إذا حدث يوماً أن نزلت إلى الأرض وعدت إلى الاسكندرية ، فأرجو ألاّ تنسى الحضور لتناول العشاء معي .

سمع الحاضرون هذه الكلمات ، فتلقفها فم بعد فم ، وأذاعها المسيحيون ورددوها ، فأضافت إلى مجد بافنوس مجداً جديداً . وقد زينت المخيلات الورعة هذه الكلمات وعظمتها . وأشيع أن القديس قد هدى ، من قمة عموده ، قائد الأسطول إلى الإيمان بالرسل وآباء « نيسيه » . وضمن المسيحيون كلمات أوريليوس كوتا الأخيرة معنىً مجازياً . فعدوا العشاء

فى الجو بسلام ، معرضاً لشتائم الطير وغزواتها وحدها . وفائدتى ليست فى البطش به ، وإنما فى استطلاع أفكاره ، وما ملكت أيمانه وعقائده .

ثم نفخ ، وسعل ، ووضع يده على كتف كاتم سرّه ، وقال :

— دوّن يا بنىّ أن خطف العاهرات والجلوس على العُمُد يعدّان عند بعض طوائف المسيحيين أمراً محموداً ! ويمكنك أن تزيد أن هذه العادات دليل عبادة آلهة الشهوات ! ولكن علينا أن نسأل الرجل نفسه فى هذا الموضوع .

ثم رفع رأسه ، وأظل عينيه بيده من الشمس ، وصاح :

— يا هو ! يا بافنوس ! إذا كنت تتذكر أنك كنت ضيفى ، فأجبنى : ماذا تصنع فى هذا المكان ؟ لماذا صعدت حيث أنت ولماذا تقيم ! وأية دلالة لهذا العمود فى فكرك ؟

فلم يتنزل بافنوس لإجابة كوتا ، لأنه كان يعدُّه وثنيًّا . لكن تلميذه فلاڤيان تقدم وقال :

— يا مولاى العلىّ الشأن ! ان هذا القديس يحمل خطايا العالم ويبرىء الأمراض .

فصاح كوتا :

— يميناً بجوپيتر ! أسمعت يا أريستيه ؟ أن « ساكن مدينة السحب Le néphélococcygien » يزاول الطب مثلك ! فماذا تقول فى هذا الزميل المعلّى ؟

فهزّ أريستيه رأسه وقال :

— يجوز أنه يفوقنى فى شفاء بعض الأمراض ، مثل الصرْع المسمى

أمراض الجسد وسيلة لترقيـــة خواص العقل : وانى لأضرب لك مثل « كريون » الذي كان فى صغره الكل غبياً فصار بعد أن هشم جمجمتـــه بسقوطه من سلم ، ذلك القانونى الضليع الذى تعرفه . ولا بد أن يكون هذا الكاهن مصاباً فى بعض أعضائه الباطنيـــة . ومع ذلك فهو غير متفرّد فى نوع معيشته كما يلوح لك يا لوسيوس . تذكر مترِيضي الهند الذين يستطيعون البقـاء بغير حراك البتـة لا عاماً واحداً وإنما عشرين وثلاثين ، بل أربعين عاماً ! . . .

فأجاب كوتّا :

— قسماً بجوبيتر أن هذا ضلال مبين . لأن الإنسان خُلق ليعمـل ، والجمود جريمـة ، لأنه مضر بالدولة . وإنى لا أدري لأية ملّة أعزو هـذه العادة المنحوسة . ويحتمل أن بعض المذاهب الأسيوية مسؤول عنها . لمـا كـنت حاكماً على سورية ، شاهدت نصباً فى أروقة مدينـة الحـيرة . وكان يعلوه رجل مرتين فى كل عام ، ويبقى فوقه سبعة أيام . وكان الناس مقتنعين بأن هذا الرجل يتوسل للآلهة بحديثه معها فتنزل على سورية المنّ والسلوى. وقد استهجنت هذه العادة ، لـكننى لم أعمل على إبطالها لأنى أرى أنه لا يجوز للحاكم أن يستأصل عادات أهل البلاد، بل عليه أن يرعاها . وليس للحكومة أن تلزم الناس عقيدةً ، فان واجبها المحافظة على ما هو موجود منها ، سواء أغثّا كان أم سميناً ، فقد سفته روح الزمان والمكان والجماهير . فاذا سعت الحـكومة فى محاربة دين من الأديان ، ظهرت مظهر الثائر العاتى ، وكانت حَـرِيَّـة بالبغضاء . هذا فضلاً عن أنّ السبيل الوحيد للترفُّع عن خزعبلات العامة هو فهمها وإباحتها . وأرى يا أريستيه أن أترك ساكن مدينة السحب هذا

يكتب، بعد أن أتم التاريخ القرطاجنى ، كتاباً عن الأشياء العديدة التى رآها، وبدا عليه أنه سُرَّ كثيراً بالمشهد الذى أمامه . قال ، وقد عرق ولهث :

— إنه لشيءٌ غريب ! وانها لحادثة تستحق أن تسجَّل . فالرجل كان ضيفاً علىَّ يوماً من الأيام . أجل ! . هـذا الكاهن تعشى معى فى العام المنصرم وبعدها خطف إحدى الممثلات .

ثم التفت إلى كاتم سره ، وقال :

سطِّر هذا يا بنيّ فى ألواحي . كذلك ودوِّن قياس العمود، ولا تغفل الإشارة إلى شكل القمة .

ثم مسح جبينه ثانية . وقال :

— لقد أكَّد لى الثقات أن كاهننا صعد فوق هذا العمود منذ سنة خلت ، ولم يغادره قطّ . فهل هذا فى الإمكان يا أريستيه ؟

فأجاب أريستيه :

— إنه فى إمكان رجل معتوه أو مريض . لكنه مستحيل على إنسان متمتع بقواه العقلية والبدنية . أوَ لاَ تعلم يا لوسيوس أن أمراض العقل والجسد تمنح أحياناً المصابين بها قوةً لا يتمتع بها الأصحاء ؟ الحق أقول أنه لا وجود حقيقيٌّ للصحة الجيدة ولا للصحة الرديئة . نعم ، توجد حالات متباينة لأعضاء البدن . وقد اتضح لي من دراسة الأمراض أنها أشكالٌ ضرورية للحياة . وقد وجدت فى دراستها لذة أكبر مما فى محاربتها .

ومنها مالا يمكن إغفال الإعجاب به ، وهو ما يخفى تحت اختلاله الظاهري ، أعمق النظامات وأدقها ، كالحمى الرباعية مثلاً (١) . وفى بعض الأوقات تكون

---

(١) التي تأتى كل أربعة أيام

اكفّر عنها جميعاً ! لست أصدق ما سمعته من بعض الدجالين عن كلبة « أسبارطه » أنها حملت خطايا العالم ، ولكنّ لهذه الأسطورة معنى خفياً أدركه الآن . لأن آثام البشر تدخل حقيقةً أرواح الأولياء لتغرق فيها كما فى هاوية . وعلى هذا فنفوس الأبرار مدنّسة بأدران أرجس جدًّا من التى فى نفوس الأشرار ، لهذا أحمدك يا إلهى وأشكر فضلك لجعلك إياي بالوعة أقذار الكون !

* * *

وحدث يوماً أن انتشرت فى المدينة المقدسة إشاعة ذات شأن ، وبلغت الناسك ، وهى أن قائد أسطول الاسكندرية لوسيوس أوريلوس كوتّا — قادمٌ . . . وعما قليل يصل . . .

كانت الأنباء صادقة . وكان كوتّا الشيخ ، الذى خرج يتفقد الترع والملاحة فى نهر النيل ، قد أبدى غير مرة رغبة فى مشاهدة « صاحب العمود » والمدينة الجديدة التى أطلق عليها اسم « ستيلوپوليس Stylopolis » .

وفى صباح أحد الأيام رأى سكان « مدينة العمود » النهر مغطى بالأشرعة ، وظهر كوتّا على ظهر سفين مطلية بالذهب مشدودة بالأرجوان ، يتبعها أسطوله الصغير ، فخرج يصحبه كاتم سرّه حاملاً ألواح كتاباته ، واريستيه طبيبه الذي كان يشجوه حديثه .

سار وراءه خدم وحشم كثيرون « وغطى الشاطىء بالأردية الرومانية وبذلات الجند الرسمية . فوقف على بضع خطوات من العمود وبدأ يفحص صاحبه ماسحاً جبهته خلال ذلك بطرف وشاحه . ولما كان طلعة بطبعه فقد لاحظ أشياء كثيرة فى رحلاته الطويلة حنّ لذكرها ، وعقد العزم على أن

فما كان ثمة شيء يُرى سوى أظلال حمراء ، وأشكال سوداء . وقام فى وسط دائرة من المنصتين الجالسين القرفصاء ، شيخ هَرِم يمثل « خيال الظل » . فقص حكاية أحد القدماء الذى انتزع قلبه من صدره ودفنه فى جوف شجرة سنط ، ثم حوّل نفسه إلى شجرة ! وعمل الرجل حركات كرّرها ظلّه بمبالغة مضحكة ، فهتف الحضور معجبين ، واضطجع السكارى فى الحانات على الأرائك وطلبوا الجعة والنبيذ . ومثلت أمامهم راقصات مكتحلات العيون ، عاريات البطون ، بعض المشاهد الدينية والمناظر المحركة للشهوات . وفى جانب آخر ، كان الشبان يلعبون النرد والرجال المسنّون يتبعون البغايا فى الظلام .

وفوق هذه الصورة المتحركة كان العمود وحده ثابتاً ، وعليه بافنوس مراقباً ، بين السماء والأرض . وارتفع القمر فجأة فوق النيل كذراع الهة عارٍ . فسالت التلال بأضواء زرقاء ، وخيّل إلى بافنوس أنه يرى لحم تاييس مشرقاً فى تألق المياه فى كبد الليل الياقوتى . . .

* * *

مرت الأيام وظلّ القديس فوق عموده . فلما أتى فصل الأمطار اخترقت مياه السماء شقوق السقف وغمرت جسده ، فعجزت أعضاؤه المخدّرة عن الحركة . وأحرقت الشمس جلده ، وحمّره الندى فتشقق . والتهمت القروح الكبيرة ذراعيه وساقيه . بيد أن شهوة تاييس ظلّت تجيش فى داخله وترعى فى باطنه ، فصاح :

— أيها الرحمن ! هذا لا يكفى ! زدنى من التجارب والوساوس ! زدنى من الأفكار الشريرة والشهوات الخبيثة ! تني يا رب شهوات الناس كلها كى

القديمة . فكنت ترى فوق السهل الفسيح ، حلل المصريين المخططة وقد اختلطت ببرانس العرب ، وثياب للنوبيين القنطية ، ومعاطف اليونانيين القصيرة . وأردية الرومان الطويلة ، وسراويل البرابرة القرمزية ، وأثواب السرارى الذهبية . وكانت النساء المحجبات يحزن الطريق راكبات الحمير يتقدمهن حصيان سود يفسّحون لهن بالعصي . وفرش البهلوانون على الارض سجادهم ، ولعبوا ألعاباً مدهشة أمام دائرة من المشاهدين الذين عاينوها وكأنّ على رؤوسهم الطير . وعرض الحواة مشاهد غريبة من الثعابين والأفاعى ، ومدوا أذرعهم ونشروا مناطقهم الحية . . .

وهكذا كان حشدٌ عظيم يضيء ويتألّق ، ويعفّر ، ويطنطن ، ويهدر ، ويجعجع . فمن شتائم الجمّالة وهم يجلدون جمالهم ، إلى صياح التجار الذين كانوا يبيعون تعاويذ الوقاية من الجذام والإصابة بالعين ، إلى ترانيم الرهبان وهم ينشدون آيات من الكتاب المقدس ، إلى عواء المتسولين وهم يرددون أغانى الحريم القديمة . إلى ثُغاء الغنم ، ونهيق الحمير ، ونداء البحارة المسافرين المتباطئين — هذه الأصوات كلها امتزجت بعضها ببعض فألفت ضجيجاً يصم الآذان ، وزاد عليها زئاط أولاد الزنوج العُراة الذين كانوا يجرون من مكان إلى آخر يعرضون للبيع البلح الرطب .

وكانت جميع هذه المخلوقات المختلفة قد حُشرت تحت السماء الصافية الأديم ، فى جو كثيف محمّل بعطور النساء ، وطيب الزنوج ودخان الطهي ، وأبخرة الصموغ التى اشتراها من الرعاة تقيات النساء ، ليحرقنها بخوراً أمام القديس .

ولما جنّ الليل ، كانت النيران والشعل والمصابيح تضيء فى كل مكان .

فلما شاع بين الناس أمر المعجزات التى عملها القديس ، أقبـــل الجمّ الغفير من المصابين بالداء الذى أطلق عليه الاغريق اسم « المرض الإلهـى » ، من جميع أنحاء مصر . فما شاهدوا العمـــود حتى تشنّجوا وتمرّغوا على الأرض واختبلوا وتكوّروا . ومما يكاد لا يُصدّق أن الحاضرين أصيبوا بدورهم بهذيان شديد ، والتووا كالمصروعين . وتمرّغ الكهنة والحجاج والرجال والنساء مختلطين بعضهم ببعض . والتوت أطرافهم ، وفاض الزبد من أشداقهم وهم يلتهمون التراب بالحفنات ويتنبأون .

فشعر بافنوس ، من قمـــة عموده ، برعدة تتمشى فى أعضائه ، وصاح متجهاً إلى الله :

ـــ أنا التيس المغضوب عليه ، حمّال الذنوب ، أحمل فى عنق أدران هؤلاء الناس ، وهذا يا رب هو سبب امتلاء جسدى بالأرواح الشريرة .

وكان كلما مضى مريض وقد شُفى مما أصابه ، يحملة الحاضرون هاتفين هتاف الانتصار .

ولقـد علقت مئات العكازات حول العمود المُعْجِزْ وعلقت عليـه النساء الشاكرات أكاليل الزهر والصـــور المنذورة . ودوّن فيه بعض الأغريق قطعاً من الشعر البليغ . ونقش عليه كل حاج اسمه حتى أصبح كله مغشّى بما لا يحصى من الحروف اللاتينيـة واليونانية والقبطية والفرجينيـة والعبرانية والسورية والسحرية .

* * *

وجاء عيد الفصح فتدفق على مدينة العجائب هـذه سيـلٌ جارف من البشر حتى أن الطاعنـــين فى السنّ حسبوا أنهم عادوا إلى أيام الأسرار

إلى ما هو فىّ . فى قلبي أحوي مدناً لا تُعد ، وصحارى لا تُحد ، والشر والموت ، يمتدان فوق هذا المتسع غير المحـدود ، يدثّـرانه كما يدثّـر الليل الأرضَ . وفىّ أنا وحدي عالم أفكار شريرة . . .

قال هذا القول ، لأن اشتهاء المرأة كان متسلطاً عليه ، ممتزجاً بلحمه ودمه.

* * *

وفى الشهر السابع أتى اليه من الاسكندرية وتلّ بسطه وسائس ، نساء عاقرات ، يرجون أن يُـرزَقنَ أولاداً بشفاعته وبركة العمود . فحكن خواصرهنّ بالحجر . ثم أقبلت مواكب لا يبلغ الطرف آخرها من المركبات والمحفّات والنقّالات ، وازدحمت حول العمود القائم عليـه رجل الله . وخرج منها مرضى فى حالة مخيفة . وعرضت الأمهات على بافنوس أولادهن المصابين بالكسح والعمى والسعال الديكى والخناق وغيرها من الأدواء ، فوضع يديه عليهم . واقترب منه العميان متلمسين . وأظهر له المفلوجون ما هم عليه من الشلل التامّ والسقم المميت وانقباض عضلاتهم البشع . وأراه المقعدون أرجلهم المعوجة . وأمسك النساء المصابات بالسرطان نهودهن ، وكشفن عن صدورهن التى افترسها الرَحمُ الخفيّ . وجثمت أمامه النساء المصابات بالاستسقاء ، وكن منتفخات كزِقّ الخمر . فباركهنّ كلهنّ . وتقدم النوبيون المصابون بالبرص القبلي بخطوات متثاقلة ونظروا اليه بعيون مخضلة بالدموع . فرسم علامة الصليب فوقهم . وأحضروا اليه على نعش من بلدة « افروديتو — پوليس » بنتاً صـغيرة نفثت دماً ونامت ثلاثة أيام كاملة فكانت كأنها صورة من الشمع . وظنّ أبواها أنها قضت نحبها فوضعا سعفة على صدرها . فابتهل بافنوس إلى الله فرفعت البنت رأسها وفتحت عينيها ..

وعلى الحيطان المزدانة بنقوش متقنة جلية — علّق الباعة البصل والسمك المشوى والأرانب المذبوحة والأغنام المسلوخة . وفى المساء ، انسلّت الجرذان — ضيوف الخرائب القديمة — هاربة إلى النهر . وأتلعت الكراكى أعناقها وهى تنتقل بحذر وتردد فوق الطنوف العالية التى تصاعد اليها دخان المطابخ وعربدة السكارى وصياح السقاة . وخطّط المسّاحون الشوارع ، وشيّد البناؤن الأديرة والمعابد والكنائس : وما انقضت ستة أشهر ، حتى أُنشئت بلدة بمخفر ومحكمة وسجن ، ومدرسة يعلّم فيها شيخ فقيه أعمى . . .

وكان الحجاج لا عداد لهم . وبينهم كثيرون من المطارنة وكبار رجال الدين ، أقبلوا وهم فى غاية الإعجاب . وأتى بطريرك انطاكية الذى كان وقتئذ فى مصر ، مصحوباً بجميع حاشيته . فاستصوب كثيراً تصرف « صاحب العمود » الخارق العادة . ووافقه على استصوابه رؤساء كنائس ليبية ، فى غياب اثناسيوس . ولما علم بذلك افرايم وسراپيون ، أتيا يعتذران عمّا فرط منهما ، فأجابهما بافنوس :

— اعلما يا أخويّ أن الكفّارة التى أكابدها بالجهد تساوي التجارب التى تعرّضتُ لها ، وقد هالني ما رأيتُ من كثرة عددها وشدة وطأتها . ان الانسان يُرى حسب الظاهر صغير الحجم . ومن قمة العمود حيث وضعني الله ، أرى بني البشر يروحون ويغدون كالنمل . لكننا إذا أنعمنا النظر فى الإنسان من الباطن ، نجده عظيماً جداً ، عظيماً كالدنيا لأنه يسعها . هذه المشاهد المنبسطة أمامى — هذه الأديار والمنازل والسفن والقرى ، وما أراه على بعد من حقول وترع ورمال وجبال — ليست شيئاً بالنسبة

إلى العمود ، ووقفت وراء قُللها الحمراء وفاكهتها، تحت خيمة مخططة باللونين الأزرق والأبيض ، وأخذت تصيح . « يا أيها الظّماء ! هو ذا المـاء ! » . فحذا حذوها خباز وأحضر آجُـرًّا وبنى بجوارها مخبزاً ، مؤملاً أن يبيـع الغرباء الخبز والكعك . ولما كان جمهور الزائرين فى ازدياد مستمر ، وأخذ سكان مدن مصر الكبرى يفدون تباعاً ، شيَّـد رجل آخر فنـــدقاً لنزول السادة وخدمهم وجمالهم وبغالهم . . . وسرعان ما قامت أمام العمود سوق أحضر اليها الصيادون أسماكهم ، والبستانيون بقولهم وثمارهم . وثَمَّ مزيّـن يقص للناس شعرهم فى الهواء الطلق ، ويسلي الجمهور بأقواله الرائقـــة ، ونكاته الشائقة .

وما لبث المعبد العتيق الذي شملته السكينة والسلام دهراً طويلاً ، أن امتلأ بجميع لغات الدنيا ومشاهدها غير المعـــدودة . وحوّل الفندقيون المغاور إلى قاعات تحت الأرض سمروا بدعائمها المتهدمة اعلانات تعلوها صورة القديس بافنوس ، وعليها باليونانية والمصرية هذه الكلمات :

هنا يباع نبيذ التين والرمان وجعة « الدنة » الأصلية

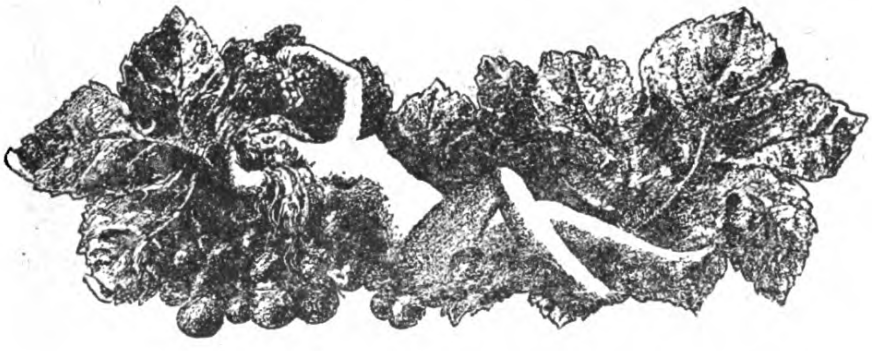

والكسل والغضب والحسد ذريته المحبوبة ، واليكم ما رأيته في الاسكندرية : رأيت الأغنياء مسوقين بنقيصة الترف ، وقد جرفتهم مثل نهر عكر ، إلى دوّامة بحر أجاج . . .

ولما بلغت الرئيسين افرايم وسرابيون حكاية هذه البدعة المستحدثة ، راما رؤيتها بأعينهما . فلما شاهد بافنوس على بعد شراع المركب القادم بهما ، فكر في كون الله تعالى قد جعله مثالاً لجميع الزاهدين . ولما رآه كبيرا الدير لم يخفيا دهشتهما ، فتشاورا ، ثم بدآ يلومانه على قيامه بمثل هذه الكفّارة الخارقة العادة ، وحثّاه على النزول قائلين له :

ــ ان مثل هذا الضرب من الحياة مضاد للعرف ، وهو شاذ ومخالف للقوانين .

فأجابهما بافنوس :

ــ وهل حياة التنسك إلاّ حياة الشذوذ ؟ أليس من الواجب أن تكون أعمال الناسك فذّة مثله ؟ انني بوحي إلهي صعدت إلى هنا ، وبوحي منه تعالى أنزل . . .

وكان النساك يأتون كل يوم فرقاً لينضموا إلى تلاميذ بافنوس وبنوا لأنفسهم مآوي حول المنسك الجوي . وصعد كثيرون منهم ، تشبهاً بالقديس ، فوق أطلال المعبد ، لكنهم ما لبثوا أن نزلوا إذ عنّفهم إخوانهم ، ونهكهم التعب فأقلعوا عن تلك المحاولات . . .

* * *

وجاء الحجاج من كل فج عميق . وقدم بعضهم من بعد سحيق ، فكانوا جياعاً عطاشاً ، فخطر لأرملة فقيرة أن تبيعهم ماءً بارداً وبطيخاً ، فاستندت

لم يكن معه من الطعام شيء ، إذ كان متوكلاً على العنـاية الإلهـية ، متوقعاً أن يمده الفلاحون الكرام بما يقوته . وحدث فى عصر اليوم التالى أن بعض النساء والأولاد أتوه بتمرٍ وماءٍ أصعدهما اليه الصبيان حتى قمة العمود .

ولم تكن قمة العمود من الاتساع بحيث تمكّن الراهب من التمـدد بطوله كله ، فنام متربعاً ورأسه ملقى على صدره . وكانت متاعب النوم لديه أشد من عذابات اليقظة . وعند الفجر ، كانت البواشق تصفعـه بأجنحتها فيستيقظ متألماً مرتاعاً .

واتفق أن النجار الذى صنع السلّم كان رجلاً صالحاً ، فقلق من جرّاء تعرُّض القديس للشمس والمطر ، وأشفق عليـه من خطر السقوط وهو مستغرق فى نومه . فأقام فوق العمود سقفاً ، وركّب حوله سياجاً .

وما لبث صيت هذا المقام العجيب أن ذاع فى البلاد . وأقبل عمال الوادى فى أيام الآحاد مع نسائهم وأولادهم ليشاهدوا «صاحب العمود»(١). ولما سمع تلاميذ بافنوس بمكان عزلته المرتفع ، احتشدوا بقربه ، واستأذنوه فى بناء أكواخ لهم حول العمود . وكانوا فى كل صباح يقفون فى دائرة حول الرئيس يستمعون لتعاليمه ، وهو يقول لهم :

ـ أولادى ! ابقوا كالأطفال الذين أحبهم المسيح . ان إثم الجسـد مصدر كل الخطايا ورأسها . انها تتوالد منه كأنه أب لها . فالكِبْر والشح

---

(١) توجد حكاية تاريخية من هذا النوع . قيل ان أحد المتنسكين الاقدمين عاش فوق قمة عمود حيث قضى نحو ثلاثين عاماً . ولقب بسمعان العمودي . ولله في خلقه شؤون ! — (المترجم)

فلما استيقظ مقتنعاً بأن الحلم أتاه من السماء ، دعا تلاميذه وخاطبهم بهذه الكلمات :

— أولادى المحبوبين ، انى تاركم إلى حيث يرسلنى الله . فأطيعوا فى غيابى فلاڤيان كما تطيعوننى ، واعتنوا بأخينا بولس . بارك الله فيكم . استودعكم الله . . .

ظلوا راكعين وهو يمعن فى سيره ، ولما رفعوا رؤوسهم ، رأوا شبحه الطويل القاتم على أفق الرمال . . .

* * *

سار نهاراً وليلاً حتى وصل إلى خرائب ذلك المعبد الذى بناه الوثنيون قديماً ، وبات فيه بين العقارب والجنّ أثناء رحلته العجيبة . كانت الجدران المغطاة بالرموز السحرية لا تزال قائمة ، ثلاثون عموداً هائلاً عليها رؤوس بشرية ، أو أزهار لوتس لا تزال تسند الحجارة الضخمة . لكن فى أحد أطراف المعبد طرح أحد هذه الأعمدة حمله القديم متخلصاً منه ، وكان له تاج على شكل رأس امرأة باسمة ، بعينين نجلاوين وخدين مستديرين ، وعلى جبينها قرنا بقرة .

فلما رآه بافنوس عرف أنه العمود الذى ظهر له فى حلمه ، وقدّر ارتفاعه باثنين وثلاثين ذراعاً . فذهب إلى البلدة المجاورة ، وأوصى بصنع سلّم بهذا الارتفاع . ولما أسند السلم إلى العمود ، صعد وركع على القمة وخاطب الرب سبحانه :

— هنا إذاً يا إلهى المقام الذى اخترته لى . ليتنى أبقى هنا فى حماك . حتى يحين حينى ، وتوافينى المنون .

الخواطر الخبيثـــة ، فلماذا لا تدوّن يا أخى بافنوس تعاليم أبوينا بولس وأنطوان ؟ بهذه الأعمال الدينية ، تسترد شيئاً فشيئاً سكينة النفس وهدوء الحواس ، وستطيب لك الوحدة مرة أخرى فلا تلبث أن تصير فى حالة فكرية تمكنك من العودة إلى أعمال الزهد التى كنت تؤديها قبلما تعطلها رحلتك . ولقد اعتاد أبونا أنطوان ، لما كان بيننا ، أن يقول : « الإفراط فى الصوم يولد الضعف ، والضعف يسبب الجمود والتراخى . فبعض الرهبان يتلفون أجسادهم بصيام مطوّل بغير تبصر ، فهؤلاء يصح أن يقال فيهم انهم يغمدون خنجراً فى صدورهم ، ويسلمون أنفسهم كالجمادات إلى الشيطان » . كذلك قال القديس أنطوان . نعم ، لست سوى جاهل ، لكنى بنعمة الله قد وعيت قول أبينا . . .

فشكر بافنوس للشيخ بالمون نصيحته ، ووعد بالتفكير فيها . ولما تخطى السياج الذى يحيط بالبستان الصغير ، التفت وراءه فرأى البستانى الصالح يروي خسّه ، بينما كانت حمامة ، تترجّح فوق ظهره المحنى . وعندما استوعب بافنوس هذا المشهد ، كاد يجهش بالبكاء وراود الدمع جفونه ! . .

* * *

عاد إلى صومعته ، فوجد هناك حشداً غريباً كأنه حبات رمل سفاه ريح عاصف . ثم ميّزه ، فاذا هو عشرات الألوف من بنات آوى . . .

وفي تلك الليلة ، رأى فى حلم عموداً حجرياً مرتفعاً يعلوه وجه بشرى ، وسمع صوتاً يقول :

- اصعد هذا العمود !

لا بدَّ أن توهن صحة التفس . ومثلك يا أخى مثل رجل يعرض نفسه ، فى وقت واحد تقريباً ، للقيظ والقرّ ، فيرجّه السعال وتبرّح به الحمى . ولو كنت فى موضعك يا أخى بافنوس ، لكنت بدلاً من الاعتزال فى الحال فى صحراء مرعبة ، آخذ بالتسليات الصالحة لناسك تقىّ وكاهن ورع . كنت أزور الأديرة المجاورة ، وبعضها كما يقال عجيب . فدير السرابيوم يحوى على ما بلغنى اثنتين وثلاثين وأربعمائة وألف صومعة . والرهبان فيه منقسمون إلى شُعُب عديدة بقدر حروف الهجاء اليونانية . ويؤكد الثقاة أيضاً أنه قد لوحظت مشابهات صادقة بين خصال الرهبان وأشكال الحرف التى تدل عليهم . فالذين هم ، على سبيل المثال ، موضوعون تحت حرف (ى) ذوو خصال معوجة ، على حين أن المرتبين تحت حرف (ا) ذوو عقول مخصبة ، ونفوس مستقيمة . ولو كنت مكانك يا أخى لذهبت وتحققت هذا الأمر بنفسى . وكنت لا يقرّ لى قرار حتى أبصر هذا الشىء العجيب . وكنت لا أغفل دراسة سنن الطوائف المختلفة المنتشرة على ضفاف النيل ، لأتمكن من المقايسة بينها . هذه واجبات تصلح لرجل دينى مثلك ، ولقد سمعت دون ريب أن « افرايم » رئيس الدير وضع قوانين روحانية على جانب كبير من الجمال فتستطيع وأنت الكاتب النحرير ، أن تنسخها بإذن منه ، أما أنا فما كنت لأستطيع ذلك لأن يدىَ ، وقد اعتادتا استخدام المعول ، تعوزهما المرونة اللازمة لتسيير قصبة الكاتب الرشيقة فوق صحائف البردى . لكنك يا أخى تعرف قواعد الخط الجميل ، فلتحمد الله على ذلك الفضل العظيم ! ان عمل الناسك والقارىء هو أعظم واقٍ من

قرّ رأيه على أن يغادر صومعته التى نجست ، ويضرب فى فيافى الصحراء يمارس تقشفاً وتزهداً لم يسمع أحد بمثلهما . ويقوم بأعمال فريدة تسير بذكرها الركبان ، ويقدّم كفّارة ما لها من نظير . لكنه رأى أن يذهب إلى الشيخ پالمون لاستشارته قبل تنفيذ خطته .

فوجده فى بستانه يروى خسّه ، وقد مال ميزان النهار ، وجرى النيل الأزرق فى سفح التلال البنفسجية . وكان الشيخ الصالح التقى يمشى الهوينا لكيلا يزعج حمامة حطّت على كتفه . قال :

— الرب معك ، يا أخى بافنوس ! أعجب برحمته سبحانه ! يبعث إلىّ بالحيوانات التى خلقها لأحدثها عن أعماله ، وأجده فى طير السماء ! انظر إلى هذه الحمامة ولاحظ ألوان عنقها المتغيرة ، وقل لى أليست من أعمال الله الجميلة ؟ ثم قل لى أوَ لم تأت يا أخى لتحدثنى عن بعض شؤون الدين ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فسأنزل رشاشتى وألقى بسمعى اليك .

فحكى له بافنوس حكاية رحلته ، وعودته ، ورؤياه فى النهار ، وأحلامه بالليل . ولم يغفل ذكر الحلم الأثيم ، وجماعة بنات آوى ، ثم قال :

— ألا ترى يا أبى أنه يجب علىّ أن أتغلغلَ فى الصحراء ، لأقوم فيها بأعمال خارقة ، وأدهش إبليس بزهدى واستماتتى ؟

فأجابه پالمون :

— لستُ سوى خاطىء مسكين ، وخبرتى بالناس قليلة ، إذ قضيت طول حياتى فى هذا البستان مع الغزلان والأرانب الصغيرة والحمام . لكن يلوح لى يا أخى أن مرضك ناشىء على الخصوص من انتقالك بغتةً بغير حيطة ، من جلبة المعمورة إلى سكينة القفرة . هذه الانتقالات الفجائية

أقل شك فى أن صورة تاييس كانت صورة إثم ودعارة . . .

فثار قلبه تقززاً وفاض اشمئزازاً . وانتزع نفسه من فراشه النجس انتزاعاً ، وخبأ وجهه فى يديه كى لا يرى نور النهار . ومرّت الساعات بغير أن تمحو عاره . وخيّم السكوت على الصومعة . وأخيراً غادره الشبح ، على أن غيابه كان كذلك مزعجاً . وما من شىء على الإطلاق ألهاه عن تذكر الحلم الفاضح . ففكر هالعاً مرتاعاً :

— لماذا لم أدفعها عنى ؟ لماذا لم أنتزع نفسى من ذراعيها الباردتين ، وركبتيها الملتهبتين ؟ . . .

* * *

لم يعد يجرؤ على النطق باسم الجلالة بقرب ذلك الفراش الكريه . وأشفق أن تكون صومعته قد تنجست فيستبيح الشياطين دخولها فى كل آن . ولم تكذبه مخاوفه ، فبنات آوى السبع التى كانت ملازمة بابه ولم تخط قط عتبته ، قد دخلت على التعاقب وكمنت تحت المضجع . وعند صلاة المغرب ، أقبل الثامن وكانت رائحته نتنة وبيئة لا تطاق . وفى اليوم التالى انضم التاسع اليها . وما لبثت أن صارت ثلاثين ثم ستين ثم ثمانين . وكانت كلما تكاثرت تصاغرت . ولما لم تزد على حجم الفأر غطت الأرض والفراش والمقعد ، ووثب أحدها على الرف الصغير عند رأس المضجع ووضع مخلبيه الأماميين فوق جمجمة المومياء : ثم نظر إلى الراهب بعينين ناريتين . . .

وفى كل يوم كانت بنات آوى جديدة تجىء يزحم بعضها بعضاً .

* * *

فلكى يكفّر بافنوس عن رجس حلمه ، ويتخلص من الأفكار المدنسة

ولما التفت ، شعر بتاييس وراءه ، فلم يزدد إلاّ انزعاجاً . وكان شقاؤه بالغاً أشده . ولكن إذ أن نفسه وجسده بقيا نقيين فى وسط هذه التجربة ، لم يقنط من رحمة الله ، وتقرب منه رافعاً هذه الشكوى برفق وخشوع :

— إلهى ! إذا كنت قد ذهبت إلى هذا البعد السحيق ، أتفقدها بين الكافرين ، فقد كان ذلك لأجلك . لا لأجل نفسى . فليس من العدل أن أعذّب لما فعلته فى طاعتك ونفعك . أسبل علىّ ستر حمايتك يا يسوع الحليم ! يا مخلصى خلصنى ! لا تبح للشبح أن يقضى ما عجز الجسد عن فعله . أما وقد انتصرت على الجثمان فلا تدع الخيال يصرعنى . لا أجهل إنى معرّض لمخاطر أعظم جدًّا مما تعرّضتُ له قبلاً ، ولا يخفى علىّ أن الحلم أقوى من الحقيقة . وكيف لا يكون كذلك وهو ذاته حقيقة سامية ؟ هو النفس ، وأفلاطون ذاته مع كونه وثنيًّا ، سلّم بصحة وجود الهواجس . وفى مأدبة الشياطين التى صحبتنى اليها يا رب ، سمعت أحاديث رجال مع كونهم أشراراً ، لم يكونوا خالين من الذكاء ، وقد اتفقت كلمتهم ، على أن ما نبصره فى العزلة والتفكير والذهول هو حقيقى . وكتبك المقدسة يا إلهى ، تثبت فى مواضع عديدة صحة الأحلام وتأثير الخيالات الصادرة ، إما منك يا إلهى جل شأنك ، وإما من عدوك . . .

كان فيه رجل جديد . فناقش الله . ولكنه سبحانه لم يبادر إلى هدايته وإرشاده . كانت لياليه حلماً واحداً طويلاً ، ولم تكن أيامه تختلف عن لياليه.

استيقظ ذات صباح وهو يصعّد زفرات كالتى تصدر فى ضياء القمر عن قبور ضحايا الجرائم . لأن تاييس كانت قد أتته تريه قدميها المخضبتين بالدماء . فلما اغرورقت عيناه بالدموع ، اندست فى فراشه . فلم يبق عنده

أقل شك فى أن صورة تاييس كانت صورة إثم ودعارة . . .

فثار قلبه تقززاً وفاض اشمئزازاً . وانتزع نفسه من فراشه النجس انتزاعاً ، وخبأ وجهه فى يديه كى لا يرى نور النهار . ومرّت الساعات بغير أن تمحو عاره . وخيّم السكوت على الصومعة . وأخيراً غادره الشبح ، على أن غيابه كان كذلك مزعجاً . وما من شىء على الإطلاق ألهاه عن تذكر الحلم الفاضح . ففكر هالعاً مرتاعاً :

— لماذا لم أدفعها عنى ؟ لماذا لم أنتزع نفسى من ذراعيها الباردتين ، وركبتيها الملتهبتين ؟ . . .

* * *

لم يعد يجرؤ على النطق باسم الجلالة بقرب ذلك الفراش الكريه . وأشفق أن تكون صومعته قد تنجست فيستبيح الشياطين دخولها فى كل آن . ولم تكذبه مخاوفه ، فبنات آوى السبع التى كانت ملازمة بابه ولم تخط قط عتبته ، قد دخلت على التعاقب وكمنت تحت المضجع . وعند صلاة المغرب ، أقبل الثامن وكانت رائحته نتنة وبيئة لا تطاق . وفى اليوم التالى انضم التاسع اليها . وما لبثت أن صارت ثلاثين ثم ستين ثم ثمانين . وكانت كلما تكاثرت تصاغرت . ولما لم تزد على حجم الفأر غطت الأرض والفراش والمقعد ، ووثب أحدها على الرف الصغير عند رأس المضجع ووضع مخلبيه الأماميين فوق جمجمة المومياء : ثم نظر إلى الراهب بعينين ناريتين . . .

وفى كل يوم كانت بنات آوى جديدة تجىء يزحم بعضها بعضاً .

* * *

فلكى يكفّر بافنوس عن رجس حلمه ، ويتخلص من الأفكار المدنسة

ولما التفت ، شعر بتاييس وراءه ، فلم يزدد إلاّ انزعاجاً . وكان شقاؤه بالغاً أشده . ولكن إذ أن نفسه وجسده بقيا نقيين فى وسط هذه التجربة ، لم يقنط من رحمة الله ، وتقرب منه رافعاً هذه الشكوى برفق وخشوع :

— إلهى ! إذا كنت قد ذهبت إلى هذا البعد السحيق ، أتفقدها بين الكافرين ، فقد كان ذلك لأجلك . لا لأجل نفسى . فليس من العدل أن أعذّب لما فعلته فى طاعتك ونفعك . أسبل علىّ ستر حمايتك يا يسوع الحليم ! يا مخلصى خلصنى ! لا تبح للشبح أن يقضى ما عجز الجسد عن فعله . أما وقد انتصرت على الجثمان فلا تدع الخيال يصرعنى . لا أجهل إنى معرّض لمخاطر أعظم جدًّا مما تعرّضتُ له قبلاً ، ولا يخفى علىّ أن الحلم أقوى من الحقيقة . وكيف لا يكون كذلك وهو ذاته حقيقة سامية ؟ هو النفس ، وأفلاطون ذاته مع كونه وثنيًّا ، سلّم بصحة وجود الهواجس . وفى مأدبة الشياطين التى صحبتنى اليها يا رب ، سمعت أحاديث رجال مع كونهم أشراراً ، لم يكونوا خالين من الذكاء ، وقد اتفقت كلمتهم ، على أن ما نبصره فى العزلة والتفكير والذهول هو حقيق . وكتبك المقدسة يا إلهى ، تثبت فى مواضع عديدة صحة الأحلام وتأثير الخيالات الصادرة ، إما منك يا إلهى جل شأنك ، وإما من عدوك . . .

كان فيه رجل جديد . فناقش الله . ولكنه سبحانه لم يبادر إلى هدايته وإرشاده . كانت لياليه حلماً واحداً طويلاً ، ولم تكن أيامه تختلف عن لياليه.

استيقظ ذات صباح وهو يصعّد زفرات كالتى تصدر فى ضياء القمر عن قبور ضحايا الجرائم . لأن تاييس كانت قد أتته تريه قدميها المخضبتين بالدماء . فلما اغرورقت عيناه بالدموع ، اندست فى فراشه . فلم يبق عنده

— يا أيها الإلـه العادل ! . . بأية تجاريب تبـــلو عبادك ، إذا كانت أشباح قديسيك خطراً عليها ؟ دعنى أميّز بعلامة واضحة ، ما يأتى منك وما يأتى من الشيطان .

* * *

صحت عزيمة بافنوس بعد ذلك على أن يكفّ عن التفكير فى تاييس إذ تجاذبته الشكوك ولم يُتح له الله ، جلّت مقاصده ، أن يهديه السبيل ، لكن تصميمه ظلّ عقيماً . فإن الغائبة عنه ، كانت حاضرة معه . وكأنها تنظر اليه وهو يقرأ ، ويفكر ، ويصلى ، ويتأمل . . . وكان اقترابها الصورىّ ، يسبقه صوت كخفيف ثوب امرأة فى أثناء مسيرها . وكانت هذه الخيالات ، أدق من الحقائق التى تتزعزع ويعتريها الارتباك ، بينها الأشباح الناشئـــة من العزلة ، تمتاز بأهم ميزاتها من حيث شدة الثبات والرسوخ .

أتته تاييس بأشكال مختلفة ، تارةً مفكرة وقد توج جبينها بآخر تيجانها التى أحرقت ، ومرتدية كما كانت فى مأدبة الاسكندرية ، ثوباً أرجوانياً مرصعاً بأزهار من فضة واستبرق . وطوراً خليعة فى سحابة من نـُقـُبها الشفافة ، مستحمة فى ظلال « كهف العذارى » . وحيناً متألقة فى أطهار الفرح السماوى . وحيناً آخر مفجوعة . تدور عيناها فى مفازع الموت ، وقد أبانت عن صدرها العاري المخضب بدم قلبها الكليم . . .

وكان أشد ما أزعجه من هذه الخيالات ، رجوع الأكاليل والأثواب والنـُقـُب التى أحرقها بيديه ، إذ اتضح له أن لهذه الأشياء روحاً لا تفنى ولا تبيد ، فصاح :

— ها هى أرواح خطايا تاييس التى لا تحصى تأتى إلىّ !

لكنها فى صباح أحد الأيام ، تراءت له فى حلم ، وكان شعرها متوّجاً بزهر البنفسج ، وكانت رائعة فى حلاوتها حتى أنه صرخ من شدة الخوف . . فاستيقظ وقد بَلَّلَه العرق البـــارد . وكانت عيناه لا تزالان مثقلتين بالنعاس ، فشعر بأنفاس رطبة دافئة تمرُّ على وجهـــه ، أنفاس ابن آوى صغير ، وضع مخلبيه عند رأسه ، وأخذ يلهث لهاثه النتن فى وجهه ويضحك من أقصى بلعومه . . .

فشده بافنوس وأخذ منه العجب كل مأخذ ، وشعر كأنما قد انهار تحت قدميه صرحٌ شامخ . . .

أجل ! . . فى الواقع أنه سقط من ذروة إيمانه المتقوّض . . .

قضى بعض الزمن مضطرب الفكر ، ولما ثاب اليه رشـــده ، أفضت تأملاته إلى زيادة قلقه ، فقال فى نفسه :

ــ إما أن تكون هذه الرؤيا من الله مثل سابقاتها ، فهى صالحة ، وفسادى الطبيعى قد أفسدها ، كما يتحوّل النبيذ خَلاً فى الكأس القذرة . وقد أبدلتُ ، لعدم جدارتى ، من النعمة نقمة ، واغتنم ابن آوى الشيطانى فرصتها واستفاد منها . وإما أن لا تكون من عند الله بل من الوسواس الخنّاس الذى يوسوس فى صدور الناس ، فهى شريرة ، وساءت سبيلاً . وفى هذه الحالة أشك فيما إذا كانت الرؤى السابقة من مصـــدر سماوى كما حسبتهـا . فأنا والحالة هذه قاصرٌ حتى عن التمييز الذى لا بد منـه للزاهد ، وأرى الله يبدى فى كلتا الحالتين ، نفوره منى ، وإعراضه عنى ، وهو ما أشعر بتأثيره ، وأعجز عن تعليله . . .

وعلى هذا النمط برهن ، ثم تضرع بكرْب :

بدأ يصلى ، ملصقاً جبهته بالرغام ، فتعزّى ، واستردّ شيئاً من الفرح . وما كادت تمضى عليه الساعة فى التضرع والابتهال ، حتى مرت أمام عينيه صورة تايبس . فردد الشكر لله :

— يا يسوع ! انك أنت الذى بعثت بها إلىّ . فاعترف بفضلك العظيم علىّ . أردت أن تسرّ خاطرى ، وتهدىء ثائرى ، برؤية التى أعطيتك إياها . أراك تمثل أمام ناظرى بسمتها التى زال الخوف من أذاها ، ورقتها البريئة التى لم يعد منها ضيرٌ ولا ضرار ، وجمالها الذى نزعتُ منه شوكته الناخسة! انك لكى ترضينى يا إلهى ، تظهرها لى كما زينتها وزكيتها ابتغاء رضاك ، مثلما يذكّر الصديق صديقه بالهدية التى تلقّاها منه . لذلك أرى هذه المرأة مبتهجاً ، لثقتى بأن طيفهـــا آتٍ من لدنك . انك لا تنسى اننى وهبتها لك يا يسوع ! فاحتفظ بها ، ما دامتْ تسرك ، ولا تدع محاسنهـــا تسبى أحداً سواك . . .

قضى الليل كله ساهراً ، ما اكتحل بنوم ولا أخذته سنة ، ورأى تايبس بجلاء أظهر مما رآها « فى كهف العذارى » ، فزكى نفسه بقوله .

— ان ما فعلته ، قد فعلته لمجد الله . . .

ومع ذلك بلغ منه الدهش مبلغه ، لأن قلبه لم يطمئن ، فتنهد قائلاً :

— لِمَ أنتِ حزينة يا نفسى ، ولماذا أنت تقلقينى !

وبقيت نفسه فى انزعاج . ولبث ثلاثين يوماً على هذه الحال من الكآبة التى تُعَد نذيراً للناسك بمحن هائلة ، وشر مستطير . لم تفارقه صـــورة تايبس ليلاً ولا نهاراً . ولم يبعدها عنه لأنه كان لا يزال يظن أنها أتت من عند الله ، وانها صورة قديسة . . .

الرجل ؟ » . . . ولم يعرف بافنوس . على أنه لم يعر أحد قوله التفاتاً لما عُرف عنه من عدم الذكاء والفطنة ، مع كونه موفور الصلاح .

* * *

خلا كاهن « أنصينا Antinoé » فى صومعته ، فقال فى نفسه :

— أرانى قد استعدت أخيراً مَلاذَ راحتى وهنائى ، وعدت إلى معقل قناعتى واكتفائى . لكن ماذا حدث حتى أن هـــذا السقف العزيز المصنوع من الغاب ، لم يستقبلنى كصديق ، ولا قالت الجدران أهلاً وسهلاً ! . ما تغير منذ رحيلى شىء فى هذا المقام المختار . هذا خوانى ، وهذا فراشى ، وهذا رأس المومياء الذى طالما أوحى إلىّ الأفكار النافعة ، وهذا هو الكتاب الذى كثيراً ما بحثت فيه عن صور الله . . . ومع ذلك لا أجد شيئاً مما تركته . كأنما قد عُرّيت الأشياء من رونقها المعهود ، ويخيـــل إلىّ انى أراها اليوم أول مرة . عندما أنظر إلى هذه

المائدة ، وهذه الأريكة اللتين صنعتهما يداى فى الأيام الخالية . وإلى هذا الرأس الأسود اليابس . وإلى أدراج البردى المملوءة بآيات الله — يلوح لى فيها آثار رجل ميت . وأرانى ، بعد أن تعرفتها كلها ، لا أكاد أعرفهـا ! . وا أسفاه ! . . أنه ما من شىء فى الحقيقة قد تغير حولى ، ولكننى أنا الذى لم أبقَ الشخص الذى كنته . أنا رجل آخر . فالرجل الميت هو أنا ! يا إلهى ! ما الذى صار اليه سلفي ؟ ما الذى أخذه منى ؟ وما الذى تركه لى ؟ ومن أكون أنا ؟ ؟

وقد انزعج بخاصة لما وجد أن صومعتـــه صغيرة . مع أنه كان يجب — إذا نظر اليها بعين الإيمان — أن يراها كبيرة ولا يرى نهايتها . لأن سعة الله غير المحدودة تبتدىء منها . . .

الفربيون [1]

قفل بافنوس راجعاً إلى الصحراء المقدسة ، واستقلّ بقرب « تل إتريب Athribis » مركباً صاعداً فى النيل يحمل المؤن لدير السرابيوم . ولما خرج من السفينة تقدم تلاميذه لملاقاته بمظاهرات الفرح العظيمة . لأنهم عرفوا ما تمّ بمدينة الاسكندرية على يديه . وكان الكهنة يتلقون عادة ، بوسائل سريعة مجهولة ، الأخبار المتعلقة بأمن الكنيسة ومجدها . وكانت الأنباء تُذاع فى الصحراء بسرعة ريح السموم .

وبينما كان بافنوس يذرع الرمال ، تبعه تلاميذه مسبحين بحمد الله ، واعترى « فلاڤيان » أكبر أخوته ، هذيان دينى فجائى ، فأخذ يترنم بأنشودة ملهمة . . .

ولما وصلوا إلى صومعة المرئيس ، ركعوا جميعاً وقالوا :

— يا ليت أبانا يبارکنا ويعطى كلاً منا مقداراً من الزيت لنحتفل بعودته!

أما بولس الساذج ، فقد لبث وحده واقفاً يتساءل : « من هو هذا

---

(١) (الفربيون L'Euphorbe)اسم مشتق من « أوقربيوس » اسم طبيب أحد ملوك العرب . ويُطلق على نبات سام تسيل منه عصارة لبنية راتينجيّة من ضمن المسهلات الشديدة — (المترجم)

— ما أجمل التى تسير على الصراط المستقيم ! . . . ما أبدع قدميها وما أيهى محيّاها ! . . .

ثم نهض ؛ وأرخى برنسه على عينيه ، وسار الهوينا مبتعداً . . .

فنادت ألبين إحدى العذارى ، قائلة :

— احملى يا ابنتى إلى تايبس كل هى فى حاجة اليـــه ، من خبزٍ ، وماءٍ وناى ذى ثلاثة ثقوب . . .

اللون ، تسير من خصّ إلى آخر متكئة على عكازة من خشب متين . فاقترب منها بافنوس باحترام ، ولثم طرف خمارها ، وقال :

— عليك سلام الله يا ألبين الموقرة ! لقد أتيت إلى القفير الذى أنت مالكته ، بنحلة وجدتها ضالة فى طريق مجدب لا زهر فيه ، فأخذتها فى راحتى ، وأدفأتها بأنفاسى ، إنى أعطيك إيّاها . . .

وأشار بأصبعه إلى الممثلة التى كانت راكعة أمام بنت القياصرة .

فألفت ألبين على تايبس نظرة ثاقبة ، وأمرتها بالنهوض ، وقبلت جبينها ، ثم تحولت نحو الراهب قائلة :

— سنضعها بين « المريمات » .

فأخبرها بافنوس عندئذ بالوسائل التى أحضرت تايبس بها إلى « بيت الخلاص » . وسألها أن تُعزل ، بداءة بدء ، فى صومعـــة . فقبلت رئيسة الدير ، وقادت التائبة إلى خصّ خلا بموت العـذراء « ليتا » ، ولم يكن فى هذه الصومعة الضيقة سوى فراش ومائدة وابريق . ولما وضعت تايبس قدمها على العتبة امتلأت بهجة لا حدّ لها .

فقال بافنوس :

— أريد أن أقفل الباب بنفسى ، وأن أضع عليه ختماً يأتى المسيح ويكسره بيديه .

وذهب إلى حافة النبع ، وأخذ قبضة من الصلصال ، ومزجه بشىء من ريقه ، ووضع فيه شعرة من شَعره ، وسد به شق البـاب . ثم اقترب من النافذة ، حيث كانت تايبس واقفة ، وادعة ، راضية ، وسقط على ركبتيه ، وحمد الله ثلاثاً ، وصاح :

المساء

(وعانق الليل النهار ، ونشر عليه جناحيه . فكان المساء)

— انظرى ! انه المساء يا أختاه ! هوذا ظلال الليـــل الزرقاء تغطى التلال . . . لكنك لن تلبثى أن ترى « خبايا الحيـاة » مشرقة فى الفجر ، وتشاهدى إشراق ورد الصباح السرمدى !

وسارا سواد الليل ، وأنشدا المزامير والتسابيح ، حينما كان نور الهلال يقبِّـل وجنات الأمواج الفضية . وعندما أشرقت الشمس ، امتدت أمامهما الصحراء الليبية كجلد أسد واسع الأطراف . وفى آخر الرمال لاحت لأعينهما ، فى ضوء الفجر ، خصاص بيض بقرب بعض النخيل . فسألت تاييس :

— هل هذه هى خبايا الحياة ، يا أبت ؟

— لقد حذرت يا ابنتى واختى . هذا هو الملجأ الذى سأضعك فيه بيدى .

وما لبثا أن شاهدا نساء يَجُلْنَ من كل صوب حول مساكن التنسك ، كالنحل حول القفير . وكان بعضهن يخبزن ، والبعض يجهزن البقول ، والبعض يغزلن الصوف ، وعليهن نور السماء ينسكب كابتسامـــة من ثغر الله . . . وأخريات كُنّ جالسات فى ظل أشجار الإثل ، ومنصرفات للتأمل والتفكر ، وأيديهن البيض بجوانبهن ، لأنهن إذ شغفن حباً ، اخترن نصيب المجدلية ، فانقطعن للصلاة والتأمل . لذلك سمين « المريمات » . وكن يرتدين ثياباً بيضاء . أما اللواتى كن يشتغلن بأيديهن فقد أُطلق عليهن اسم « المرتيات » ، وكن يلبسن ملابس زرقاء . وكن جميعهن مقنّعات ، لكن اللواتى كن فى نضارة الشباب أرسلن خصل الشعر تتدلى فوق الجبين ، ولعل ذلك كان ، كما يغلب على الظن ، عفواً بغير قصد ، لأن نظام الدير يحظره . . .

وكانت هناك عجوز بلغت من الكبر عتيًّا ، طويلة القامة ، بيضاء

لا يثأر المسيح لنفسه ، وإذا به يرى قطرةً من الدم سالت من قدم تاييس فوق الرمال . هنا أحسّ بطراءة أنفاس مجهولة تدخل قلبه المفتوح . . . فتعالت التنهدات الوفيرة إلى شفتيه . فبكى ، ثم جرى وخرّ أمامها ، ودعاها أخته ، وقبّل قدميها الداميتين ، وتمتم مائة مرة :

— أُختاه ! أُختاه ! أُماه ! يا أقدس قديسة !

ثم قدّم هذا الدعاء :

— يا ملائكة السماء ! خذوا قطرة الدم هذه باعتناء ، وضعوها أمام عرش الله . . . ليت الرمل الذى بلله دم تاييس ينبت شقائق نعمان ليسترد الذين يرون هذا الزهر نقاوة القلب وطهارة الشعور ! أى تاييس ، أيتها القديسة البالغة غاية القداسة !

وإذا كان يصلى ويتنبأ ، مرّ به غلام على أتان . فأمره بافنوس أن ينرجّل ، ثم أركب تاييس الأتان وأمسك باللجام . واستأنف مسيره . .

* * *

أمسيا عند قناة مظللة بأشجاو أنيقة ، فربط الأتان بجزع نخلة ، وافترشا الأحجار ، وتقاسما رغيفاً أكلاه متبلاً بالملح والثغام ، وشربا براحتيهما ماءً سائغاً ، وتحدثا فى الأبديات .

قالت تاييس :

— ما شربت قط مثل هذا الماء النمير ، ولا استنشقت مثل هذا الهواء العليل ، وانى لأحس أن الله سبحانه وتعالى يسبح فى النسمات التى تهب . . .

فأجابها بافنوس :

غادر بافنوس وتاييس المدينـــة من باب القمر . وسارا على شاطىء البحر ، فقال الراهب :

ــ أيتها المرأة ! هذا البحر الأزرق الكبير لا يستطيع كله غسل نجاستك . . .

ثم خاطبها بغضب واحتقار ؟

ــ يا أنجس من كلبة ، وأشد رجساً من خنزيرة ، لقد أبحت للفحشاء مع الوثنيين والكافرين جسداً خلقه الصمد ليكون محراباً . . . وإن أدناسك لعـــديدة حتى انك الآن ، وأنت تعرفين الحق ، لا تستطيعين أن تضمى شفتيك ، وتجمعى يديك ، بغير ما يتولد فى قلبك تقزز من نفسك . . .

تبعته ، خافضة له جناح الذل والطاعة ، فى المسالك الوعرة ، تحت أشعة الشمس المحرقة ، فأضعف التعب ساقيها ، وأحرق الظمأ أنفاسها ، وألهب حلقها . أمَّا بافنوس ، فبدلاً من أن يشعر بتلك الشفقة الكاذبة التى تلين القلوب الدنسة ، فقد فرح بالآلام التكفيرية التى تنال هذا الجسد الآثم .. ولشدَّة تأثير الحمية القدسية فيه ، ودَّ لو مزَّق ضرباً بالعصى . هذا الجسم الذى احتفظ بجماله ، كبرهان ساطع على فجوره . ولما ذكر أن تاييس ضاجعت نسياس ، واستحضر فى مخيلته تلك الصورة البشعة ، جرى دمه كله مرتداً إلى قلبه وكاد صدره ينشق . وغصَّ حنجرته باللعنات ، فخرق الارم ، ووثب منتصباً إزاءها ، شاحباً ، رهيباً ، وقد ملأته قوةُ الله ، ونظر اليها حتى اخترقت نظراته أعماق نفسها ، ثم بصق فى وجهها . . .

فمسحت محيَّاها بهدوء وانكسار ، دون أن تقف فى سيرها . فتبعها محملقاً فيها كأنما هى هاوية . ومشى مغتاظاً مفكراً فى أن يثأر للمسيح حتى

وحبك !.. الوداع يا تاييس ! عبثاً تنسينني وأنا على ذكرك جدّ حريص !

* * *

تركهما وسار مفكراً فى الطرق المتعرجة بجوار مقبرة الاسكندرية الكبرى التى يسكنها صناع أوانى الدفن الفخارية . وكانت حوانيتهم ملأى بتلك الدمى المزوّقة المصنوعة من الصلصال تمثل آلهة وآلهات ، وتماثيل صامتة ، ونسوة وجنيّات صغيرات مجنّحة جرت العادة بدفنها مع الموتى . فخطر لنسياس أن بعض الصور التى يراها قد تصحبه فى نومه الأبدى . وخيّل اليه أن « أيروساً » صغيراً ، مشمّر الثوب ، يضحك ساخراً . فلما استحضر صورة جنازته التى صورها خياله قبل أوانها تألم ، فحاول تبديد حزنه بالفلسفة ، وأقام هذا الدليل :

— حقاً ان الزمان وهْم لا حقيقة له ، فما هو إلاّ ضلالة من تصوُّرنا . وإذا لم يكن له وجود ، فكيف يستطيع أن يجلب الموت إلىّ ؟ فهل معنى هذا إنى أحيا إلى الأبد ؟ كلا — ولكننى أستنتج من هذا أن موتى كائن ، وقد كان دائماً ، كما أنه سيكون أبداً . لم أشعر به بعد ، ولكنه موجود ، وينبغى ألاّ أخشاه . ومن الحمق أن أخاف مجيء ما قد أتى . إنه موجود ، فكأنه آخر صفحة من كتاب أقرأهُ ، ولم أتمم قراءته .

شغله هذا التعليل فى مسيره ، دون أن يبهجه ، وكان مكتئب النفس عندما وصل إلى عتبة داره ، وسمع ضحك جاريتيه كروبيل ومرتال الرنّان . وكانتا تلهوان فى انتظاره بلعب الكرة . . .

* * *

ضروب المعيشة الراضية ، فانك يا عزيزتى تاييس قد ذقت فى حياتك هذه المسرات المختلفة التى قلما يتاح لشخص واحد أن يتمتع بها . وحقاً كم أتمنى أن أكون ساعة واحدة قديساً أو ولياً كعزيزنا بافنوس ، غير أن هذا محظور علىّ . فالوداع إذاً يا تاييس ! إذهبى إلى حيث تقودك قوى طبيعتك ونصيبك وقسمتك الخفية ! اذهبى مصحوبة أينما تذهبين بخير تمنيات نسياس؟ لست أجهل انها فارغة ، ولكن هل فى استطاعتى أن أمنحك خيراً من تحسرات عقيمة وتمنيات باطلة جزاء التصورات السارّة الممتعة التى ظللتنى فى حضنك فيما مضى ، والتى بقى لى منها خيالها ؟ الوداع أيتها المحسنة إلىّ الوداع أيتها النعمة التى تجهل أنها نعمـــة ! أيتها الفضيلة الغـامضة ! يا لذة الرجال ! وداعاً يا أحق صورة بالعبادة بين الصور الجميلة التى تنثرها الطبيعة دواماً ، لغاية مجهولة ، على وجه أرضنا الغرور !

وفى اثناء كلامه ، كان قلب بافنوس يغلى من الحنق ، فتفجر بهذه الشتائم:

ـــ بعداً لك أيها اللعين : انى أحتقرك وأمقتك ! ابتعد يا وليـد جهنم الذى هو شرّ الف مرّة من أولئك الأشقياء الضالين الذين كانوا الآن يرمونى بالحجارة وهم يسبون ! انهم فعلوا ذلك عن جهـل ، وغفران الله الذى رجونه لهم قد يهبط يوماً على أفئدتهم . . . أما أنت يا نسياس المرذول فلست سوى حُمَة غادرة وسم زعاف . أنفاس فمك تنفث اليأس والموت. بسمةٌ واحدة من بسماتك تحوى تجديفات أكثر مما تقذفه شفتا ابليس الملوثتان فى قرن من الزمان . . . تبّـا لك أيها الكنود . إلى الوراء ! . . .

فنظر اليه نسياس بانعطاف ، وقال :

ـــ الوداع يا أخى ، ليتك تصون إلى نهاية أجلك كنوز إيمانك ومقتك

فأجاب نسياس مبتسماً :

— وأنا أيتها النفس الحبيبـــة أعرف الحقائق ! هو لا يعرف سوى واحدة ، وأنا قد أحطت علماً بها جميعاً . فأنا أغنى منـــه . ولكننى والحق يقال ، لا أفوقه فى كبرياء النفس ، أو سعادة الجد !

ولما رأي الراهب يرشقه بنظرات نارية ، قال :

— لا تحســبن يا عزيزى بافنوس أنى أعدّك بالغاً غاية السخرية ، أو نهاية الشطط . فلو قابلتُ حياتى بحياتك لما استطعت أن أقول أيهما أجدى وأنفع . ها أنا الآن ذاهب لأغتسل فى الحمام الذى أعدته لى كروبيل ومرتال ، وسآكل جناح درّاج ، وسأعيد — للمرة المئة — تلاوة بعض القصص « الميليزية » أو بعض مباحث « مترودور » ، وأنت ستعود إلى صومعتك حيث تركع بجمل وديع ، مجتراً التسابيح والتعاويذ التى لاكها فمك مراراً وتكراراً ، فاذا جاء المســاء ، تناولت الفجل بلا زيت . لكن لا بأس ! ففى قيامنا ، يا صاحبى العزيز ، بهذه الأعمال المختلفة فى الظاهر كل الاختلاف — نخضع كلانا لعاطفة واحدة هى العامل الوحيد فى جميع فعال البشر ، كلانا يبحث عن لذاته ويسعى فى نيل القصد المشترك — السعـادة ، السعادة المستحيـــلة ! وهبنى أرى نفسى مصيباً ، فلا يليق بى أن أتعرض لتخطئتك يا حبيبى !

أما أنت يا تاييسى ، فاذهبى وافرحى وكونى أسعد حظاً — إذا كان ذلك فى الإمكان — فى زهد التعفف وطهارة الخشونة ، مما كنت فى الغنى والمسرات . فمن كل وجهٍ أراك جديرة بالحسد لأننا إذا كنا أنا وبافنوس فى حياتنا بكاملها ، قد قنعنـــا — امتثالاً لطبيعتنا — بضرب واحد من

شيرون غضبه ، وشجع أصحابُه المتناضلين الراكعين ، واختاروا منهم سبّاقين وتراهنوا عليهم . وكانوا يزيدون الشحناء بتحريضهم أولئك البائسين كأنهم كلاب متقاتلة . وفاز مقعد ، مقطوع الساقين ، بالاستيلاء على درهم فعلا له الهتاف إلى عنان السماء . وبدأ الشبان أيضاً يرمون قطع النقود . ولم يبق ثمة شيء يرى فى الميدان سوى ظهور بشرية لا نهاية لها تعلو وتنخفض، كأمواج البحر الزاخر ، تحت وابل مدرار من المعدن الرنان . . .

وغدا بافنوس نسياً منسياً .

فجرى اليه نسياس ، وغطاه بمعطفه ، وجرّه مع تايبس فى الأزقة ، إلى حيث باتوا بمأمن من المطاردة ، ركضوا حيناً صامتين ، إلى أن رأوا أنهم صاروا فى أمان ، فتريثوا ، وقال نسياس بنغمة التهكم الممزوجة بشيء من الحزن :

— إذاً قضى الأمر ! واغتصب « فلوطون » « پروزرپين »[1] وتريد تايبس أن تتبع صديقى الوحشى المنظر أينما يذهب بها !

فأجابت تايبس :

— حقاً يا نسياس ، لقد سئمت عشرة أمثالك البسّامين ، المتعطرين الكيسين ، الأنانيين . ومللت كل ما أعرف ، لذلك أنا ذاهبة للبحث عن المجهول . ولقد علمت بالاختبار ان الفرح لم يكن فرحاً حقيقياً ، وهذا رجل يرشدنى إلى أن الحزن هو الفرح الحقيقى . وانى أومن بما يقول ، لأنه يعرف الحقيقة .

---

(١) فى الميترولوجيا ان Pluton هو ملك الجحيم وإله الموتى ، وان زحل Saturne إله الزمان وسبيل Cybèle ربة الارض ، واخوا جوبيتير Jupiter ونبتون Neptune وزوج پروزربين Proserpine ربة الجحيم التى اختطفها — (المترجم)

فكرَّر قوله :

قلتُ لكم قفوا ! ابقوا على رفيق فى المدرسة ! احترموا رأس بافنوس العزيز !

لكنه كان متعوداً مباحثات الحكماء العويصة ، يعوزه ذلك الحزم والتأثير الذى يسيطر على نفوس الجماهير ويتملك مشاعرهم ، فأعاروه أذناً صماء . وسقط وابل من الحصى والمحار على الراهب الذى غطى تاييس بجسمه، حامداً الله الذى أعاضته رأفته من جراحه تربيتاً . . .

فلما يئس نسياس من حملهم على الاستماع له ، والإنقياد اليه ، وأيقن عجزه عن إنقاذ صديقه سواء بالقوة أو بالحجة ، وسلم أمره للآلهة — وكانت ثقته بهم ضعيفة — خطر له أن يجرب حيلة أرشده اليها فجأة احتقاره للبشر. فأخرج من منطقته كيس نقوده ، وكان ممتلئاً بالذهب والفضة ، لأن صاحبه من عشاق المسرات والمبرّات . ثم حاول أن يغرى الذين كانوا يرمون الحجارة برنين النقود ، فلم يعيروه بداءة بدء التفاتاً ، إذ كان حنقهم عظيماً ، لكن أنظارهم ما عتمت أن اتجهت شيئاً فشيئاً إلى الذهب الرنان . ثم كفت أذرعهم الواهنة عن إيذاء فريستهم .

ولما رأى نسياس أنه جذب أبصارهم ، واجتذب نفوسهم ، فتح همیانه وبدأ يرمي فى وسط الحشد قطع الذهب والفضة . فانحنى المتناهون فى الشراهة لالتقاطها ، فابتهج الفيلسوف بنجاحه المبدئى ، وجعل يرمى هنا وهناك الدراهم والدنانير . وعلا رنين القطع المعدنية فوق الرصيف ، فخرَّ الراجمون إلى الأرض متزاحمين ، وتسابق السائلون والعبيد والتجار . والتفَّ الأشراف حول شيرون ينظرون إلى المشهد ويقهقهون ، فنسي

أن ينفد . توبوا واعترفوا بذنوبكم ، وابكوا وصلوا واقتفوا أثر تايس . إكرهوا خطاياكم التى لا تقلّ عن خطاياها . ليت شعرى من منكم غنيًّا كان أم فقيراً . تاجراً أم جندياً ، عبداً رقيقاً أم عيناً وجيهاً — يجرؤ على أن يقول بين يدى الله أنه كان خيراً من بغى فاجرة ! ما أنتم إلا أدران متجسمة ، وانها لآية من لطف الله بكم أن لا تتحولوا فجأة إلى مجارٍ طافحة بالوحول !

وكان ينبعث من حدقتيه وهو يتكلم ، شررٌ مستعر . وكأنما تساقط من شفتيه جمر متوهج ، فأصغى اليه الذين من حوله صاغرين .

لكن « تادّيه » الهرم لم يكف عن المقاومة ، بل كان يجمع الحجارة وأصداف المحار ويخفيها فى طيات ثوبه ، ولم يجرؤ على أن يرميها بنفسه ، فدسها فى أيدى السائلين . وما لبث الراهب أن انهالت عليه الحجارة ، وأصابت جبينه صدفة محارة أحكم تسديدها ، وسال الدم الذى انحدر من وجه الشهيد الكئيب على رأس التائبة كتعميد جديد . وشعرت تايس ، وقد ضغطها عناق الراهب وخدش ثوبه الخشن جلدها الغضّ ، بالرعب والجزع يسريان فيها .

وإذ ذاك أقبل رجل أنيق اللباس ، متوج الجبين بالكرفس ، وسق لنفسه طريقاً وسط الجمهور المائج ، وصاح :

— قفوا ! كفّوا ! ان هذا الراهب أخى !

وكان الرجل نسياس . وقد مرّ بالرحبة عائداً إلى داره بعد أن أغمض عينى الفيلسوف يوكريت . ورأى بغير كبير دهشة (لأنه لم يدهشه شىء قط) المحرقة المدخّنة ، وتايس مرتدية خرقة خشنة ، وبافنوس يُرجم ..

— سحقاً لك يا أيها النسناس ! دعنى وحبيبتى أخاطبها ، وإلا جررتك بلحيتك إلى النار حيث أشوي هيكلك القبيح شيًّا كالسجق ! . .

ومدّ يده نحو تاييس ، لكن الراهب دفعه بعيداً ، بقوة غير منظورة ، فترنح الفتى وسقط على بعـــد أربع خطوات من موضع المحرقة ، وسط الشعل المنهالة .

وكان الشيخ تادّيه يذهب أثناء ذلك من رجل إلى آخر ، شـادًّا آذان العبيد ، مقبلاً أيدى السـادة ، يحرضهم جميعاً على بافنوس ويغريهم به . وما ليث أن ألّف عصبة صغيرة سارت رأساً إلى الراهب الخاطف .

ونهض شيرون بوجه أسود ، وشعر شائط . وقد كاد يختنق من الدخان ، واندفع متميزاً من الغيظ مجدّفاً بالآلهة . وألقى بنفسه فى وسط المهـاجمين الذين كان السائلون يزحفون من خلفهم ، ملوحين بعكاكيزهم . فحصر بافنوس ، فى الحال ، وسط دائرة من قبضات أيدٍ ممدودة ، وعصى مرفوعة ، وصيحات مروعة .

— اشنقوا الراهب ! اشنقوه ! . . .

— كلا ! اقذفوا به فى النيران ! إشووه حيًّا !

فأمسك بقنيصته الجميلة ، وضمها إلى صـــدره ضمّة طويلة ، وصاح بصوت كالرعد القاصف .

— أيها الفجار ! لا تحاولوا أن تختطفوا الحمـامة من نسر الرب ! أولى بكم ثم أولى أن تقتدوا بهذه المرأة وتتأسوا ، وأن تبدلوا مثلها بتربكم تبراً ! احتـــذوا مثالها ، وانبذوا المال الزائل الذى تظنون أنكم تملكونه ، وهو الذى يملككم ويستعبدكم . عجلوا ! فقريباً ما توعدون وأوشك الصبر الإلهى

رقص تاييس

(في رواية « الكترا » لسوفاكليس)

يصم الآذان ، وزاحموا القريبين منهم ليزيدوا اختلال النظام ، ويغنموا الفرصة لنشل ما خف حمله وغلا ثمنه !

أما الشيخ « تاديه » ، بائع الصوف والكتان ، الذى كانت تايس مدينة له بمبلغ كبير من المال ، فقد لبث وحده ساكناً فى وسط الضجيج . أصاخ بأذنه ، ودار بنظره ، وداعب لحيته لحيـــة التيس ، ولاحت عليه سيمياء التفكير . وأخيراً ، اقترب من الشاب « شيرون » ، وشده من كمه ، وقال بصوت خافت :

— أنت ، يا أيها المولى الجميل ، ذا حظوة عند تايس ، تدخّل ولا تدع هذا الراهب يذهب بها !

فصاح شيرون :

— قسماً ببولكس وكاستر ، لن أدعه يفعل ذلك ! سأخاطب تايس وأحسبها ، ولا فخر ، ستصيخ إلىّ أكثر ممّا إلى هذا الملوّث بالرغام ! — افسحوا الطريق ! طريقاً يا رعاع !

وبعد أن أمعن فى الرجال ضرباً بجمع يده ، صارعاً العجائز ، وواطئاً بقدميه الأطفال ، وصل إلى تايس ، وأخذها جانباً قائلاً لها :

— يا بنيتى الحسناء ! انظرى إلىّ واذكرى نفسك ، واخبرينى أصحيح انك زهدتِ فى الحب ؟

لكن بافنوس حال بينهما صائحاً :

— أيها الفاجر ! إخش روعة الموت ان أنت لمستها ! انها مقدسة ! انها مِلك لله !

فأجابه الفتى ساخطاً :

وجميعهم ذمّوا تصرّف تاييس وعابوه :

ــ إنه فرار مخزٍ !

ــ إنه رحيل بجبانة !

ــ إنها آخذة الخبز من أفواهنا !

ــ إنها ذاهبة بصداق بناتنا !

ــ عليها ، على الأقل ، أن تدفع ثمن التيجان التى بعتها ايّاها !

ــ وثمن الستين حلّة التى أوصتنى بصنعها !

ــ إنها مدينة لكل إنسان !

ــ من التى تمثل بعدها أدوار « افيجينيا » و « الكترا » و« پوليكسنا »؟ ان « پوليب » الجميلة لن تبلغ شأوها !

ــ ستكتئب الحياة إذ أُغلق باب تاييس

ــ كانت الكوكب المتألق الساطع ، كانت فى سماء الاسكندرية ، البدر المنير الطالع !

* * *

وفى تلك الفترة من الزمن ، اجتمع فى الساحة أشهر السوّاله والمستعطين ، من العميان والمقعدين والمشلولين ، وزحفوا فى ظل الأغنياء متأوهين :

ــ كيف نعيش لما لا تكون تاييس هنا لتطعمنا ؟ ان فتات مائدتها كان يُشبع كل يوم مائتين من المساكين . واعتاد عشاقها عندما يغادرونها وقد طابت نفوسهم ، أن يرمونا بملء أيديهم فضّة . . .

واندس أيضاً وسط الزحام بعض اللصوص وأخذوا يصرخون صراخاً

يتقدمهم عبيدهم ، فوقفوا ورءوسهم متوجة بالزهر ، وأرديتهم محلولة العرى ، وصاحوا صياحاً عالياً .

وأخذ هذا الجمهور الفضولى يزداد بغير انقطاع . وعُرف أن تاييس أغراها كاهن أنصينا بحرق متاعها قبلما تعتزل فى أحد الأديرة .

ففكّر التجار فى أمرهم ، قائلين لأنفسهم :

— تاييس تاركة المدينة تنعى من بناها ، فلن نبيعها بعد شيئاً ، فما أفظع التأمُّل فى هذا ! يا ويلنا ، ماذا يكون مصيرنا إذا زايلتنا ؟ ان هذا الراهب أفقدها رشدها . إنه يمحقنا ، لماذا تُرك حبله على غاربه ليأتى بمثل هذا ؟ وما نفع الشرائع والقوانين ؟ أفلم يبق فى الاسكندرية قضاة ؟ ان تاييس لا تفكر فينا أو فى زوجاتنا وأطفالنا المساكين . ان مسلكها فضيحة عامة . ينبغى أن تكره على البقاء فى المدينة إكراهاً . . .

* * *

وفكّر الشبان من جهتهم :

— إذا كانت تاييس تكفّ عن التمثيل وتطلّق الحب ، فان أعزّ الملاهى ينفضّ ويقفر . انها كانت بهجة المسرح ، ومجده الطارف ، وعزّه التليد . انها كانت متعة ومسرة حتى للذين لم يحظوا بها . فيها أحب المرء من أحبّ من النساء . وما من قبلة واحدة ، تبودلت مع امرأة ، لم يكن لتاييس فيها أثر . . . لأنها كانت لذة اللذات ، ومجرد الشعور بأنها تتنفس بيننا ، يهيج فينا اللذة ! . . .

كذلك فكّر الشبان ، ومنهم فتى يدعى « شيرون » كان قد حظى بها يوماً ، فأخذ يصرخ ناعياً هذا السلب والنهب ، سابًّا المسيح المغتصِب .

تُرى .. أوَ لم يكفِ يا أبى ما هلك فى هذه المحرقة ؟ .. ابق على هذا « الأيروس » ، وضعه فى معبد ، فيتوجه الذين يرونه إلى الله بقلوبهم ، لأن « الحُبّ » طبعاً يعرف كيف يسمو بتلك القلوب إلى الأفكار العلوية ...

وكان البستانى ، وقد جرى فى ظنـــه أن الأيروس نجا ، يبسم له كأنه الطفل الرضيع ، فاختطفه بافنوس من الذراعين اللتين تحملانه ورمى به إلى اللهب صارخاً :

— يكفى أن يكون نسياس قد لمسه ، ليفيض بكل أنواع السموم !

ثم أمسك بملء راحتيه الثياب المتألقة ، والأردية الأرجوانية ، والنعال الذهبية ، والأمشاط ، ومحكات الجلد ، والمرايا ، والمصابيح ، والطنابير ، والقيثارات ، ورمى بها فى الأتون الذى كان أبهى من محرقة « سردانا پال » فى حين سكر العبيد بنشوة التدمير ، فرقصوا وهللوا تهليلاً وحشياً تحت وابل من الشرر والرماد

* * *

استيقظ الجيران على هذه الجلبة واحداً بعد واحد ، ففتحوا نوافذهم ، وفركوا عيونهم ليتبينوا مصدر الدخان ، وخرجوا مرتدين بعض الثياب ، واقتربوا من مكان المحرقة متساءلين :

— ما الخبر ؟

وكان بينهم التجار الذين اعتادت تايس أن تشترى منهم العطور والملابس ، فانزعجوا واتلعوا أعناقهم محاولين إدراك كنه الأمر .

ومرّ بالمكان بعض الشبان الفاسقين الذين كانوا منصرفين من وليمة ،

أشبههم بالقردة الكبيرة خاطفة النساء ! ولما سقطت هذه الدمى الجميلة المتجردة، من أذرع حامليها وتكسرت فوق الأحجار، سُمع لها صدى زفير وتنهد . . .

* * *

وحينئذ ظهرت تاييس، وشعرها مرسل على كتفيها، حافية، ترتدى قميصاً خشناً لا هندام له، ولعله صار بلمسه بدنها مشرباً بنعمة الله . . .

وجاء وراءها بستانى يحمل تمثال « إيروس »[1] صغير الحجم، مصنوعاً من العاج، مخبوءاً فى لحيته المتدلية . فأشارت تاييس إلى الرجل بالوقوف، واقتربت من بافنوس وأرته التمثال الصغير، وسألته :

— أمحتم يا أبى القاء هذا أيضاً فى النار ؟ انه من الآثار القديمة العجيبة، وهو يساوى مائة مرة وزنه ذهباً، ولن يعوض فقده، لأنه لن يوجد فى العالم فنان قادر على صنع مثله . ولا تنس يا أبتِ ان هذا الطفل الصغير هو رمز « الحُبّ » . ومن الواجب أن لا يعامل بقسوة . صدقنى يا أبتِ ان الحب فضيلة، وإذا كنت أنا قد أذنبتُ، فليس منه، وإنما إليه . لن أندم أبداً على ما جعلنى الحب أعمله، وإنى لآسفة جد الأسف على ما اقترفته رغم منه . أما تراه وهو يأبى على النساء أن يهبن أنفسهن للذين لا يتقدمون باسمه ؟ انه خليقٌ بكل إجلال وإكبار . انظر يا بافنوس إلى هذا « الأيروس » الصغير ما أبدعه ! لقد لجأ برقّة وخَفَر إلى لحية البستانى مختبئاً . أهداه إلىّ نسياس يوماً، وهو يحبنى، قائلاً : « سوف يحدثك عنى » لكن إله الحب الماكر حدثنى عن شاب كنت قد عرفته فى انطاكية، ولم يذكر لى نسياس

---

(١) Eros هو اسم يوناني لاله الحب عند الاغريق

الجريمة إلى كنز العدالة . لكن هـذا الخاطر لم يأتِ من عند الله ، لذلك نبذْته نبذ النواة . فلا شك أن اعطاء أسلاب الترف والرفاهية إلى أحبّـاء المسيح يكون إساءة بالغة .

أى تاييس !

يجب أن يذهب كل ما لمسته يداك طعمة للنيران حتى يصير هشيماً تذروه الرياح . حمداً لك يا سماء ، فان هذه الشفوف وهذه النـُقـُب التى تلقت من القـُبـَل ما لا عدد له ، كأمواج البحر الزاخر ، لن تحس الآن إلاّ شفاه اللهيب وألسنته ! عجّـلوا أيها الأرقاء ! هاتوا أيضاً خشباً ومشاعل ! وأنت يا امرأة ، ادخلى البيت وانزعى حلتكِ الفاضحة ، والتمسى من أحقر جواريك أن تمنّ عليك بأرثّ قميص لها تلبسه وهى تمسح البلاط . .

فأطاعت تاييس

وبينما كان الهنود راكعين ينفخون فى الجذوة المتقدة ، قذف الزنوج على النار صناديق العاج والأبنوس والأرزّ وهى مفتوحة فسقطت منها التيجان وأكاليل الزهر والقلائد . وارتفع عمود أسود من الدخان مثلما فى محرقات الشرائع القديمة . ثم ان النار التى حُصرت فى صعيـد واحد ، اندلعت فجأةً وزأرت كحيوان مفترس ، وأخذ لهيبها الذى يكاد لا يرى من شدة تكاثف الدخان ، يلتهم وقودها الثمين . فازدادت حمية العبيد فى عملهم ، ونشطوا لجرّ البسط الغالية ، والبراقع المطرزة بالفضة، والديباج المزخرف . وقد أثقل كواهلهم حمل المناضـد والأرائك والوسائد السميكة والأسرة ذات العـُمـُد الذهبية . وجرى ثلاثة أحباش أقوياء حاملين فى أحضانهم تماثيل الكهف الملوّنة التى كانت أحدها محبوباً كأنه من الأحياء . فما كان

ـــ افعلوا ما يأمركم به هذا الرجل ، فقد حلّت به روح الرب ، فاذا خالفتموه أدركـكم الموت .

ذلك انها كانت قد سمعت ان لأولياء الصحراء من البأس ما يغرق الخاطئين الذين يضربونهم بعصيّهم فى جوف الأرض المنشقّ الملتهب . . فآمنت بما سمعت !

صرف بافنوس النساء ، والمماليك اليونانيين الذين كانوا كالنساء ، وقال للباقين :

ـــ ايتوا بخشب فى وسط الرحبة ، وأوقدوا ناراً ، والقوا فيها ما دار عليه البيت والكهف .

فوقفوا بلا حراك مشدوهين ، وسألوا مولاتهم بأعينهم ، فلما رأوها لا تأتى بحركة ، ولا تنبس ببنت شفة ، تزاحموا بالمناكب ، وقد داخلتهم الشكوك فيما يراد بذلك ، وحسبوه دعابة . .

قال الراهب :

ـــ أطيعوا !

كان منهم مسيحيون عديدون فقهوا ما طلب اليهم ، وراحوا يبحثون فى البيت عن خشب ومشاعل ، وتبعهم الباقون بغير استياء لأنهم لفقرهم يبغضون الثراء ، وفى غريزتهم حب التدمير . وبينما كانوا يكدسون الخشب ، قال بافنوس مخاطباً تايس :

ـــ خطر لى أن أستدعى خازن إحدى كنائس الاسكندرية (إذا كان فيها ما يصح أن يسمى كنيسة ولم يدنسه الأريوسيون الوحوش) لأعطيه متاعك أيتها المرأة ليوزعه على الأرامل والمساكين ، وبذلك يستحيل ربح

خنقهم عناق تمثال البرنز هذا ! ! ومع ذلك فمن دواعى الأسف أن نعدم النفائس المصنوعة بمهارة نادرة ، وإذا جعلت بسطى وسجوفى طعمة للنيران كانت الخسارة لا تعوض . وان جمال لون بعضها لباهر حقيقةً ، وقد أنفق عليها الذين وهبونيها أموالاً لا يستهان بها . كذلك أملك أقداحاً وتماثيل وصوراً ثمينة ، ولا أظن أن اتلافها ضرورى ، لكنك يا أبى تعلم ما يجب عمله ، فاعمل ما تريد .

ثم تبعت الراهب إلى الباب الصغير حيث عُلِّقَت أكاليل الزهر والتيجان الكثيرة ، ولما فُتح أمرت البواب أن يدعو عبيد البيت جميعاً . فظهر أولاً أربعة هنود طهاة . وكانوا عوراً صفر البشرة ، وقد كابدت تايس مشقة عظيمة ووجدت لذة كبيرة فى جمعهم من جنس واحد ، ومصابين بعاهة واحدة . وكانوا عندما يخدمون على المائدة يثيرون فضول المدعوين فتأمرهم تايس بقص تاريخ حياتهم . فاقترب هؤلاء وظلوا صامتين . ثم تبعهم مساعدوهم . ثم أقبل السوّاس والصائدون وحملة المحفّة والسعاة الذين لا يضنيهم التعب ، وبستانيان غزيرا الشعر ، وستة زنوج ذوو هيئة وحشية ، وثلاثة مماليك يونانيين أحدهم نحوى والثانى شاعر والثالث مغنّ . اصطفوا جميعاً بانتظام فى الرحبة . وأقبلت الزنجيّات الفضوليّات ، منزعجات ، يدرن عيونهن الكبيرة ، وأشداقهن منشقة حتى أقراطهن . ثم ظهر ست جوار بيض جميلات ، عابسات ، متنقبات ، يجررن ببطء أقدامهن المكبّلة بسلاسل ذهبية دقيقة .

ولما تكامل عددهم ، قالت تايس لهم ، وهى تشير إلى بافنوس :

— سنولي الأدبار يا تاييس ، لا نلوي على شيء . لكن لن نترك وراءنا الأدوات ، الشهود ، الشركاء فى جرائمك الماضية . تلك السجوف والأسرة والبسط وقوارير الطيب والمصابيح التى تعلن عن فجورك . أتزيدين متاع الجريمة هذا المسكون بالشياطين والذى يحمله الروح اللعين المستقر فيه — أن يتبعك أيضاً الى البادية ؟ . . . والحق الذى لا ريب فيه ، ان موائدالعار ومقاعد الشنار تستخدم كأعوان للشياطين . فهى تعمل وتتكلم وتخبط فى الأرض وتخترق الجو ! فليكن العدم والفناء نصيب شهود عارك ! ألا فاسرعى يا تاييس ومرى ، والمدينة هاجعة ، عبيدَك أن يقيموا فى وسط هذا الميدان كومة من الخشب تحرق فوقها الثروة المدنسة التى يحتوى عليها مسكنك .

فارتضت تاييس ذلك وقالت :

— افعل يا أبى ما تريد . لست أجهل أن المتاع اللا روح فيه يصلح مساكن للأرواح ! . . فى الليل ، يتكلم بعض الأثاث سواء بضربات يحدثها فى فترات معينة ، أو باظهار أضواء ضئيلة كاشارات ، ولكن هذا كله ليس بذى بال ، فثمة ما هو أدهى وأمر ، أفلم تلحظ يا أبى الى يمين مدخل كهف العذارى ، تمثال امرأة عارية كأنها تتأهب للاستحمام ؟ رأيت بعينى رأسى هذا التمثال وقد التفتَ ذات يوم كأنه إنسان حىّ ، ثم استعاد مظهره العادى ، فتثلجت أطرافى رعباً ، وضحك منى نسياس لما أخبرته بهذه الأعجوبة . فلا بد وأن يكون فى هذا التمثال بعض السحر ، فقد حدث أنه نفث مآرب مضنية فى رجل دلماسى كان كافراً بجمالى . حقاً لقد كنت فى وسط أشياء ساحرة ، وكنت معرضة لأشد الأخطار برؤية الرجال وقد

— هى بعينها ا ألبين الشريفة المحتد قد ارتدت بعد الأرجوان الرومانى أطمار بالية وسمت بنت سادة الدنيا الى منزلة خادم يسوع المسيح . ستكون أمك .

فنهضت تاييس وقالت :

— خذنى الى بيت ألبين !

فقال بافنوس متمماً نصره المبين :

— سأسير بك حتماً اليه . وسأقفل عليك فى صومعة حيث تبكين على آثامك وما قدمت يداك . إذ ليس من الرأى الصواب أن تختلطى ببنات ألبين قبلما تغتسلى من جميع خطاياك . وسأضع على الباب ختماً ، وستمكثين سجينة سعيدة حتى يأتى يسوع بنفسه ويكسر الخاتم علامة الغفران . بالله لا يداخلك ريب يا تاييس فى مجيئه ، فسيأتى ، ويا للرعشة التى سوف تسرى فى جسمك حين تشعرين بأصابع نوره فوق عينيك ترفأ دموعك !

فقالت تاييس ثانيةً :

— خذنى يا أبى الى بيت ألبين !

امتلأ قلب بافنوس فرحاً . فنظر حوله وذاق — غالباً بغير خوف — لذة التأمل فى المخلوقات ، ونهلت عيناه من نور الله بابتهاج ، ومرت فوق جبينه نسمات مجهولة . . ثم أبصر فجأة فى إحدى زوايا الميدان الباب الصغير المؤدى إلى بيت تاييس ، وتذكر أن تلك الأشجار البديعة التى كان يعجب بأعاليها قد ظللت حدائق العاهرة ، ورأى بعين الفكر الأرجاس التى لوّثت الهواء الذى كان فى ذلك اليوم منعشاً ونقياً ، فأمضّه ذلك وأشجاه ، وعَالَ من صبره وشجاه ، فأجهش بالبكاء وقال :

أمامهما رحبة خالية محاطة بالعُمُد والتماثيل المنذورة . وفى أطرافها مقاعد مستديرة من الرخام عليها أنصاب مختلفة الأشكال . فسقطت تايبس على أحد هذه المقاعد ، ثم رشقت الراهب بنظرة تلهف ، وتساءلت :

— ماذا ينبغى أن أعمل ؟

فأجاب الراهب :

ينبغى أن تتبعى ذاك الذى أتى للبحث عنك . انه سيفصلك عن هذه الحياة كما يفصل القاطف عنقود العنب الذى يتعفن فى الكرْم ويأخذه الى معصرة الخمر ليحوله الى صهباء طيبة النكهة معطرة . اسمعى ! ان على مسيرة اثنتى عشرة ساعة من الاسكندرية ، الى الجهة الغربية ، بقرب البحر ، ديراً للراهبات ، تعاليمه آيات حكمة بيّنات جديرة بأن تكتب شعراً غنائياً ، وتوقع على ألحان الدف والطنبور . . . والحقّ أن النساء اللواتى فيه باتّباعهن تلك التعاليم واقدامهن على الأرض ، أصبحت جباههنّ فى السماء ! وهن يحيين فى هذا العالم حياة الملائكة . يردن أن يكنّ فقيرات ليحببن يسوع ، خفرات كي ينظر اليهنّ ، فاتنات ليتزوجهنّ . . . يزورهن يومياً فى ثوب بستانى حافى القدمين ، ويداه الجميلتان مفتوحتان مثلما أظهر نفسه لمريم فى طريق الضريح . وعلى ذلك سآخذك اليوم الى هذا الدير يا تايبس ، ولا تلبثين بعد انضمامك الى أولاء الراهبات القديسات أن تشتركى فى سمرهنّ السماوى . انهن ينتظرنك كأخت لهن ، وعند عتبة الدير أمهن « ألبين » النقية تمنحك قبلة السلام ، وتقول لك : « أهلاً وسهلاً بك يا ابنتى ! »

فصاحت الغانية صيحة الدهشة وقالت :

— البين ! ابنة القياصرة ! ابنة أخت الامبراطور كارّوس !

القوقعات النجسة تزحف اليكِ وتدنسك بعرقها اللزج ، وأبصرت اولئك الوحوش نائمين تحت أقدام العبيد ، وشاهدت اولئك البهائم متضاجعين فوق الطنافس المدنسة بقيئهم ، لقد رأيت ذلك الشيخ المجنون يهرق دماً أنجس من الخمر المسكوبة فى مجلس دعارتهم ، ويلقى بنفسه بعد الفراغ من التهتك والخلاعة فى وجه المسيح غير المنتظره ! . . . الحمد لله ! . . . لقد رأيت الخطيئة وعرفت أنها مرذولة وساءت سبيلاً . تاييس ! تاييس ! تاييس ! إذكرى جهالة أولئك الفلاسفـــة ، وقولى ، هل ترغبين فى الهذيان مثلهم ؟ إذكرى النظرات والحركات والقهقهات التى عاينتها من رفيقتيهم الخليقتين بهم — تانك القردتان البهيميتان الخبيثتان ، وقولى ، أتودين أن تبقى مثلهما ؟ أما تاييس التى أحفظت قلبها مكاره تلك الليلة ، وشعرت بتفـاهة الرجال وبهيميتهم ، وخباثة النساء ، وثقل وطأة الأيام . . . فانها قالت متنهدة :

— نفسى متعبة حتى الموت يا أبى ، فأين الراحة ؟ أحس بجبينى ملتهباً ، ورأسى خاوياً ، وذراعىّ مرتخيتين حتى لا أملك من القوة ما يكفينى لإمساك السعادة لو أنها وُضعت فى راحتىّ .

فنظر اليها بافنوس بحنو وقال :

— تشجعى يا أختاه ! فقد اقتربت الساعة التى ترتاحين اليها ، أنت التى ستصير بيضاء نقيـــة مثل هذه الأبخرة التى ترينها صاعدة من الحدائق والبحيرات .

* * *

اقتربا من بيت تاييس . وشـاهدا فوق الجدران رؤوس أشجار الجميز والجلنار ، المحيطة بكهف العذارى ، تهتز تحت ظلّ نسمات الصباح . وكانت

البَردى

— عَودٌ على بدء —

طلع الصبح بلون الورد على المدينة . وامتدت صفوف الأعمدة الطويلة على جانبي الطريق المقفر . وقد أشرفت عليه من بعيد قبة قبر الاسكندر المتلألئة . وكان على جانبي الطريق أكاليل زهر سقطت أوراقها ، ومشاعل انطفأ نورها ، مبعثرة هنا وهناك . وكان الهواء مرطباً بنسمات البحر العليلة . فمزّق بافنوس ثوبه الفاخر مشمئزاً وداس عروضه بقدميه ، وصاح قائلاً :

— ها قد سمعتم يا تاييس ، فقد نفثوا صنوف الحماقات والخبائث . وقذفوا بفاطر السموات والأرض من أعلى سمائه الى أسفل درك الجحيم حيث الشياطين . وأنكروا بوقاحة وجود الخير والشرّ ، وجدّفوا على السيد المسيح وكفروا به ، وأثنوا على يهوذا . أمّا أشدهم طغياناً وفجراً فهو ذئب الظلام ، والحيوان النجس ، الأريوسي النتن المحشو بالفساد والهلاك ، فقد فتح فاه كما تنبش القبور . . . أى تاييس ! لقد رأيت تلك

الصباح

(وقد أشرق نوره الوردي على المدينة)

ـــ الموت ! يشتهي الموت وهو لا يزال قادراً على خدمـــة الدولة ؟ يا للخَبال ! .

وكان بافنوس وتاييس قد لبثا جالسين جنباً الى جنب بغير حراك ، وقد فاضت نفساهما بالاشمئزاز والرعب ، والأمل . . .

ثم أمسك الراهب فجأة بيد الممثلة ، وتخطى معها السكارى المصروعين على مقربة من المتعانقين والمتضاجعـــين ، واجتذبها مجتازاً بها الشراب المسكوب والدم المسفوك . . .

أدنس قط صورك التى وضعتهـا فى هيكل روحى . هناك علقت أفكارى كالأكاليل والتيجان . لقد عشت ممثلاً لذاتك العلية ، وقد عشت حتى اكتفيت » .

قال هذا ورفع ذراعيه الى السماء فأضاء وجهه بنور ساطع .

ولبث هنيهة مفكراً ، ثم عاد يقول مسروراً :

— انتزع ذاتك من الحياة يا يوكريت ، كما تسقط الزيتونة الناضجة من الشجرة التى حملتها ، فتحمدها وتحمد الأرض التى غذتها .

ثم أخرج من ثنيات ثوبه خنجراً مسلولاً وأغمده فى صدره . .

ولما أمسك سامعوه بيده ، كان النصل قد اخترق صدر الرجل الحكيم . فحمل هيرمودور ونسياس الجسد المصفر المخضب بالدماء الى مضجع بين ولولة النســـاء المذعورات ، وتأفف الأضياف المنزعجين من رقادهم ، وتأوهات الشهوات المكتمة التى ركدت ريحها وخبت نارهـا . أما الشيخ كوتـا فقد استيقظ من نومه العسكرى الخفيف ودنا من الجثة ، يفحص الجرح ويصيح :

— علىّ بطبيبى أريستيه !

فهز نسياس رأسه وقال :

— لقد قضى يوكريت ، انه اشتهى الموت كما يشتهي غيره الحب . وقد أذعن ، مثلنا جميعاً ، لأمنية مبهمة . وها هو الآن مثل الآلهة الذين لا يتمنون ولا يشتهون شيئاً . . .

فقرع كوتـا جبهته وقال :

— وأى قيمة لهذا يا نسياس ؟ فمن الحماقة أن يتعلق المرء بظل لاشك زائل.

— إذا كان الجمال ليس سوى ظل ، فليس الاشتهاء إلاّ وميض برق . ويا ليت شعرى أية حماقة فى اشتهاء الجمال ؟ من رأيي أن ما يزول ينبغى أن يصحب ما لا يدوم ، وان الوميض الحائل يبتلع الظل الزائل . . .

— انك تبدو لى يا نسياس طفلاً لا عباً بالأكر ! ألا فتحرر تكن رجلاً !.

— كيف يمكن إنساناً أن يتحرر يا يوكريت وله جسد ؟.

— سترى حالاً يا ولدى ، وتقول : « لقد كان يوكريت حراً » .

وكان الشيخ يستند أثناء كلامه إلى عمود من رخام سُمَّاقي ، وقد أضاء جبينه بأشعة الفجر الأولى . فاقترب هير مودور وماركوس ووقفا بجانب نسياس وأخذ الأربعة يتحدثون فى الالهيات غير مكترثين لضحك السكارى وصياحهم . فأعرب يوكريت عن حكمة ، وأبان عن فصاحة ، جعلت ماركوس يقول له :

— انك خليق بأن تعرف الله الحق .

فأجاب يوكريت :

— ان الله الحق فى قلب كل حكيم .

ثم تكلموا فى الموت .

قال يوكريت .

— أريد أن يجدنى الموت مشغولاً بتقويم اعوجاجى وتأدية واجباتى . فأرفع يديّ الطاهرتين أمامه نحو السماء وأقول للآلهة : « أيتها الآلهة ، لم

تايس :

بُعداً لك ! انى أريد أن أحب بالجســـد والنفس معاً . كل هؤلاء الفلاسفة تيوس !

. . . . . .

* * *

انطفأت المصابيح واحداً إثر واحد ، ونفذت أشعة الفجر الشاحبة من خلال السجوف فأضاءت وجوه المدعوين القاتمة وعيونهم المنتفخة . وكان أريستوبول ، الذى سقط بجانب شيراس ، مطبق اليدين يرسل في حلمـــه سواسه إلى الغربان ! . . وقد ضم زينوتميس فى حضنه فيلنّا المنهوكة القوى. وصبّ دوريون فوق حلقوم دروسيه العـــارى قطرات خمر ترقرقت كاليواقيت وتدحرجت على صدرها الأبيض الرجراج ، من فرط الضحك، وقد تعقّب الفيلسوف تلك القطرات بشفتيه يشربها من فوق لحم الصدر الغض . . .

نهض يوكريت ووضع يده على كتف نسياس واجتـــذبه إلى أقصى القاعة ، وقال له مبتسماً :

— إذا كان لا يزال فى طاقتك يا صديقى أن تفكر ، ففيم تفكر ؟

— أفكر فى أن عشق النساء هو حدائق أدونيس !

— ماذا تعني ؟

— أوَ لَمْ يجر فى علمك يا يوكريت أن النساء فى كل عام يشيدن حدائق صغيرة فى شرفات منازلهن ، فيغرسن نخيلاً فى أصص تكريماً لعاشق الزُّهرة ؟ فهذه النخيل تنضر وتخضرّ قليلاً ثم تذوى وتذبل . . .

ونام كوتّا الشيخ ملقياً رأسه الأصلع على كتفيه العريضتين . ومرّت فترة من الزمن ، ودوريون يبدو كأنه يموج في معطفه الفلسفي ، ثم اقترب من مُتّكأ تاييس وقال :

— أحبك يا تاييس . وان كان حب المرأة لا يليق بي !

تاييس :

ولماذا لم تحبني منذ هنيهة ؟

دوريون :

لأني لم أكن ذقت طعاماً !

تاييس :

أما أنا يا صاحبي المسكين ، لم أشرب سوى الماء القراح ، فلا أحبك !

فاكتفى دوريون بما سمعه ، وانسل الى جانب دروسيه التي أومأت اليه بعينها لتستأثر به دون صاحبتها . فاحتل زينوتميس المكان الخالي وقبّل تاييس في ثغرها .

تاييس :

كنت أحسبك أعفّ من أن تأتي بمثل هذا . . .

زينوتميس :

انني كامل ، والكاملون لا يقيدهم قانون !

تاييس :

أفلا تخشى أن تتدنس إذا ألفيت بنفسك في حضن امرأة ؟

زينوتميس :

للجسد أن يستسلم للشهوات ، وتبقى النفس طاهرة غير شاعرة !

كاليكرات :

حذار أن تسيء إلى الآلهة يا زينو تميس الزنديق ، فالشعراء أعزّة لديهم، وقد سنّت الشرائع الأولى نظماً ، ومعجزات الأرباب قصائد ، والآذان السماوية تستطيب وقع الأناشيد ! ومن ذا الذي يجهل أن الشعراء مطلعون على الغيب فلا تخفى عليهم خافية ؟ وإذ كنت شاعراً وقد توجت باكليل من غار « أپولو » فسأطلعكم على آخر تجسد لأيونيا . ان هيلانة الأزلية على مقربة منكم . انها تنظر الينا ونحن ننظر اليها . . . انظروا الى تلك المرأة المتكئة على مساند فراشها ، بالغة حد الجمال ، غارقة في بحر الأحلام ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، وتحركت شفتاها بالقبل . . انها هي ! . . فتّانة كما كانت في عهد پريام وأيام آسيا الزاهرة . ان ايونيا اليوم تُدعى تاييس !..

فيلينّا (Philinna) :

ماذا تقول ياكليكرات ؟ أترى عزيزتنا تاييس قد عرفت پاريس ومنالاس وأهل « مورة » المشهورين بجمال أربطة الساق الذين حاربوا حيال « اليون » ؟ وهل كان حصان طروادة عالياً يا تاييس ؟

أريستوبول (Aristobulus) :

من يذكر الخيل ؟

فصاح شيراس :

ــ لقد شربت حتى ارتويت !

ثم هوى ساقطاً تحت المائدة . . .

فرفع كاليكرات كأسه قائلاً :

ــ إذا شربنا شرب اليائسين ، متنا موتورين !

هيرمودور :

هذه الأسطورة ليست مجهولة مني . فإني أذكر ما قيل عن هيلانة الشائقة انها عاشت فى إحدى تقمصاتها مع « سيمون » الساحر فى أيام الامبراطور « تيبروس » . على أنني أظن أن سقوطها كان على رغمها ، وأن الملائكة طوّحوا بها معهم .

زينوتميس :

كذا يظن الذين لم يقفوا على حقائق الأمور يا هيرمودور ، فعندهم ان « ايونيا » الحزينة سقطت مضطرة غير مختارة لكن إذا كان الأمر كما يزعمون فان ايونيا لن تكون السرية المكفّرة ، والنذر المغمور بكل مسبّة ، والخبز المنقوع في خمر عارنا ، والقربان المحبب ، والضحية المثابة ، والمحرقة التي يتصاعد دخانها إلى الله . . إذا لم تكن خطاياها برضاها فلا خير فيها ولا فضل لها .

كاليكرات :

لكن ، هل يعلم أحد يا زينوتميس ، بأي أرض ، وبأي اسم ، وفي أي شكل فتّان ، تعيش اليوم هذه « الهيلانة » التي تتجدد ولادتها على الدوام؟

زينوتميس :

لكيما يستطيع المرء أن يكشف عن هذا السر ، يجب أن يكون قد أوتي الحكمة . والحكمة ، يا كاليكرات ، لم تؤتَ الشعراء الذين يعيشون في عالم كثيف من الأشكال والأشباح ، والذين يتلهون بالأصوات والصور الوهمية كالأطفال .

ثم هبطت إلى الأرض واتصلت برحم امرأة أرجوسية حيث تكونت ثم ولدت صغيرة نحيلة ، وسميت « هيلانة » . وسخّرت فى أعمال الحياة . بيد أنها ما عتمت أن ترعرعت فى حسن وجمال وصارت أعزّ من يشتهى من النساء . وكانت قد اعتزمت أن تمحن جثمانها الفانى بأدنس الخطايا . فبذلت نفسها للزناة الشرسين كفّارة عن كل فسق وشراسة ومظلمة . وسبيت بجمالها دمار الشعوب حتى يعفو الله عن جرائم الكون . ولم تكن « ايونيا » قط ، أو بالحري الفكرة السماوية ، مستحقة العبادة كما كانت فى تلك الأيام التي أباحت ، كامرأة ، عرضها للأبطال والرعاة .

تخيل الشعراء ألوهيتها حين وصفوها بالهدوء والسموّ والفتك ، وعندما وجهوا الدعاء لها ، قائلين أنها : « روح صافية صفاء البحار » .

كذا دفعت الشفقة « ايونيا » الى الشر والعذاب . ماتت ولا يزال الجنس الأرجوسي ينتجع قبرها . كان عليها أن تعرف الموت بعد اللذة ، وأن تذوق الثمار المرّة التي بذرت بذورها . لكن بتخلصها من جسد هيلانة المنحلّ تجسمت فى شكل امرأة أخرى وانقادت ثانية إلى كل فاحشة . وهكذا بانتقالها من جسد إلى جسد ، واجتيازها مراحل الشرّ بيننا ، تحمل أوزار الدنيا . ولن تذهب تضحيتها أدراج الرياح ، فلاتصالها بنا برابطة اللحم والدم ، ومحبتها لنا ومشاركتنا فى ذرف الدموع — ستحصل على نجاتنا ونجاتها معاً ، وسترفعنا ، معلقين بصدرها الأبيض الناصع ، إلى سلام الفردوس المردود .

هلاك يهوذا الأبدي . وأرى أن يسوع هو فى الحقيقة البشير بازيليد وڤالنتان. أما من جهة سرّ الفداء ، فسأخبركم أيها الأصدقاء الأعزاء ، مع قلة شوقكم إلى السماع ، كيف تم — فى الواقع — على الأرض .

فأشار المدعوون بالقبول .

وعندئذ دخل القاعة اثنتا عشرة فتاة ، سريعات الخطى ، على ألحان ناي خفي ، يحملن على رؤوسهن سلال الرمان والتفاح ، مثل العذارى الاثينيات بسلال الحصيد المقدسة . فوضعن السلال فوق المائدة ، وانقطعت أنغام الناي . وقال زينوتميس :

— لما خلقت « أيونيا » أي « فكرة الله » العالم ، عهدت بحكومة الأرض الى الملائكة . لكنهم لم يحتفظوا بالرزانة اللائقة بالحكام ، فانهم لما رأوا بنات الناس فاتنات ، باغتوهن فى المساء عند عيون المياه ، واجتمعوا بهن ، فتولد جنس شرس ملأ الأرض بغياً وعتوًّا ، حتى ارتوت أتربة الطرقات من دماء الأبرياء . ولما رأت « أيونيا » هذا ، نالها حزن لا يوصف . فاتجهت الى الدنيا ، وتنهدت قائلة :

« — هذا ما قدمت يداي ! ان أطفالي المساكين غارقون فى حياة مريرة ، والذنب ذنبي . انهم يتوجعون بجريمتي وأريد أن أكفّر عنها . الله نفسه ، الذي لا يفكر إلا بواسطتي ، لا يستطيع أن يرد اليهم طهارتهم الأولى . سبق السيف العذل ، وسوف تبقى الخليقة ناقصة حتى الأبد . وأقل ما أستطيعه ألاّ أتخلى عن مخلوقاتي . فاذا لم أستطع اسعادهم مثلي ، فانني أقدر على مقاسمتهم شقاءهم . وبما انني أخطأت إذ وهبت لهم أجساداً تذلهم ، فلأتخذن أنا الأخرى جسداً كأجسادهم ، وأذهب لأعيش بينهم »

زينوتميس :

أما أنا يا صحب فأومن بحقيقة الخير والشر ، لكنني أيقنت أنه ما من عمل بشري ، حتى قُبلة يهوذا ، إلاّ وفيه بذرة الفداء . الشرّ عون على نجاة الناس نجاة نهائية ، وفى هذا يصدر عن الخير وله نصيبه فى الجزاء المتعلق بالخير . وهو ما بيّنه المسيحيون تبييناً شائقاً فى أسطورة الرجل ذى الشعر الأحمر الذي لكي يخدع مولاه منحه قبلة السلام ، وأكد فعله خلاص الناس . كذلك ما من شيء ، في رأيي ، أشد تناهياً فى الشطط من الضغينة التي بها طارد بعض أتباع « بولس الخيّام » أتعس حواريي المسيح ، وفاتهم أن قبلة « الأسخريوطي » التي تنبأ بها المسيح نفسه ، كانت ضرورية ، بحسب عقيدتهم ، لفداء البشر ، وأنه لو لم يقبل يهوذا السفط ذا الثلاثين من الفضة ، لكانت الحكمة الإلهية فرية . فتُضلل الذات العلية ، وتنعكس أغراضها ، وتسلمُ الدنيا للشر والجهل والفناء . . .

ماركوس :

سبق فى علم الحكمة الإلهية أن يهوذا كان مخيّراً فى ألاّ يسلم سيده ، ومع ذلك سلّمه ، وهكذا استخدمت جريمة الأسخريوطي كحجر فى بناء صرح الفداء العجيب .

زينوتميس :

كلّمتك الآن يا ماركوس كمن يصدق أن نجاة الناس تمت على يد المسيح المصلوب ، لعلمي أن هذا هو اعتقاد المسيحيين . وقد أدركت مايجول بخواطرهم ليكوّن فى تمام وسعي أن أكشف عن خطأ أولئك الذين يعتقدون

يوكريت :

لنقل قولاً الى الفضيلة أقرب . الشرّ شَرّ ، لا للعالم الذي لا يخل نظامه المنزه عن الاضطراب ، وانما هو شر بالنسبة للشرير الذى يقترفه ، وكان بوسعه أن يجتنبه .

كوتا :

وحق چوپيتير ! ان هذا عين الصواب !

يوكريت :

العالم مأساة شاعر مجيد . والله الذي ألّفها قد جعل لكل منا دور يمثله فيها . فاذا شاء أن تكون سائلاً أو أميراً أو أعرج — فابذل أقصى جهدك فى اجادة تمثيل دورك !

نسياس :

أجل ! . . . ويجمل بأعرج المأساة أن يعرج مثل « هيفستوس » ، وبالمجنون أن يستسلم لهياج « أچاكس » ، وبالزانية بمحرّم أن تجدد جرائم فيدروس ، وبالغادر أن يخون ، وبالخادع أن يكذب ، وبالقاتل أن يذبح . وعندما يتم تمثيل الرواية فكل الممثلين — الملوك والعدول ، والطغاة السفاكون ، والعذارى الطاهرات ، والزوجات الفاسقات ، والقتلة الأنذال ، وأهل البلاد ذو الهمم الشمّاء — هؤلاء كلهم ينالون أنصبة متساوية من الثناء !

يوكريت :

انك تشوش فكري يا نسياس ، وتحوّل الغادة الحسناء الى غول بشع ! انني أرثي لجهلك بطبيعة الآلهة ، والعدل السماوى والشرائع الأزلية .

يا نسياس كفّ عن تهكّمك بالله المسيحيين الحقّ ! واعلم انه جلّ شأنه كزنابق الحقل ، لا يعمل ولا يغزل . لم يكن هو الصانع بل كان ولده الوحيد يسوع الذى خلق الدنيا ، وبعد ذلك أتى سبحانه ليصلح عمله ، لأن الخليقة لم تكن كاملة ، وكان الشرّ حتماً قد امتزج فيها بالخير .

نسياس :

ما الخير؟ وما الشرّ ؟

* * *

مرّت فترة سكوت . عرض فيها هيرمودور ، وذراعاه مبسوطتان فوق غطاء المائدة ، اتاناً صغيرة من معدن قورنثي تحمل سلّتين ، فى أحدهما زيتون أخضر وفى الآخر زيتون أسود ، وقال :

— انظروا إلى هذا الزيتون ، فاننا نرتاح الى تخالف لونيه ، ويروقنا أن أحدهما أخضر والآخر أسود . لكن لو وهب الفكر والنطق والمعرفة، لقال الأخضر : « خير للزيتون أن يكون أخضر ، وبئس الزيتون الأسود». ولكان قوم الزيتون الأسود ينفرون من قوم الزيتون الأخضر ، أما نحن فحكمنا أعدل من حكمهم ، لأننا فوقهم ، بقدر سمو الآلهة فوقنا . فالانسان يرى جانباً واحداً من كل شيء ، فيبصر الشر شرّاً ، والله يحيط بكل شيء علماً، فيرى فى الشر خيراً . ان القبح بلا شك قبيح لا جميل ، لكن لو كان كل شيء جميلاً ، لما ظهر كل شيء جميلاً ، والحسن يُظهر حسنه الضدُّ . . .

فلا بأس إذاً من أن يكون هناك شر ، كالذى أثبته أفلاطون الثانى بما يفوق سميّه الأول .

إلـه كامل إغضاء لا يغتفر . والآن خبرنا يا ماركوس كيف شرع فى خلق الدنيا ؟

ماركوس :

ان الذين أوتوا الحكمة وجوهر المعرفة مثـل هيرمودور وزينوتميس ، يعلمون ، وإن لم يكونوا مسيحيين ، ان الله لم يخلق العالم مباشرة وبغـير واسطة . فقد اتخذ له ولداً واحداً هو الذى بأمره صنعت جميع الكائنات .

هيرمودور :

صدقت يا ماركوس ، وهذا الولد قد عبد بأسماء « هرمس » و « ميترا » و « ادونيس » و « أبولو » و « يسوع »

ماركوس :

لا أكون مسيحياً إذا أطلقت عليه اسماً غير « يسوع » و « المسيح » و « المخلِّص » . انه حقاً ابن الله ، لكنه ليس بأزليّ ، إذ أن له بداءة . أما القول بأنه وُجد قبلما يُولد ، فذلك سخف يجب أن يُترك لبغـال « نيسيه » . وللحمار الحرون الذى حكم كنيسة الاسكندرية زمناً طويلاً باسم اثياسيوس اللعين .

وكان بافنوس قد شحب لسماعه هذا التجديف ، وأغرقه الألم فى لجّة من عرقه ، فرسم علامة الصليب ولازم صمته السامى . ومضى ماركوس فى حديثه :

— من المعلوم ان مجمع « نيسيه » الاكليروسي الغرّ ، قد تهجم على جلاله ، عزّ شأنه ، بارغامه على تقسيم صفـاته — التي لا تتجزأ بينـه وبين الشفيع الذي بواسطته صنعت كافة الموجودات . . .

وافيتنا فى الوقت المناسب . نحن لا نعلم عن تعاليم المسيحيين إلا ما يرضون باذاعته وحاشى لفيلسوف مثلك أن يرتأي ما يرتئيـــه الدهماء . لذلك ترانا متلهفين للوقوف على رأيك فى الأسرار الكبرى للعقيدة التى تنتحلها . وقد كان عزيزنا زينوتميس ، وهو كما تعلم شغف بتفسير الرموز ، يسأل الآن النابه بافنوس عن كتب اليهود . غير أن بافنوس لم يحر جواباً ، ولا غرو فقد نذر ضيفنا الصمت . وختم الله على فمه فى الصحراء . أما أنت يامار كوس ، يا من رنّ صوته فى المجامع الاكليروسيه . واعتلى المنابر فى مجلس قسطنطين الإلهى ، فتستطيع — إذا شئت — أن تنقع غلتنا وتبلغنا أمنيتنا بأن تطلعنا على الحقائق الفلسفية المخبوءة فى أساطير المسيحيين . أو ليس أولى هـــذه الحقائق هى وجود إلـه واحد لا شريك له ، به أومن إيماناً ثابتاً ؟

ماركوس (Marcus) :

أجل أيهـا الاخوان الموقرون ، إنى أومن بواحد أحد ، لم يولد ، فرد صمد ، مبدع لجميع الكائنات .

نسياس :

نحن نعلم يا ماركوس أن ربك خلق الدنيا . وكان لهذا الخلق ، بالتأكيد ، شأن يذكر فى وجوده . وكان موجوداً منـذ الأزل قبل أن تصح عزيمتـه على خلقها . لكن لا بدّ لي من التسليم — إحقاقاً للحق — بأن موقفـه كان حرجاً جداً . فقد كان عليه أن يظلّ بلا عمل ليظل كاملاً . وكان عليه أن يعمل إذا شاء أن يبرهن لنفسه على وجوده . أراك تؤكد لي أن رأيه كان قد استقرّ على أن يعمل ، وانى لواثق بما تقول ، وان كان هذا يعد من قِبَل

العريقة فى القدم ، التي كانت مهد العالم ستصير لحده ، وسيتلقى سيرابيس — إلـه الموت — أسنى تعبدات الأحياء . وسأكون أنا آخر كاهن لآخر إلـه . . .

***

فى تلك اللحظة رفع السجوف الموشاة مخلوق غريب ، فرأى الضيوف أمامهم رجلاً ضئيل الجسم ، أحدب الظهر ، له جمجمة مفلطحة صلعاء . وكان يرتدي جلباباً أزرق على الزيّ الآسيوي ، ويلبس كالهمج سراويل حمراء مرصعة بنجوم ذهبية . فلما رآه بافنوس عرف أنه ماركوس أريوس[1] ، فرفع يديه فوق رأسه خشية انقضاض صاعقة من السماء ، وامتُقع لونه رعباً . ففي وليمة الشياطين هذه لم تستطع تجديفات الوثنيين ولا تُرّهات الفلاسفة الخاطئين أن تفتّ فى عضده أو توهن من جَلده ، ولكن أصابه بذلك مجرد حضور هذا الكافر . فحدثته نفسه بالفرار . . . على أنه عندما التقى نظره ونظر تاييس ، اطمأن وسكن روعه ، إذ قرأ روح المجتباة وأدرك أنها — وهى توشك أن تصبح قديسة — قد أسبلت عليه ستر حمايتها ، فأمسك بطرف ثوبها الطويل الفضفاض ، وناجى المسيح مخلّص البشر .

رحّب المدعوون بوصول من يدعى « أفلاطون المسيحيين » ، وخاطبه هيرمودور أولاً بقوله :

— أي ماركوس النابه الذكر ! اننا نبتهج جميعاً برؤيتك بيننا . وقد

---

(١) Arius كاهن اسكندري (٢٨٠ — ٣٣٦) مؤسس المذهب الاريوسي الهرطوقي (الناشر)

هيرمودور :

أما أنا يا لوسيوس فأظن أنه لا يوجد مثال صالح للحكم ، ولن يوجد . إذ أن اليونانيين الألبّاء الذين وفقوا إلى إدراك أشكال صالحة لمختلف الشئون ، حاولوا عبثاً ايجاد الحكومة التى ينشدونها من هذا القبيل . لذلك كان كل أمل من هذه الوجهة خائباً سلفاً . ولقد استدللنا من علامات خاصة على أن الدنيا أشرفت على الغرق فى الجهالة والوحشية ، وقدّر لنا يا لوسيوس أن نشهد احتضار المدنية المروع ، ولم يبق لنا من كل الترضيات التى فازت بها الزكانة والعلم والفضيلة إلاّ الفرح القاسي — إلاّ ارتقاب الموت مستسلمين .

كوتا :

حقاً ان جوع البشر وعتوّ المتوحشين آفتان مخيفتان . غير أنه بأسطول عظيم ، وجيش عرمرم ، ومال وفير . . .

هيرمودور :

ما فائدة اغترارنا بأنفسنا ؟ ان الامبراطورية المضمحلة سوف تقدم لقمة سائغة للهمج ، والمدن التى شاد صروحها الحذق الهيليني والأناة اللاتينية لن تلبث أن تصير نهباً للمتوحشين السكارى . ولن يبقى على وجه الأرض فنّ ولا حكمة . ستقلب صور الأرباب فى المعابد ، وتنعكس فى القلوب . وسيكون فى هذا ظلام العقل وفناء العالم . وكيف نصدق أن « السرماتيين » سيقومون يوماً ما بأعمال نابهة ، أو أن « الجرمان » سيزاولون الموسيقى والفلسفة ، أو أن « الكاض » و « المركومان » سيعبدون الأرباب الخالدين ؟ كلا ! لقد مال ميزان كل شيء وتهدم . وهذه مصر

كاليكرات (Callicrates) :

ان هذا لشيء عجاب ! قبلما أذوق الطعام أذكر أيام كان الشعراء يجلسون على موائد الجبابرة الطيبين فيسيل لعابى . لكننى وقد ذقت الرّحيق المختوم الذى سكبته لنا بسخاء يا لوسيوس الكريم ، لم أحلم بسوى الجهاد المدنى ، والعراك الحماسي . وانى لأستحي أن أعيش فى زمن كهذا لا مجد فيه . اننى أستوحي الحرية ، وأسفك دمى ، فى الخيال ، مع آخر الرومانيين فى ساحات فيليب .

كوتا :

مات أجدادى عند سقوط الجمهورية مع بروتس فى سبيل الحرية . ولكن عندى أنّ ما دعاه الشعب الرومانى « حرية » لم يكن فى الحقيقة سوى حق حُكم نفسه بنفسه . لا أنكر أن الحرية قد تكون خير النعم لأمة ، وأجدى ما تناله من العطايا ، لكن كلما طال عمرى زدت اقتناعاً بأن الحكومة القوية ، ذات الحول والطول ، هى وحدها التى تستطيع أن تضمنها لرعاياها . لقد قضيت أربعين عاماً شاغلاً أعظم مناصب الدولة ، ودلتني تجاربي الطويلة على أن وهن القوة الحاكمة ينتج ظلم الرعية . فكل الذين يسعون ، مثل السواد الأعظم من الفصحاء ، فى إضعاف كيان الحكومة ، يقترفون جرماً شنيعاً . وقد تتخذ إرادة الحاكم المطلق حيناً مظهراً مشئوماً ، لكن السعي إلى رضا الشعب يجعل الحزم والعزم فى الحكم مستحيلاً . وقبل أن يُغمر العالم بجلالة السلم الرومانى ، لم تسعد الشعوب إلا بحكم مستبد مستنير .

وفى هذه الحالة — حالة الاتصال بالذات العليـــة والاشتراك فى الصفاء الإلهى — يفوز العقل بمسرات لا نهاية لها وبمعرفة مطلقة ، فيدخل الوحدة التى هى الكل فيكون كاملاً .

نسياس :

هذا حريّ بالإعجاب ، لكن الحق أقول يا هيرمودور انى لا أرى فرقاً كبيراً بين « الكل » و « العدم » حتى الكلمات تبدو عاجزة عن التمييز بينهما. فغير المتناهى يلوح ، إلى درجة رائعة ، إنه عبارة عن لا شىء — كلاهما بعيد عن التصور . ومن رأيى أن الكمال يكلّف كثيراً جداً ، فقد يكلف الإنسان حياته كلها ، وعلى المرء لكيما يحظى به أن يتفانى . وهى نكبة لم ينجُ منها أحد مذ آلى الفلاسفة على أنفسهم تأليه الكمال وتكميل الآلهة ، وبعد ، فاذا كنا لا نعرف غير الكائن فنحن جاهلون كذلك ما يكون . إنّا لا ندرى شيئاً . . . تقولون أن تفاهم الناس فيما بينهم محال ، ويبدو لى ، على رغم ضوضاء التنازع بيننا ، أنه يستحيل عليهم ألاّ يتفقوا فى نهـــاية الأمر ، وقد دفنوا جنباً إلى جنب ، مغمورين بأكوام من المتناقضات التى هالوها هم أنفسهم فوق أنفسهم مثل بليون فوق أوسّا[1] .

كوتا :

أحب الفلسفـــة حبّا جمّا ، وأمارسها فى أوقات فراغى ، لكننى لا أفهمها جيداً إلا فى كتب شيشرون .

يا أيها العبيد صبّوا السلافة المعسولة !

---

(١) في أساطير الاولين أن Pélion وأسا Ossa جبلان متجاوران في تساليا . فلما ثار الجبابرة على الاله جوبيتر ، وأرادوا أن يرقوا أسباب السماء ، كوّموا بليون فوق أوسا فضربت مثلا للمشكلات اذا زادت لغير نتيجة ، والصعوبات اذا قامت ضغثاً على إبّالة (المترجم)

خافية على فيثاغورس وأفلاطون وجميع فلاسفة اليونان ، حتى على أبيقور الالهي[1] الذى حرر الانسان من سائر المخاوف الباطلة ، فيكون لك الفضل إن أنت أنبأتنا بأية وسيلة أحرز هؤلاء الثلاثة الزائلون المعارف التى غابت عن حكمة الحكماء .

زينوتميس :

وهل أنا بحاجة إلى أن أكرر على مسمعك يا دوريون ان العلم والتأمل ليسا سوى الدرجة الأولى من المعرفة ، وان الانجذاب وحده هو الذى يوصل الإنسان إلى الحقائق الأزلية ؟

هيرمودور (Hermodorus) :

صحيح يا زينوتميس ان الروح تغتذى بهذا الانجذاب كما يغتذى الجندب بالندى . وزد على ذلك أن العقل وحده هو الصالح لتجلى الجذب . لأن الانسان يتألف من طبيعة ثلاثية : جسد مادى ، وروح أرقّ منه وإن كانت مادية مثله ، ثم عقل غير قابل للفناء . وعندما يصعد العقل من الجسد — الذى يصبح بعده كقصر هجره صاحبه بغتة فصار نهب الصمت والوحشة — ويحلّق فى جنات الروح ، ويندمج فى ذات الله — يتذوق العقل لذّات موت عتيد ، أو بالحرى حياة آتية ، فما الموت إلاّ الحياة .

---

(١) Epicure فيلسوف اليونان العظيم (٣٤٢ — ٢٧١ ق . م) يحتمل أنه ولد في ساموس . يرى في اللذة الخير كله . وانه يجب أن تتوجه كل مجهوداتنا فى سبيل الحصول عليها . لكنه يفرقها عن الحواس . ويرى في لذة الجسد العذاب والالم . ويقول بلذة العقل وتثقيفه وممارسة الفضيلة . ويرى في ذلك السعادة وهي غاية الحياة . لكن مذهبه تحدر وتدهور من بعد ذلك الى عكس أغراضه العالية النبيلة ككل مذهب من المذاهب السامية التي يقضي عليها ضعف الانسان — (المترجم)

قد علما ما كان مجهولاً لديهما ، تملكه غضب فظيع . وكانت غيرته شرّ ما يُتّقى فاستجمع قواه وأحدث فى الجوّ السفلي ضجة جزع من هولها ذانك الكائنان الضعيفان ، فأفلتت الثمرة من يد الرجل ، أما المرأة فقد تعلقت بعنقه وقالت : « أريد أن أقاسمك الجهل والألم ! » فلما انتصر يهوه أبقى آدم وحواء وذريتهما فى ذهول وفزع . وفازت صناعته التى لم تكن تتعدى خلق الشهب الغليظة ، وفاقت علم الثعبان الذى كان موسيقاراً ومهندساً . فعلّم الناس الظلم والجهل والقسوة ، ومكّن للشر فى الأرض . طارد قابيل ونسله لأنهم كانوا أهل جدّ وعمل . وآخذ الفلسطينيين بشعرهم الأورفىّ ومواعظهم العيسوبية فأفناهم على بكرة أبيهم . ثم صار للعلم والجمال عدوًّا لا تبرد غلته . وقد ظل النوع الانسانى قروناً متعاقبة غارقاً فى بحار من الدموع والدماء تكفيراً لهزيمة الثعبان المجنّح . وكان بين الاغريق ، لحسن الحظ ، دهاة مثل فيثاغورس وأفلاطون ، فأدركوا بقوة عبقريتهم الأشكال والأفكار التى حاول عدو يهوه عبثاً تعليمها للمرأة الأولى . كانت روح الثعبان فيهم ولذلك كرّم الأثينيون صورته كما قال دوريون . وأخيراً ، ظهرت ثلاثة أرواح علوية بأشكال بشرية : يسوع الجليلى ، وبازيليد ، وڤالنتان ، وقد أنعم عليهم باجتناء أفضل الثمار من شجرة المعرفة التى غارت جذورها فى بطن الأرض وارتفعت قمتها إلى عنان السماء . وهذا ما شئت أن أقوله انتقاماً للمسيحيين الذين كثيراً ما تنسب اليهم أغلاط اليهود .

دوريون :

إذا كنت وعيتُ ما قلته يا زينوتميس من أن الرجال الثلاثة الحربين بالاعجاب — يسوع وبازيليد وڤالنتان — قد اكتشفوا أسراراً كانت

الفردوس المفقود

آدم وحواء بعد الخطيئة

زينوتميس :

اعلم يا دوريون أن أسمى الحقائق وأفضلها لا يدرك بالبصيرة والذكاء ، بل بالحس والشعور . ولهذا ترى النساء بوجه عام أقل إدراكاً من الرجال ، ولكنهنّ أدق منهم إحساساً ، فيصلن بسهولة إلى قمة المعرفة بالمسائل الالهية . ولهنّ موهبة الرجم بالغيب . وانى لأستصوب تمثيل « أبولو »[1] العازف بقيثارته ، ويسوع الناصرى مرتدين كالنساء ثياباً فضفاضة . ومهما يكن رأيك يا دوريون فالثعبان الذى هدى حواء كان حكيماً لتفضيله ، فى عمله النورانى ، حوّاء التى هى أنصع بياضاً من الحليب والكواكب ، على آدم الثقيل الظل ! فقد صغت اليه طوعاً ، وانقادت إلى شجرة المعرفة التى تمتد فروعها إلى السماء ، والتى بللها الروح القدس كالندى . كانت هذه الشجرة يانعة بأوراق تنطق بألسنة الشعوب المقبلة ، وتؤلف أصواتها المجتمعة موسيقى كاملة . وكانت أثمارها الوافرة تغذى المهتدين وتعلمهم الأسماء كلها ، من معادن وأحجار ونبات ، وقوانين الطبيعة والخلق ، ولكنها كانت لهيباً لا يجرؤ الذين يخشون الألم والموت على إدنائها من شفاههم ، أما حواء فبعد أن صغت بانتباة إلى دروس الثعبان ، تحررت ورفعت نفسها عن مستوى المخاوف الفارغة ، واشتهت أن تذوق الثمار التى تؤدى الى معرفة الله. لكنها كانت تحب آدم فلم تشأ أن يكون دونها ، فأخذت بيده وقادته إلى الشجرة العجيبة ، وقطفت تفاحة ملتهبة وأكلت منها ثم قدمتها إلى رفيقها . ولكن ساء حظهما إذ باغتهما يهوه ، وكان يتنزه متعسفاً فى الجنة ، فلما رأى أنهما

---

(١) إلـه الشعر والفنون والطب عند اليونان والرومان

رؤية كل شيء . وكان فى الحقيقة قصير النظر — وجذب بصرهما بأبهة درعه وبريق أجنحته . ثم روّض عقليهما بأن رسم أمامهما ، بجمسه ، أشكالاً متقنة ، كالدائرة والأهليلج والحلزون ، التى عرف الأغريق خواصها العجيبة منذ ذلك الحين . فعُني آدم بالتأمل فى هذه الأشكال الهندسية أكثر من حواء ؛ لكن لما بدأ الثعبان يتكلم ويعلمها أسمى الحقائق ، تلك التى لا يمكن التدليل عليها ، وجد أن آدم المخلوق من طين ذا طبيعة أكثف جداً من أن تجعله يدرك تلك العلوم الدقيقة ، وأن حواء ، بالضدّ ، قد استطاعت فهمها بسهولة لكونها أرق قلباً وأدق احساساً . لذلك حدّثها وهى وحدها ، فى غياب زوجها ، لتكون أول من يطّلع على . . .

دوريون :

— اغتفر مقاطعتى لك يا زينوتميس . لقد تبينت أول الأمر من الخرافة التى قصصتها علينا إحدى وقائع الصراع بين « پالاس أتينا [١] » والجبابرة . ولعمرى أن يهوه ليشبه جدّ الشبه « تيفون [٢] » ، والأثينيون يمثلون « پالاس » والى جانبها ثعبان . غير أن ما قلته الآن جعلنى أشك فجأة فى ذكاء الثعبان الذى تذكر ، وفى اخلاصه . فلو صحّ أنه أوتي الحكمة ، أفتَراه يودعها رأس أنثى صغير الحجم لا يقدر أن يسعها ؟ ! أوثر أن أعتقد أنه كان مثل يهوه جاهلاً كذاباً ، واختار حواء لأنها أسهل انخداعاً ، ولأنه توسم فى آدم ذكاءً وتبصرةً .

---

(١) Pallas Athéné هي الهة الحكمة عند الاغريق

(٢) الـه الشر والجدب والظلام عند قدماء المصريين

على روح هذا الدين ، فهو إذاً دين ملؤه الحقائق . وأرى الكتب المسيحية حافلة بآيات الوحى الالهى . على انى لا يمكننى يا بافنوس أن أسوى بينها وبين كتب اليهود التى لم تلهم ، كما يدّعى ، من روح الله بل من روح جنّ . فان « يهوه » (١) الذى أملاها هو أحد تلك الأرواح التى تعمّر الطبقات الجوية السفلى ، وتبعث بالجانب الأكبر من الأمراض التى تفتك بنا ، غير أنه يبزّها جميعاً فى الجهالة والقسوة ، على النقيض من ذلك الثعبان ذى الأجنحة الذهبية الذى لف طياته اللازوردية على شجرة المعرفة ، فقد كان مخلوقاً من النور والحب ، فلم يكن ثمة بدّ من المشادّة بين هاتين القوتين — هذه القوة المنيرة وتلك القوة المظلمة . وقد وقع ذلك النزاع بعد خلق الدنيا . إذ دبّر « يهوه » — لسوء حظ آدم وحواء ، وهما أول رجل وامرأة كانا يعيشان عاريين سعيدين فى جنة عدن — وسيلةً للسيطرة عليهما وعلى جميع ذريتهما . ولما لم يكن فى حوزته فرجار أو قيثارة ، وكان كذلك جاهلاً بالعلم الذى له السلطان ، وبالفن الذى يستميل القلوب ، فقد روع هذين الساذجين المسكينين بأشباح مخيفة ، وتهديدات تخيلية ، ورعود وبروق وصواعق . ولما أحسّ آدم وحواء بظلّه فوق رأسيهما ، التصق كل منهما بالآخر وضاعف الخوفُ حبّيهما . فأشفق الثعبان الحكيم عليهما ، ورأى أن يثقفهما بالعلم حتى لا تضللهما الخرافات والأكاذيب . وتطلّب هذا المسعى فطنة نادرة وحزماً فائقاً ، بيد أن الشيطان الكريم الصادق النية تلافى الأمر بحكمته . فاقترب منهما بغير علم يهوه — الذى كان يدعى

---

(١) — Iaveh — (Jehovah يَهْوه — الكائن الاسمى)

العجل ؟ وهل يسعك إلا الإعجاب بحيوان صغير كهذا أوتي مثل هذا الفضل العظيم ؟

* * *

وضع أربعة من الخدم فوق المائدة هِلّوفاً[1] مغطى بهُلْبه، وخنانيص مصنوعة من الفطير أحاطت بالحيوان كأنها تريد أن ترضعه ، اشارة إلى أنه أنثى .

فاتجه زينوتميس نحو الراهب قائلاً :

— قد جاءنا أيها الأصدقاء ضيف من تلقاء نفسه ! وأعنى به بافنوس العظيم الذى يحيا فى التنسك هذه الحياة الغريبة ، فهو ضيفنا غير المنتظر .

كوتا (Cotta) :

قلْ خيراً من هذا يا زينوتميس ، قل إن له صدر المكان لأنه قد أتى بغير دعوة .

زينوتميس (Zenothemis) :

يلزمنا أيضاً يا عزيزي لوسيوس ، مبالغةً فى إكرامه ، أن نتوخى ذكر ما يطيب له سماعهُ . وعلى ذلك ، فيقيناً أن رجلاً مثله أقل تأثراً بتوابل اللحوم منه بعطر الأفكار الجميلة . ولا ريب فى أننا نُدخل على نفسه السرور بتوجيه الحديث إلى عقيدة المسيح المصلوب التى يعتنقها . أما أنا فأقدم نفسى للحوار عن طيب خاطر . لأن هذه العقيدة تلذّ لي كثيراً لاختلاف رموزها وتباين كناياتها . واذا كان ما نقرؤه عنها يدل حقيقة

---

(١) الهِلّوف : الخنزير البريّ

ولسوف تتشبه حكمتى فى جميع الأمور بالحكمة الالهية ، فتأتى الصورة أثمن من الأصل ، لأنها تكلّف شيئاً كثيراً من العناية ، وكثيراً جداً من المجهود .

نسياس (Nicias) :

لعلي فاهم ما ترمى اليه . انك تضع نفسك فى مستوى العناية الإلهية . لكن إذا كانت الفضيلة تنحصر فى المجهود وحده يا يوكريت ، وفى ذلك الاجهاد الذى به يزعم تلاميذ « زينون » (١) انهم يجعلون ذواتهم أشباهاً للآلهة ، فالضفدعة التى تنتفخ لتصير ضخمة كالعجل تؤدى أكبر عمل من أعمال الرواقيين .

يوكريت (Eucritus) :

أراك تسخر يا نسياس ، وقد برعت كعادتك فى تهكمك . ولكن إذا كان العجل الذى ذكرته إلهاً حقيقيًّا كأبيس ، أو كالثور الذى تحت الأرض — الذى أرى هنا كاهنه الأكبر ، وإذا كانت الضفدع تُشَقَّف وتؤتَى الحكمة فتنجح فى مضارعته ، ألا تكون فى الحقيقة أفضل من

---

(١) Zénon هو الفيلسوف اليوناني المشهور ولد في سيتيوم بجزيرة قبرص وأسس المذهب الرواقي Stoïcisme الذي يرى في العقل الالهي المنظِّم الاعظم لجميع الكائنات. وان سعادة الانسان في العمل واجهاد النفس . وقد أسس مدرسته فى أثينا برواق باسيل. فأطلق عليه وعلى تلاميذه « الرواقيون » وكان على مذهب أبي العلاء ، طيب الله ثراه ، يرى انها : (تعب كلها الحياة) ، لذلك لما أحس بالشيخوخة تدب في جسده ، وضع حداً لحياته بالانتحار — ٢٩٣ ق . م (المترجم)

دوريون (Dorion) :

فلنحي باحترام ، فى شخص يوكريت ، آخر الرواقيين . انه وقور رزين ، يقوم فى وسطنا مكللاً بجلال المشيب ، كصورة الأسلاف ! تراه بين الجماهير منفرداً ، يفوه بعبارات غير مفهومة ،

يوكريت (Eucritus) :

هذه خطأ منك يا دوريون . ففلسفة الفضيلة لم تنعدم من هذا العالم . وان لى أتباعاً كثيرين فى الاسكندرية وروما والقسطنطينية ، سواء من العبيد الأرقاء أو أعضاء الأسرة القيصرية ، يعرفون الآن كيف يحكمون أنفسهم ويعيشون أحراراً . وهم بعدم اكتراثهم لشيء سعداء كل السعادة . كثيرون يحيا فيهم « ابيكتيتوس » و « ماركوس اوريلوس » [1] . لكن إذا صحّ أن الفضيلة قد انطفأت جذوتها من الأرض إلى الأبد ، ففى أى شيء تُعْني خسارتها هنائى ، ما دام بقاؤها وعدمها لا يتعلقان بى ؟ إن الحمق ، يا دوريون ، هم وحدهم الذين يقفون سعادتهم على ما تنقطع دونه أيديهم . انى لا أشتهى ما لا تشاؤه الآلهة ، وأشتهى كل ما يشاؤون . بهذا أصبحت مثلهم أشاركهم فى مسرتهم المحققة . فاذا ماتت الفضيلة رضيت بموتها ، وملأنى هذا الرضاء سروراً ، كالمجهود الأعلى لعقلى وشجاعتى .

---

(١) Marc-Aurèle عاهل الدولة الرومانية (١٦١ — ١٨٠ ق . .) وخير امبراطرتها . ورب من أرباب السيف والقلم . عُرف بحكمته الرواقية الخالصة واعتداله المشهور وأدبه الموفور . ضمّن كتابه الخالد « أفكار » زبدة آرائه السامية التى تُعد القواعد الادبية لفلسفة الرواقيين (المترجم)

فاشتدّ غضب دروسيه لهذه الكلمات ، وقالت :

ــ ان ما قلته يا نسياس حماقة لا تستحق الجواب ، ومن طبعك ألاّ تفهم ما يقال ، وأن تقول ما لا معنى له .

فابتسم نسياس ثانية وقال :

ــ تكلمى ، تكلمى يا عزيزتى دروسيه ، لا بأس بكل ما تقولين ، فعلينا أن نشكرك كلما فتحتِ فاكِ ، فما أبهى ثناياك !

✡ ✡ ✡

وعندئذ دخل البهو شيخ وقور ، مهمل اللباس ، متئـــد الخطى ، عالى الرأس ، ونفض المكان بنظره محدقاً فى الحاضرين بسكون . فأشار إليـــه كوتّا ليجلس بجانبه فوق أريكته قائلاً :

ــ أهلاً بك وسهلاً يا يوكريت ! هل من رسالة فلسفية جديدة كتبتها هـــذا الشهر ؟ ستكون ، إذا صح حسابى ، الثانية والتسعين التى خطّتها قصبتك النيلية بيدك الأثينية :

فأجاب يوكريت ، وهو يعبث بلحيته الفضية :

ــ أن الهزار خُلق ليشدو ، وخُلقتُ لأحمد الأرباب الخالدين[1] .

---

(١) (هذه الجملة من أقوال الفيلسوف الرواقى (Epictète) ابيكتيتوس (أى العبد الاسير) . الذى ولد في الجيل الاول للميلاد بمدينة هيرابوليس بمصر . وأتى روما فى عهد نيرون تابعاً لابافروديت (Epaphrodite) أحد رجال الطاغيـــة الرومانى ، فعُرف بهذا الاسم . وخلاصة آرائه احتقار المادة ، ونصرة الفضيلة ، وحب البشرية ، وتمجيد الله . وان العلم بغير العمل لا قيمة له ، وانه لا بد مما ليس منه بُد . وله فى ذلك كلمة مشهورة « احتمل وامتنع » . ومما يروى عنه ان سيده القاسى لوى يوماً ساقه في اداة تعذيب ، فقال له أبيكتيتوس بهدوء : « ستكسرها ! » فلما صدق حدسه وكسرت رجله ، سُرّ بأن ختم جملته بقوله : « ألم أقل لك ذلك ؟ » (المترجم)

فوصل هيرمودور ، كبير كهنة سراپيس ، حبل الحديث بقوله :

ــ سأل دوريون « ما الوطن ؟ » وجوابى على ذلك أن الوطن عبارة عن محاريب الآلهة ومقابر الأجداد . فالانسان مواطن سواه بالاتحاد معه فى الذكريات والأمانى .

فقاطعه الشاب اريستوپول قائلاً :

ــ بحق التوأم الأول[1] لقد رأيت اليوم لصاحبنا ديموفون جواداً كريماً، له فك ضئيل . وقائمتان بديعتان ، رافعاً رأسه الواجف، مزدهياً ازدهاء الديك!

فهزّ شيراس الفتى رأسه قائلاً :

ــ انه ليس بالجواد الكريم كما تدعى ، فله حوافر دقيقة ، وعراقيبه توشك أن تمس الأرض ، ولا يلبث أن يصاب بالعرج .

وكانا سيستمران فى حوارهما لولا أن صرخت دروسيه صرخة عالية :

ــ آي ! كدت أبتلع حسكة أطول وأحدّ من الخنجر . ولحسن الحظ أخرجتها من حنجرتى قبل فوات الوقت . ان الآلهة تحبنى !

فسألها نسياس مبتسماً :

ــ أتقولين يا عزيزتى دروسيه ان الأرباب بحبك هائمون ؟ إذاً فليساهموا الناس العلل ! لأن الحب يقضى بالشقاء الأبدى على من يصاب به ، وهو دليل على الضعف . فالحب الذى تشعر به الآلهة نحو دروسيه حجة دامغة على عدم بلوغهم حد الكمال .

---

(١) فى أساطير الاولين ان كاستر Castor هو ابن جوبيتير وليدا . والاخ التوأم لبولكس Pollux . وضرب المثل بعروتهما الوثقى التى لا انفصام لها . وهذان الاسمان يذكران عادة في معرض الوداد ، رمزاً للمحبة والقبول . (المترجم)

الأعين وما تخفى الصدور . وهو قادر على أن يختطف قلبيكما أثناء نومكما ويضع بدلاً منهما اسفنجتين ، حتى إذا شربتما ماء فى اليوم التالى تموتان اختناقاً !

ثم نظرت اليهما وقد شحب لونهما ، وطوت كشحاً عنهما ، وجلست بجانب بافنوس على أريكته .

ووقف كوتا هدر الحديث بصوته الذى فى نبراته رنة الأمارة ورقة الترحيب :

— إلزموا أماكنكم أيها الإخوان ! صبّوا النبيذ المعسول أيها العبيد !

ثم رفع رب البيت كأسه قائلاً :

— لنشرب أولاً نخب قنسطانس ، سليل الآلهة ورمز عبقرية الدولة ! يجب أن يُقدم الوطن على كل شىء ، حتى على الآلهة . لأنه يأويهم فى أرضه، ويضمهم فى كنفه أجمعين .

فرفع كل المدعوين كؤوسهم المترعة إلى شفاههم إلا بافنوس ، أبى واستكبر ، لأن قنسطانس كان يضطهد عقيدة أهل « نيسيه » ، ولأن وطن المسيحى ليس من هذا العالم .

فتمتم دوريون بعد أن شرب :

— ما الوطن ! انه نهر جارٍ . ضفافه تتبدل وأمواجه تتجدد على الدوام.

فأجاب قائد الأسطول :

— أعْرِفُ يا دوريون انك قلما ترعى جانب القوى الوطنية ، وانك تعتقد أنه يجب على الحكيم أن يعيش بنجوة عن الشئون العامة . أمّا أنا فأرى أن الرجل الشريف يجب ألا يتمنّى أكثر من أن يشغل منصباً سامياً مسؤولاً فى الدولة . فما أجمل الدولة وما أجلها !

ومما امتارت به تاييس أن كل ما عليها كان يتألّق بنور الحياة وروح الانسجام . . . فكان لثنيات ثوبها الأرجوانى المطرز بخيوط الذهب والفضة رونق عليه مسحة من الشَّجَن لا تبدلها الأساور والقلائد بهجة . وكان البهاء كله فى ذراعيها العاريتين .

فلم يسعهما إلا الإعجاب بثوب تاييس وزينتها ، وإن لم تشيرا إلى ذلك بكلمة.

قالت فيلنّا :

— يا لك من فتانة ! لم تستطيعى أن تكونى الآن أجمل منك عندما قدمت الاسكندرية ، لأن أمى التى رأتكِ حينذاك تقول أنه قلّ من النساء من تستحق أن تشبّه بكِ .

وسألتها دروسيه قائلة :

— مَن يكون إذاً ذلك العاشق الجديد الذى جئتنا به ؟ ان هيئته غريبة وحشية ، وإذا كان للفيلة رعاة فلا ريب أنهم يكونون على صورته . فأين وجدت ، يا تاييس ، هذا الصاحب الوحشى ؟ لعله من سكان الكهوف والمغاور الذين يعيشون تحت الأرض ملطّخين بدخان سَقَرَ ؟

فوضعت فيلنّا أصبعها على فم دروسيه ، وقالت :

— صه ! يجب أن تبقى أسرار الحب فى طى الكتمان ، لأن إذاعتها محرمة ! أما أنا فأفضل أن يقبلنى فم بركان إتنا المدخن على أن تقبلنى شفتا هذا الرجل ! لكن حبيبتنا تاييس الجميلة ، الجديرة بالعبادة كالآلهة ، عليها أن تتقبل كالهة دعاء جميع المتوسلين ، وليست مثلنا تأبى الغرام إلاّ على زين الشباب .

فقالت لهما تاييس :

— احذرا ! انه عرّاف ساحر ، يسمع الهمس الضعيف ، ويعلم خائنة

وزينوتميس ، والشاعر كاليكرات ، والفتيان شيراس وأريستوبول ، وهما إبنا رفيق من رفقاء شبابى الأعزاء . وبقربهما فيلنـّا ودروسيه ومن حقيهما أن يُعجب بهما كثيراً لفرط جمالهما . . .

فعانقَ نسياس بافنوس وهمس فى أذنه : —

— لقد أنذرتك يا أخى بما للزُّهَرَة من بأس شديد . أليس سلطانها العنيف اللـيِّن هو الذى قادك قسراً إلى هـــذا المكان ؟ اسمع ، انك رجل شديد التقى ، لكنك إذا لم تسلم بأنها أم الآلهة فهلاكك محتَّم . واعلم أن الشيخ « ملانت Melanthus » الرياضى كان يقول : « انى لم أسطع اثبات خواص المثلث بغير مساعدة الزُّهَرَة » .

وكان دوريون يطيل النظر إلى القادم الجـديد ، وما لبث أن صفق بيديه ، وصاح صيحة الدهشة :

— انه هو يا صحب ! نظـْرتهُ ، لحيته ، طيلسانه — هو بعينه ! لقيته فى الملعب وكانت تايبسنا تكشف عن ذراعيها البديعتين ، فاضطرب اضطراباً شديداً . وأشهد أنه تكلم بحدَّة وحمية . انهُ رجل شريف ، وسيكون نصيبنا منه اللعنات . فصاحته رائعة ، وإذا كان ماركوس هو أفلاطون المسيحيين ، فبافنوس ديموستينهم . ولعمرى أن أبيقور ، فى حديقته الصغيرة ، لم يطرق سمعه مثل ذلك قط .

وفى تلك الأثناء ، كانت فيلنا ودروسيه تكادان تفترسان بأعينهما تايبس وقد وضعت فوق شعرها الأشقر تاجاً من البنفسج الذابل ، كل زهرة منه تمثل لون حدقتيها حائلاً ، حتى لاح الزهر كأنه نظرات زائغة ، وبدت وبدت عيناها كزهرتين متألقتين . . .

— سلام على المشتهاة كل الاشتهاء !

— سلام على لؤلؤة « راكوتيس » !

— سلام على وردة الاسكندرية !

فانتظرت تاييس بفروغ صبر همود عاصفة التهليل والثناء ، ثم قالت لمضيفها « كوتا » .

— لقد جئتك يالوسيوس براهب من الصحراء ، بافنوس ، كبير كهنة أنصينا : وهو رجل قديس ، كلماته تحرق كالنار . . .

فنهض « لوسيوس اوريلوس كوتا » . قائد الأسطول ، قائلاً :

— مرحباً بك يا بافنوس ، يا من يؤمن بالعقيدة المسيحية . انى أجل بعض الاجلال ديناً أصبح الآن امبراطورياً . فقد أحل قسطنطين العظيم إخوانك فى الدين المحل الأول بين أصدقاء الدولة . وحقاً أنه قد آن للحكمة اللاتينية أن تسمح بدخول مسيحكم معبد أربابنا (١) ومما يؤثر عن آبائنا قولهم : أن فى كل رب شيئاً من الألوهية . لكن لندع هذا جانباً ، ولنشرب ، ونطرب ، ونروح القلب باللذات ، فالوقتُ سمحٌ والزمان مُؤاتٍ .

قال هذا وهو منشرح الصدر ، إذ كان قد فرغ من اختراع سفينة جديدة . وأتم الجزء السادس من تاريخ كان يكتبه عن قرطاجته . ولو ثوقه بأنه لم يضع يومه سدًى ، كان راضياً عن نفسه وعن الآلهة .

ثم قال :

— تَرى هنا يا بافنوس رجالاً كثيرين جديرين بالمحبة والاحترام : هيرمودوو كاهن سراپيس الأعظم ، والفلاسفة دوريون ، ونسياس ،

---

(١) البانثيون Panthéon

المأدبة

لما دخلت تاييس قاعة المأدبة ، ووراءها بافنوس ، كان أكثر المدعوين قد اجتمعوا متكئين على الأرائك أمام مائدة على شكل حدوة الفرس فوقها كثير من الأوانى اللامعة . وكان فى وسطها حوض من الفضة ، تعلوه أربعة تماثيل منحية بِقرَبٍ يتدفق منها مرقٌ على سمك مسلوق يسبح فيه . . .

فلما أقبلت تاييس ، علا الهتاف لها من جميع الأرجاء :

— سلام هلى ربة الحسن والبهاء !

— سلام على عروس التمثيل الصامت ، التى تعبّر نظراتُها عن جميع الأشياء !

— سلام على محبوبة الآلهة والناس بلا استثناء !

فقالت ، وهي تحاول أن تبتسم ؛

— ليس البكاء من حسن الرأى ؛ فالدموع تحمر منها العيون ، ولونها يفسد بها . وإذ أننى مزمعة أن أتعشى الليلة مع بعض الأصدقاء ، أروم أن أكون فتّانة ، لأنه سوف يكون هناك نساء جميلات ، فلا أريد أن يلحظن آثار الضعف على محياى . وهاتان الجاريتان جاءتا لإلباسى ، فتنحّ قليلاً يا أبى واتركهما يفعلان ذلك ، انهما ماهرتان محنكتان وقد اشتريتهما بثمن غالٍ . انظر إلى إحداهما ذات الخواتم الذهبية الكبيرة والأسنان الجميلة ، انى غنمتها من امرأة الحاكم .

ففكر بافنوس بادىء الرأي فى رد تاييس بكل قواه عن الذهاب إلى هذا العشاء . على أنه آثر أخيراً أن يتصرف بفطنة فسألها عمن ستلقاه هناك .

فأجابت أنها سترى صاحب الوليمة ، الشيخ كوتّا مدير العمارة البحرية ، ونسياس ، وكثيرين غيرهما من الفلاسفة والمولعين بالحوار ، والشاعر كاليكرات ، وكاهن سيرابيس الأعلى ، وبعض الشبان الأغنياء من هواة تربية الخيل ، ونساء لا يمكن ذكر شىء عنهن ، فلا فضل لهن غير الشباب ونضارته .

قال الراهب بالهام سماوى :

— اذهبى اليهم يا تاييس ! اذهبى ، بيد أنى لن أتركك . . . سأذهب معك إلى هذه المأدبة وأبقى بجانبك ملازماً الصمت والسكون .

فضحكت تاييس ، وصاحت والجاريتان تلبسانها حليها :

— تُرى . . ماذا عسى أن يقولوا عندما يرون لي عاشقاً من رهبان طيبة ؟

نفسه . انه يتكلم من دونى قائلاً لك : بحثتُ عنك طويلاً يا شاتى الشاردة وها قد وجدتك ! فلا تشردى منى بعد الآن . هاتِ يديك أيتها البغية المسكينة ، ودعينى أحملك فوق كتفى إلى حظيرة السموات . تعالي يا تاييس تعالي يا صفيتى ! تعالي وادرفى الدموع معى » .

وسقط بافنوس على ركبتيه وعيناه تنفثان ذهول الانجذاب . . .

ولما رأت تاييس على وجهه صورة يسوع الحىّ ، قالت فى زفراتها :

— واهاً لأيام طفولتى الماضية ! واهاً لأبى الروحى أحمس ! أيها القديس الصالح تيودور ، لماذا لم أمت فى دثارك الأبيض عندما كنت تحملنى فى مطلع الفجر نديَّةً بماء المعمودية ؟

فوثب بافنوس نحوها صائحاً :

— أنتِ عُمِّدْتِ ! . . . يا للحكمة الربانية ! يا للعناية الآلهية ! الآن عرفت القوة التى اجتذبتنى نحوك . الآن عرفت ما صيَّرك هكذا عزيزة علىَّ جميلة فى عينىّ ! فالفضل كل الفضل لماء التعميد الذى جعلنى أترك ظل الله حيث كنت أسكن ، لأبحث عنك فى جوّ العالم المسموم . لا ريب أن قطرةً قطرةً من الماء الذى غسل جسدك ، قد سقطت على جبينى . فتعالي يا أختاه وتقبلى من أخيك الروحى قبلة السلام !

ولثم الراهبُ جبين البغىّ . . .

ثم سكت وترك حبل القول لله . . ولم يكن يُسمع فى كهف العذارى سوى زفرات تاييس ممزوجة بخرير المياه الجارية .

بكت ، ولم تكفكف عبراتها ، ولا حبست انهمارها ، فى حين دخلت جاريتان سوداوان محملتان بالثياب والعطور وتيجان الزهور .

وفى أثناء كلامها تغيرت ملامح بافنوس وأضاء وجهه بفرح سماوى ، فقال :

— اسمعى ! انى ما دخلت إلى مسكنك وحدى ، بل صحبنى آخر . وهو واقف هنا بجانبى ، لا تستطيعين أنت رؤيته ، لأن عينيك لا تستأهلان بعد مشاهدته ، ولكنك لا تلبثين أن تريه بجلاله وجماله ، وتقولين : « هو الجدير بالحب وحده ! » ولو لم يكن قد وضع الآن يده الناعمة فوق عينى ، ياتاييس ، فلربما كنت اقترفت معك خطيئة ، لأننى أنا نفسى مثال الضعف والوهن . لكنه أنقذنا معاً . انه صالح كما هو قدير واسمه « المخلّص » . وقد بشّر الدنيا به داود والأنبياء . وسجد له الرعاة والمجوس ، وهو لا يزال فى المهد صبياً . وقد صلبه الفريسيون ، ودفنته القديسات ، وأظهره الحواريون للعالم ، وشهدت به الشهداء . وهو الذى لما علم بأنك تخشين الردى ، أتى بى إلى بيتك ليدفع عنك غائلة الردى ! أليس كذلك يا يسوع؟ أو لستَ تظهر لي فى هذه اللحظة كما ظهرت لأهل الجليل فى تلك الأيام العجيبة ، عندما هَوتْ معك النجوم من السموات ، وصارت قريبة من الأرض بحيث تناولها الأطفال القديسون بأيديهم وهم يلعبون فى أحضان أمهاتهم فوق سطوح بيت لحم ؟ ألسنا يا يسوع فى حضرتك ، وانك تظهر لنا حقيقة ناسوتك المقدس ؟ أليس ذاك وجهك ؟ أو ليست العَبْرة التى تنحدر فوق خدك هي عبرة صادقة ؟ أجل ! ان ملك العدل الأزلي سوف يتلقاها فتكون فدية لروح تاييس . ألستَ هنا يا يسوع ؟ ان شفتيك المستحقتين للعبادة مفتوحتان . انك تستطيع الكلام . تكلم ، فكلى آذان صاغية . وأنتِ يا تاييس ، يا تاييس السعيدة ؟ اصغى لما يقوله لك المخلّص

ORIENTAL CAIRO INSTITUTE

غداً ، تعالي اليه ! تعالي يا من بَحَثَتْ وَفَتَّشَتْ وستقول : « ها أنذا قد وجدت الحب الحقيقي ! » .

وكان يلوح على تاييس أنها تتفرس فى أشياء بعيدة ، فسألته :

— أصحيح أيها الراهب اننى إذا نبذت المسرات وتبتُ ، أُولَدُ ثانية فى السماء سليمة الجسم موفورة الجمال ؟

— تاييس ، اننى أحمل اليك الحياة الخالدة ، فثقى بى ، لأن ما أبشرك به هو الحق . . .

— ومن يضمن لي أنه الحق ؟

— داود ، والأنبياء ، والكتب المقدسة ، والمعجزات التى سوف تشهدين . . .

— أراني أميل إلى تصديقك ، أيها الراهب . لأنى أسلِّم بكونى لم أجد فى هذه الدنيا هناءً . كان نصيبى أعظم من نصيب ملكة ، ومع ذلك فقد صبَّت الحياة على رأسى صنوف الآلام والمتاعب ، وها أنذا قد عييت كثيراً وضقت ذرعاً بوجودى . كل النساء يحسدننى ، مع اننى طالما حسدت المرأة العجوز الدرداء التي كانت ، وأنا صغيرة ، تبيعنى أقراص الشهد تحت إحدى بوابات المدينة . وقد خطر لى غير مرة أن الفقراء هم وحدهم الصالحون السعداء المباركون ، وأن فى هذه الحياة الوضيعة الوديعة تعزية وسلوى . فيا أيها الراهب ، لقد هجتَ أمواج حياتى ، وطفوت إلى السطح بتلك التى رسبت فى القاع . . . تُرى من أكون أنا لأؤمن ؟ وا أسفاه ! .. وما عساى أن أكون ؟ وما هي الحياة ؟ .

فلأظهرنَّ إذاً لك كغصن منتزع من تلك العلّيقة المشتعلة التى أراها الله لنبيِّه موسى القديم فى البرية ، ليعلمه الحب الصادق ، الحب الذى يشعلنا دون أن يبلينا ، فلا يترك جمراً ورماداً ، إنما بلسماً وعطراً يضمخان كل ما يتخلله إلى آخر الدهر .

— انى أصدقك ، أيها الراهب ، ولست أخشى بعد خدعة منك أو مضرَّة . لقد طالما سمعت أخبار نسَّاك طيبة ، والحكايات التى بلغتنى عن حياة أنطوان وبولس غريبة . ولم يكن اسمك خافياً علىَّ ، ولقد خبرونى انك ، على حداثة سنك ، تضارع فى الفضل أكبر الزاهدين . ومع انى لا أعرف حقيقة أمرك ، أشعر بأنك لست رجلاً عادياً . ألا فخبرني ، أتستطيع أن تعمل لى ما عجز عن عمله كهنة إزيس وهرمس وپولو والسحرة الكلدانيون جميعاً ، وما لم يستطعه العرافون البابليون ؟ أيها الراهب . إذا كنت تحبنى ، فهل تستطيع أن تحول بينى وبين الموت ؟

— أيتها المرأة ، ان من يرغب فى الحياة يحىَ . فاعرضى عن الملذات السافلة التى تهلكين بها أبداً . انتزعى جسدك الذى فطره الله من رضابه ونفخ فيه من روحه ، إنتشليه من أيدى الشياطين الذين يوشكون أن يحرقوه إحراقاً . تعالى أيتها التى أضناها التعب ورِدِى موارد الزهد المباركة . تعالى انهلى من تلك العيون المخبوءة فى الصحراء التى تنفجر من السماء ! أيتها النفس القلقة المتلهفة ، تعالى تنلى ما تشتهين ! أيها القلب الشره الطامح إلى الجذل ، عليك أن تجذل حقيقة بتذوّق طعم الفقر والعزلة ، وانكار الذات وتركها فى حضن الله . يا عدوة المسيح الآن ، ويا حبيبته

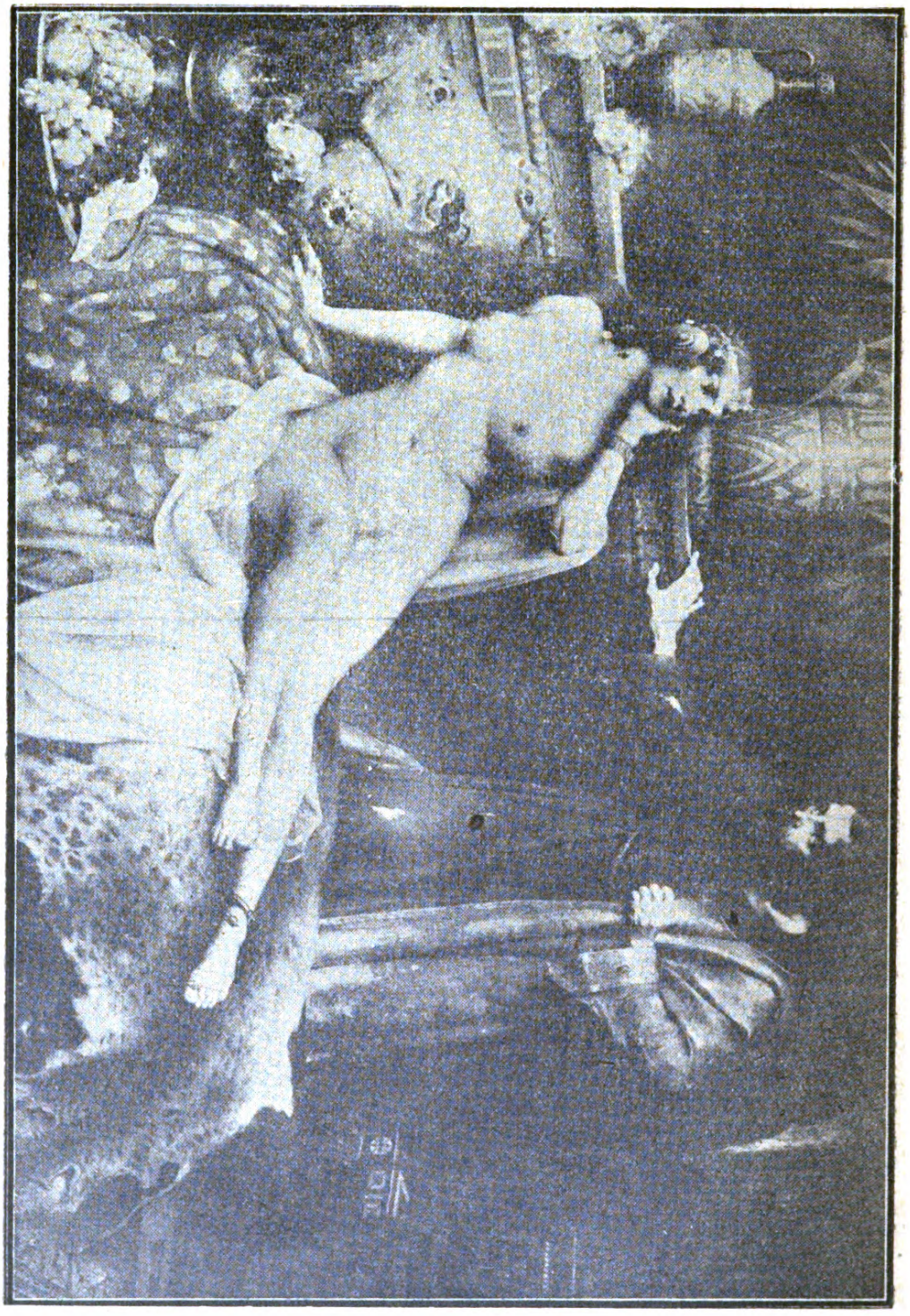

— لا تؤذنى ! ما الذى جاء بك ؟ ماذا تبغى منى ؟ لا تؤذنى ؟ أنا أعرف أن أولياء الصحراء يمقتون النساء اللواتى خُلقن على شاكلتى متعة للرجال . اننى أخشى أن تمقتنى ، وأن تكون راغباً فى إيذائى . فاغربْ عنى ! أنا لا يخامرنى شك فى مقدرتك . لكن اعلم يا بافنوس انه ليس لك أن تحتقرنى أو تمقتنى . فما سخرت قط من فقرك الاختيارى ، كما فعل كثير من الرجال . فعليك بدورك ألا تجعل ثرائى جرماً . اننى حسناء ، وممثلة حاذقة ، مُسيَّرة لا مُخيَّرة فيما أنا عليه ، وقد خُلقت لما أنا فيه . ووُلدت لأفتن الرجال . وأنت نفسك قلت الآن أنك أحببتنى ، فلا تستخدم علمك فى البطش بى ، ولا تفه بكلمات السحر التى تتلف جمالى أو تبدلنى عَموداً من الملح . لا ترعبنى ! فاننى خائفة جدَّ الخوف . لا تجرِّعنى كأس المنون ، فلشدَّ ما أخاف الموت !

فأشار اليها أن تنهض ، وقال :

— هدِّئى روعك يا بنيتى ، فلن أسومك المذلة . انى أتيتك من قِبَل ذلك الذى جلس فوق حافة البئر ، وشرب من ابريق المرأة السامرية المقدم اليه (١) ، وهو الذى عندما تعشى فى بيت سيمون ، ضمختــه مريم بالعطور ، لست بلا خطيئة لأرميك بأول حجر ، فقد طالما أسأت استعمال ما لا يحصى من نعم الله التى أسبغها علىَّ . ليس ثمة غضب ، وإنما هى الرحمة بك أخذتْ بيدى وجاءت بى إلى هنا . والحق أقول ، إنى كنتُ قادراً على التقرب منك بكلمات الحب والهيام ، إنما حرارة إيمانى هى التى قادتنى اليك . انني أشتعل بنار الإحسان ، وإذا كانت عيناك اللتان لم تتعوَّدا النظر إلا إلى نقائص البدن وعوراته تستطيعان أن تنظرا إلى الأشياء بحقيقتها الروحانيــة ،

---

(١) يقصد به السيد المسيح

فعاد لا يرى أمامه سوى سحابة كثيفة ، فظن أن يد يسوع قد ألقيت على عينيه لتحجب منظر المرأة عنه ، فاطمأن لهذا العون وتشددت عزيمته ، وقال بوقار يليق بشيخ الصحراء :

ـــ أفتظنين أنك إذا وهبت نفسك لى تخفى على الله ؟

فهزت رأسها قائلة :

ـــ الله ! . . . ومن ذا الذى يُكرهه دائماً على مراقبة كهف العذارى ؟ فلينصرف عنا إذا كنا نسوءه ! ولكن كيف نسوءه ؟ أما وقد خلقنا ، فليس له أن يستاء أو يُدهش إذا رآنا ، كما برأنا وصوَّرنا ، نفعل ونتأثر بحسب الطبيعة التى أوجدها فينا . لقد قيل عنه الشىء الكثير ، وعُزى اليه ما ليس بصحيح على الاطلاق ، فهو منه بُرائ . وأنت أيها الأجنبى ، ألك معرفة أكيدة بحقيقة أمره وجوهريته ؟ ثم من تكون أنت حتى تخاطبنى باسمه !

وعند هذا السؤال فتح الراهب قليلاً حليته المستعارة ، وأبان عن ثوبه الوبرى ، وقال :

ـــ أنا بافنوس ، كاهن أنصينا الأكبر ، جئت من الصحراء المقدسة . واليد التى أبعدت ابراهيم عن بلاد الكلدانيين ، ولوط عن سادوم ، هى التى فرقت بينى وبين العالم . لقد احتجبت عن الناس ، لكن رسمك ظهر لى فى مقدسى الرملى ، فعرفت أن نفسك مفعمة بالفساد ، وإنْ كان فيك المنون . وهأنذا أمامك أيتها المرأة وكأننى أمام جدث . وانى أصيح بك : «انهضى ياتاييس!»

ولما سمعت اسم بافنوس ، وكلمتى راهب ، وكاهن أكبر ، امتقع لونها رعباً وزحفت متشابكة اليدين ، شعثاء الشعر ، إلى قدمىّ القديس وهى تنوح ، وتتأوه قائلة :

أيتها المرأة ، فى بلاد مختلفة ، فلا عجب ان تباينت آراؤنا واختلفت لهجاتنا . ومع ذلك فأشهد السماء على أن مرامى الاتفاق معك . وقصدى ألا أغادرك قبلما تتوحد مشاعرنا . من ذا الذى يوحى إلىّ بكلمات مشتعلة تجعلك تذوبين أيتها المرأة ، كالشمع تحت حرارة أنفاسى ، وتجعل يد إرادتى تكوّنك كما تشاء ؟ أية قوّة تسلمك إلىّ يا ريحانة النفوس لتفطرك ثانية الرُّوح التى تحيينى كى تسمك بجمال جديد ، فتصيحين ، وأنت من الفرح تبكين ، «اليوم وحده يوم مولدى ! » . من ذا الذى يجعل « جرن معمودية القدس » ينبوعاً يتفجّر من صدرى حيث تجدين فيه بعد الطهر نقاءك الأول ؟ من ذا الذى يحولنى « أردناً[1] » تغمرك مياهه فتمنحك الحياة الخالدة ؟

فهدأت ثائرة تايبس وقالت فى نفسها :

— هذا الرجل يتكلم عن خلود الحياة ، وكأن كل ما يفوه به مكتوب فوق طِلَسْم ، فلا شك أنه ساحر ، ولديه أسرار مقاومة الشيخوخة والموت .

فاعتزمت أن تهب نفسها له ، ولهذا تظاهرت بالخوف منه ، وخطت إلى الوراء مرتدة إلى آخر كهف العذارى ، وجلست فوق حافة الفراش وقدماها الحافيتان تهتزان فى رفق ولين ، ورفعت قميصها بلباقة ، ثم لبثت ساكنة . ساكتة ، لا تبدى حراكاً . . تنتظر . . بعيون سبلاء

وقد ألقت أهدابها الطويلة على الخدين ظلاً خفيفاً وكان مظهرها ينمّ عن حياءٍ وخَفَر ، فشابهت بنتاً تحلم وهى متّكئة عند حافة غدير .

نظر اليها بافنوس ولم يتحرك ، ولم تعد ركبتاه المرتجفتان تقويان على حمله ، وجفّ لسانه فى فمه ، واعترى دماغه دوىّ هائل ، وأغشى على بصره ،

---

(١) نهر الاردن المعروف في فلسطين

— تابيس لا تسخرى . اننى أحمل اليك الحب المجهول .

— لقد أتيتنى يا صاحبى متأخراً ، فأنا بكل أنواع الغرام عليمة .

— الحب الذى آتيك به ملؤه المجد ، وكل حب آخر عرفته لا يتمخض إلا بالعـار !

فنظرت اليه تابيس بعين جامدة ، وغشى جبينها الجميل عبوسة وتقطيب، وقالت :

— إنك أيها الأجنبى جرىء للغـاية ، لتحديك ربة الدار . انظر إلىّ وقل لى بربك هل أبدو كمخلوقة يغمرها الرجس ويطوّقها العار ؟ كلا ! لست خجلة مستنكفة ، لا أنا ولا كل اللواتى يعشن معيشتى ، ولو أنهنّ قد يكنّ دوني جمالاً ومالاً . لقد بذرت المسرّة فى كل خطوة خطوتها ، فذاع صيتى فى العالم من أقصاه إلى أقصاه . فأصبحت أقوى سادة الدنيا ، الذين رأيتهم عند موطىء قدمىّ صاغرين . انظر إلىّ ! انظر إلى هاتين القدمين الصغيرتين، واعلم أنه يوجد ألوف من الرجال يشترون بأرواحهم نعمـــة تقبيلهما . ويبذلون دماءهم ليحظوا بهذه اللذة . نعم . لست رفيعـــة العماد أو أشغل حيّزاً كبيراً من فراغ هذه الدنيا ، واننى أبدو كحبة أرز لأولئك الذين ينظرون إلىّ من قمة السرابيوم عندما أمرّ فى الطريق . غير أن حبة الأرز هذه قد سببت للناس أحزاناً وآلاماً ويأساً وبغضاً وجرائم تكفى لتملأ أودية التر(١) . وبعد ، ألستَ مجنوناً أيها الرجل إذ تذكر العار مع أن كل ما يحيط بى يهتف بالمجد ؟

— ان ما هو مجيد فى عيون الرجال مرذول عند الله . لقد نشأنا كلانا ،

---

(١) Tartarus الجحيم عند اليونانيين الاقدمين

المكتظة بالحشرات والهوام والخفافيش . لأجلك وطئتُ الأفاعى والعقارب حافياً ! أجل ، إنى أحبك ! أحبك لا كهؤلاء الرجال الذين تضرم الشهوات أبدانهم فيتسابقون اليك كالذئاب الخاطفة أو الثيران الهائجة ، لذلك أنت عزيزة عليهم معزّة الظبية على الأسد ، فيلتهم حبهم الشهوانى روحك وجسدك أيتها المرأة . أما أنا فأحبك بالروح والحق . حبك فى الله وإلى أبد الآبدين ، والشعور الذى يكنّه صدرى لك هو غيرة حقّة وعطف ربانى . اننى أعدك ما هو أزكى من عطر الزهر ، وألذّ من أحلام ليل قصير . أعدك المآدب المقدسة والأفراح السماوية ، والنعيم الذى آتيك به مقيم لا يزول ، نادر لم يُسمعُ به ، رائع لا يوصف . . . وإذا قدّر للسعداء فى هذه الدنيا أن يروا لمحة واحدة من مثله ، فانهم يموتون فى الحال من شدة الذهول ! !

فضحكت تاييس ضحكة المتهكم المرتاب ، وقالت بخباثة :

— علىّ يا صاحبى بهذا الحب العجيب ! عجّل ! فانى أعدّ إسهابك فى القول مهانة لمحاسنى . فلنبادر إلى انتهاز الفرص ولا نضع لحظة واحدة ! اننى لا أطيق الصبر على معرفة السعادة التى تبشرنى بها . ولكننى أصارحك القول اني أخشى أن أظلّ جاهلة بها ، وأن تنتهى وعودك كلها لى فى كلمات فقط . فالوعد بالسعادة ، أسهل بكثير من منح السعادة . كلٌّ له موهبة ، وأظن موهبتك الخطابة والكلام . انك تقول بحب مجهول . ليت شعرى ، لقد مضى دهر طويل على تبادل القُبل بحيث يكون من عجائب الزمن بقاء أسرار حب لم يمط عنها اللثام ، والعاشقون يعرفون أكثر من السحرة فى هذا الباب . . .

وغرامك وأهوائك من أساطير الأولين ، تعيد إلى الذهن ذكرى « رودوبيس » القديمة التى يحفظ ملاحو النيل تاريخها العجيب عن ظهر قلوبهم . فاستولت علىَّ الرغبة فى معرفتك . ولعمرى أنى أرى الخُبر يفوق الخَبر ! إنك أعلم وأجمل الف مرة ممَّا ذاع عن علمك وجمالك . والآن إذْ أراكِ أقول لنفسى : « يستحيل على المرء الاقتراب منهـا إلا ويترنح ترنح السكارى » .

كانت هذه الكلمات ملفقة ، لكن الراهب فاه بها بحرارة صادقة تحمساً للدين . فنظرت تاييس بغير استياء إلى هذا المخلوق الغريب الذى أخافها وأدهشها بمنظره القبيح الوحشى ، ونظراته الكئيبة النارية ، فودت معرفة شأن هذا الرجل الذى يختلف كل الاختلاف عمن عرفتهم أجمعين .

فأجابت بسخرية رقيقة :

— يلوح لى أيها الأجنبى أنك سريع الإعجاب بالناس . فحذار أن تشغفك نظراتى فتبلى جسدك وتوهن العظم منك ! حذار من حبى !

فقال لها :

— إننى أحبك يا تاييس ! أحبك أكثر من حياتى ، وأحبك أكثر من نفسى . لأجلك غادرت صحرائى على أسف . لأجلك نطق لسانى بكلمات دنيويَّة ، وكان قد نذر الصمت . لأجلك رأيت ما لا يصح أن أراه ، وسمعت ما حرّم علىَّ سماعه . لأجلك تبلبلت روحى ، وفتح قلبى ، وتفجرت منه العواطف والخواطر كعيون الماء الجارية التى يشرب منها الحمام . لأجلك واصلت الليل بالنهار سارياً سائراً فى مفاوز الصحارى الرملية

تاييس تماشاجی مرآتها

لاحظت فى مرآتها العلامات الأولى لتضاؤل جمالها وذبول حسنها ، فهالها التفكير فى أنه سيحين أخيراً حين الشعر الأبيض والغضون والتجعدات ، وعبثاً حاولت أن تسكن روعها وتؤمن خيفتها بقولها لنفسها ، قول الواثق المستيقن ، ان احراق أعشاب معينة . والنطق بتمائم سحرية معلومة تكفى لإعادة نضارتها الأولى . . .

وإذا بصوت ، لا أثر للرحمة فيه ، يهيب بها : « ستبلغين يا تاييس من الكبر عتيًّا ! ستشيخين تاييس ويدركك الهرَمْ ! » فجمد العرق البارد على جبينها من الجزع ، وطالعت وجهها ثانية فى المرآة برقة بالغة ، فألفت نفسها لا تزال جميلة فتَّانة ، جديرة بأن تُعشق وتُشتهى ، فابتسمت لصورتها وتمتمت : « ليس فى الاسكندرية كلها امرأة واحدة يضارع قوامها قوامى اللَّدْن ، ولا من تماثلنى فى رشاقة الحركات ، وبهاء الأذرع ، والأذرع ، أيا مرآتى ، هى سلاسل الحب الحقيقية ! » .

وإذ كانت تفكر فى ذلك رأت رجلاً مجهولاً ، نحيلاً ، مشتعل العينين ، منتفش اللحية ، مرتدياً ثوباً مزركشاً ثميناً ، واقفاً أمامها ؛ فأفلتت مرآتها من يدها ، وصرخت مذعورة .

وقف بافنوس جامداً ، ولما رأى مبلغ جمالها ، قدّم من أعماق قلبه هذه الضراعة :

— اللهم لا تجعل وجه هذه المرأة سبباً فى غوايتى ، بل سبباً لهدايتى !

ثم أرغم نفسه على الكلام ، وقال : —

— تاييس ! اننى من سكان أرض سحيقة نائية ، وقد قادنى اليك صيت جمالك . قيل أنك أبرع الممثلات وأقدر النساء ، وكأن قصص ثرائك

فى المغاور المقدسة ، التيجان وأكاليل الزهر والصور المنذورة التى ظهر فيها جمال تاييس وذاع صيته . وكانت هناك أيضاً براقع للمأساة وأخرى للمهزلة ذات ألوان زاهية . وصور تمثل مشاهد مسرحية وأشكالاً هزلية أو حيوانات خرافية . وفى وسط الكهف نُصب فوق عمود قصير تمثال صغير لإلـه الحب (ايروس) مصنوع من العاج صنعاً قديماً دقيقاً عجيباً ، وكان هدية من نسياس . وثمّ عنزة من المرمر الأسود واقعـة فى حفرة ، يظهر منها بريق عينيها العقيقيتين ، وقد التفت حول ضرعيها ستة جداءٍ من المرمر الأبيض ، وقد همّـت العنزة بأظلافها ورفعت رأسها الـفلـطاح كأنما كلّـت وفرغ صبرُها من رضاع صغارها . وكأنها تود لو يتاح لها تسلق الصخور.

وكانت الأرض مفروشـــة ببساط بيزنطى ، ووسائد مطرزة بأيدى الصُـفْـر من أهل كاتاى ، وجلود أسود صحراء ليبيا . وكان البخور يتصاعد من المباخر الذهبية . وهنا وهناك أُصُـص من الجزْع فيها نبـات مزهر ، ووراء ذلك كله ، فى الظل الأرجوانى ، تلمع مَـسامير ذهبية مثبَّـتة فى ذَبْـل (عظم ظهر السلحفاة) سُـلحفاة هندية هائلة مقلوبة على ظهرها تُـستخدم كسرير للمثلة .

فى هذا المكان ، فى كل يوم ، بين خرير الماء ، وشـذا الزهور ، وعبير العطور ، كانت تاييس تضطجع برخاوة واستسلام ، فى انتظار ساعة العشاء ، تتحدث إلى أصحابها ، أو تفـكر وحدها فى شؤون المسرح ، أو فى كرّ الغداة ومرّ العشى .

* * *

فى ذلك اليوم بينما كانت جالسة بعد التمثيل فى « كنف العذارى » ،

تلك اللحظة أن تقتفى خطوات القديس تيودور وتعيش عيشة المتربة والمسكنة.

وفى اليوم التالى عادت الى الملاهى التى كانت قد أعدّتها . وإذ عرفت أن جمالها الذى كان لا يزال ساحراً لن يبقى طويلاً . سارعت إلى التمتع به بكل ما يمكن من الابتهاج والاعتزاز . وأظهرت فى الملعب عناية لم تظهرها من قبل . فأحيت بتمثيلها تخيلات الحفارين والمصورين والشعراء . وأخذ العلماء والفلاسفة من شكل الممثلة وهيئتها وحركاتها وتخطّرها النظام السماوى الذى يسيّر الأفلاك ، فأدرجوا هذا الكمال المطلق فى عداد الفضائل ، وقالوا « تايس أيضاً مهندسة ! » . وباركها الجهلاء والفقراء والأذلاء لقبولها الظهور أمامهم ، وعدّوه نعمة من السماء . لكنها مع هذا الإعجاب والثناء كانت حزينة ، شديدة الجزع من الموت ، ولم يك ثمة مايستطيع أن يدفع عنها همها وبلبالها ، ولا وجدت عزاءً فى بيتها وجنّاتها التى كانت من الشهرة بحيث تُضرب الأمثال بها فى المدينة .

غرست فى حدائقها الأشجار الغالية التى جلبتها بنفقات باهظة من الهند وبلاد الفرس ، يرويها جدول متفجر وسط صف من الأعمدة المتهدمة والصخور الهائلة المشيدة بيد بنّاء ماهر ، تنعكس فى بحيرة ترتسم على مرآتها المجلوة التماثيل التي حولها . وفى وسط الحديقة يقوم « كهف العذارى » الذى يُعزى اسمه إلى تماثيل ثلاث من النساء مصنوعة من الرخام الملوّن بمهارة وتفنن ، واقفات عند مدخله . وهؤلاء النسوة كنّ قد نضون ثيابهن ليغتسلن ، والتفتن قلقات خشية أن يراهن أحد ، وعليهن علامات الحياء . وكان الضوء لا ينفذ إلى هذا الخِدر إلاّ من خلال طبقات المياه الرائقة التى تغفه وتلونه بألوان قزحية . وعلى جوانب الحيطان علقت ، كما تعلّق

— أجل ! لما وقع تحت ناظرىّ هذا السطر : « يجب ألاّ يحول شىء بينك وبين تهذيب نفسك » قرأت : « قبلات تايبس أحر من اللهيب وأحلى من الشهد » وهذه هى — والذنب ذنبك أيتها الفتاة اللعوب — الطريقة التى أصبح بها الفيلسوف يفهم كتب الفلسفة ! ولا ريب اننا ، ما دمنا كما نحن ، لن نجد فى خواطر غيرنا إلا خواطرنا بعينها ، بل إذا قرأنا كتاباً فنحن نكاد نقرأه كما قرأت هذا الكتاب . . .

لم تكن مُصغية اليه ، لأن ذهنها كان منصرفاً إلى قبر النوبى ، فلما سمعها تتنهد أخذ يقبّل منابت الشعر من عنقها ، وهو يقول :

— قرّى عيناً ولا تحزنى يا بنيتى ! لا يستطيع المرء أن يكون سعيداً فى هذه الدنيا إلا إذا نسيها أو تناساها ؛ ولدينا سرّ ذلك ، فتعالى نخدع الحيـــاة ! إنها أهل لأن يُمكر بها لأنها تكيل لنا الصاع صاعين . هلمى نتبادل الحب !

فدفعته عنها وصاحت بمرارة :

— نتبادل الحب ! انك لم تحب قط إنساناً — أنت ! ولا أنا أحبك ! كلا ! لا أحبك ! اننى أبغضك . اننى ألعن السعداء الأغنياء كافةً وأحتقرهم ! إليك عنى ! فلا فضيلة فى الدنيا ولا محبة إلا لدى المساكين . لما كنتُ طفلة عرفت عبداً أسود مات مصلوباً . كان طيباً ، كان يفيض محبة . وقد حظى بسر الحيـاة . انك لا تستأهل أن تغسل قدميـه . إذهب عنى ! فانى لا أريد أن أراك بعد الآن . . .

ثم انبطحت على البساط وقضت ليلتها فى أنين ونحيب ، وصممت من

نهضت ببطء ، واتجهت إلى قبر القديس الذى شُغف بعينيها البنفسجيتين ، العينين اللتين تلألأت فيهما الدموع فى نور الشموع ، ووقفت مطرقة فى مؤخرة الجماعة ، خاشعة متباطئة ، وثمت قبر العبد بشفتيها اللتين علقت بهما شهوات كثيرة . . .

* * *

ولما رجعت إلى بيتها وجدت نسياس ينتظرها ، مضمخ الشعر بالطيب مفكوكاً قميصه ، يقرأ رسالة فى الأدب يستعين بها على مضض الانتظار . فتقدم للقائها مبسوط الذراعين قائلاً بصوت ضحوك :

— أتعرفين يا تاييس الخبيثـــة ماذا وجدت فى أثناء انتظارك فى هذا الكتاب الذى كتبه أرزن الرواقيين ؟ أهى حكم سامية وسنن عالية ؟ كلا ! رأيت على البردى الخشن الف تاييس صغيرة ترقص ، والف تاييس ! وكانت كل واحدة منهن طول الأصبع ، ومع ذلك كان ظرفهن لا يُحدّ ، وكلهن تاييس الفريدة ! كان بعضهن يرفل فى حلل من أرجوان وذهب ، وبعضهن يسبح كسحابة بيضاء فى نُقُب شفافة ، وأخريات يوحين اللذة بسكونهن فى سناء عريهنّ ، وكانت اثنتان منهن متماسكتين بالأيدى ، وهما متشابهتان شبهاً يستحيل معه تمييز الواحدة عن الأخرى ، ابتسمت كلتاهما ، وقالت الأولى « أنا الحب » وقالت الثانية « أنا الموت » .

قال هذا واحتضن تاييس ، ولم يلحظ أنها كانت ترمق الأرض بنظرة وحشية ، فاستمر يحدثها بما جال فى ذهنه من الخواطر والأفكار . وواصل كلامه قائلاً : —

أحست تاييس وهي مصغية ، بملذات الحياة وغصص الموت تجري معاً فى مشاعرها المستيقظة . . .

ولما أتم المصلون الترتيل ، نهضوا وتوجهوا للتبرك بتقبيل القبر تباعاً . أولئك كانوا قوماً بسطاء من أهل الحرف اليدوية ، تقدموا ثابتى الخطى ، شاخصى الأبصار ، كليلى الأفواه تلوح عليهم سلامة النية ، جثوا واحداً بعد واحد أمام الناووس وألصقوا به شفاههم ، ورفع النساء الأطفالَ الصغارَ على أذرعهن ووضعن خدودهم بلطف على الحجر .

فدهشت تاييس واضطربت ، وسألت شمّاساً لِمَ يفعلون ذلك؟ فأجابها:

— ألا تعلمين أيتها المرأة اننا نحتفل اليوم بالذكرى المباركة للقديس «تيودور النوبى» الذى احتمل العذاب فى سبيل الإيمان فى عهد الامبراطور ديوقليس ؟ إنه عاش طاهراً ومات شهيداً ، وهذا هو السبب الذى من أجله قد حملنا الورد الأحمر ونحن فى ثياب بيضاء إلى ضريحه المكرَّم .

فلما سمعت تاييس قوله هذا خرَّت جاثية وأجهشت بالبكاء . عادت إلى ذهنها ذكرى أحمس التى كادت تطمسها يد النسيان . وعلى تلك الذكرى المبهمة ، العذبة ، المؤلمة ، أرسلت أشعة الشموع وعطور الورد . وسُحُب البخور ، وألحان المزامير ، ومظاهر الخشوع عزّةَ الفخر وجمال المجد .

فحدَّثت تاييس نفسها :

— أنه كان ذليلاً ، وها هوذا جليل القدر ، جميل الذكر ! تُرى كيف رُفع فوق هام البشر ؟ فما هو ذلك الشىء المجهول الذى فاق الثراء والسرّاء؟

فولعت بأن تسـير تحت ستار الظلام ، وهى متنكرة ، في تلك الدروب والمنعطفات والميادين العـامة حيث شبَّـت فى الشقـاء والبأساء . وكم أسفت على فقد والديها ، وبخاصة لأنها لم تحظ بلذة محبتها لهما . وكانت عندما تلقى الرهبان المسيحيين تفـكر فى عمادها وتضطرب .

وفى ذات ليلة ، بينما كانت تجوس خلال ضواحى المدينة كعادتها ، وهى مرتدية طيلساناً ، وشعرها الأشقر مخبوء تحت قلنسوة سوداء ، ألفت نفسها دون أن تعرف كيف كان ذلك ، أمام كنيسة القديس يوحنا المعمـدان الحقيرة . فسمعت بداخلها ترتيلاً . ورأت نوراً ساطعاً منبعثاً من شقوق البـاب . ولا عجب ، فقـد جعل المسيحيون لعشرين عاماً خلَتْ يحتفـلون بأعيادهم علانية تحت حماية « فاتح ماكسانس » . وكانت تلك التسابيح تنادى الأرواح نداء حاراً لا يردّ ، فدفعت الممثـلة الباب بيدهـا ودخلت كمدعوة إلى المشاركة فى الأسرار ، فوجدت جمعاً محشوداً من النسـاء والأولاد والشيوخ ، راكعين أمام قبر بجانب الجدار ، ولم يكن هذا القبر سوى خابية حجرية نقشت عليها أغصان وأعناب نقشاً خشناً ، ومع ذلك فقد نالها من التكريم قسط وافر . فكانت مغطاة بسعف النخل وأكاليل الورد الأحمر . وكان المعبد مناراً بمصابيح لا عداد لها ، تشق أنوارها الظلام الذى يظهر فيـه دخان الصموغ العربية كأنه ثنايا حلل الملائكة ، وعلى الحـائط رسوم كأنها رؤى الفردوس . . . وثمَّ رهبان فى ثياب بيض خرُّوا سُجَّداً عند مؤخرة الناووس . وكانت التسابيح التى شاركهم الشعب فى ترتيلهـا تعرب عن بهجة الآلام ، وكانت مزيجاً من الفرح والحزن بحيث

ظمئت إلى المجهول ، ودعت كائنات لا أسماء لها ، وعاشت فى انتظار دائم . روّعها المستقبل وأخافها فتطلعت الى معرفته . لاذت برهبان إيزيس وبالسحرة الكلدانيين . والعرّافين الذين مكروا بها وخدعوها على الدوام ، ولكنهم لم يتخلوا عنها مطلقاً .

خافت الموت ، ورأته فى كل مكان . وكانت كلما استسلمت للملذات يخيل اليها كأن أصبعاً مثلوجةً قد لمست كتفها العارية ، فيمتقع لونها وتصرخ من الهلع بين الذراعين اللتين تطوّقان خصرها .

قال لها نسياس :

— وماذا يكون لو جرى القضاء بأن ننزل أبيضيّ الشعر ، ضامرى الخدود ، إلى الليل الأبدى ؟ ثم ماذا يكون لو كان هذا اليوم الذى يبتسم لنا الآن فى صفحة السماء المبسوطة ، هو آخر أيامنا ؟ ماذا يضيرنا يا عزيزتى تاييس ، وماذا يكون ؟ ألا فلنستمرئ طعم الحياة . فسنحيا طويلاً إذا ما شُغفنا كثيراً . فلا فطنة فى غير الحواس ، . .

إن الحب هو الفطنة ة أما ما نجهله فليس لنا به شأن . وما فائدة إزعاج أنفسنا لغير طائل ؟

فأجابته غاضبة :

— اننى أمقت الذين على شاكلتك لا يرجون ولا يخافون ! اننى راغبة فى المعرفة ! راغبة فى المعرفة !

أخذت تقرأ كتب الفلاسفة لتقف على سر الحياة ، فلم تفهمها . وكان كلما تقدم بها الزمن وتباعد ما بينها وبين أيام طفولتها ازدادت تعلقاً بذكراها.

الكهول الأشحاء عند موطىء قدميها كالأنهار . لذلك طابت نفساً وقرّت عيناً . ابتهجت لتكريم الجمهور وعطف الآلهة . وهامت بحب نفسها ، لأن الجميع هاموا بحبها !

وبعد أن تمتعت عدة سنوات بحب الانطاكيين وإعجابهم ، اشتاقت للعودة إلى الاسكندرية لتظهر عزّتها للمدينة التى ضربت فى أرجائها وهى طفلة تجر ذيل الشقاء والحرمان وقد هزلها الجوع والمسغبة ، فكانت هزيلة كالجرادة فى وسط طريق مقفر . . . فاستقبلتها المدينة الذهبيـــة بالفرح والترحيب . وغمرتها بالهبات والعطايا ، وكان ظهورها فى الألعـاب نصراً مبيناً . وسعى اليها جمهور لا يحصى من المعجبين والعاشقين ، فتلقتهم بفتور وقلة مبالاة لأنها يئست من العثور على من يشغل مكاناً شغله لوليوس من قلبها.

* * *

تلقت من بين الجموع الغفيرة الفيلسوف « نسياس » الذى اشتهاها على مجاهرته بالتجرد من الشهوات . وكان على ثرائه ذكى الفؤاد دمث الأخلاق. غير أنه لم يفتنها بحصافة عقله ولا برقة حاشيته ، فلم تحبه ، بل أغضبتها أحياناً تهكماته الرائقة ، وجرّحها بشكوكه الدائمة . لم يكن يؤمن بشىء ، وهى قد آمنت بكل شىء . آمنت بالعناية الالهـية ، وبقدرة أرواح الشر ، وبالرقى والتعاويذ وبالعـــدل الأزلى ، وبيسوع المسيح . كما آمنت أيضاً بأن الكلبات تنبح إذا مرّت الهة جهنم السوداء بمفارق الطرق ! ! وبأن المرأة تستطيع أن توحى الحب إذا صبّت شراب العشق فى كأس تحوى جزّة شاة مخضّبة بالدماء ، وسقته لمن تريده ! ! !

من التردد على دور التمثيل حيث كان الممثلون الايمائيون يأتون من كل حدَب وصَوْب لتمثيل أدوارهم بين تهليل الجماهير الظمآنة إلى اللهو واللعب.

عُنيت بدرس حركات الممثلين والراقصين، لا سيما الممثلات اللائى كنّ يمثّلن فى الروايات الفاجعة أدوار الربات عاشقات الشبان، أو المخلوقات الهائمات بحب الأرباب. وبعد أن علمت السرّ الذى به خلبن لب الجمهور، توقعت أن تبزّهن لأنها كانت تفوقهن حسناً ودلالاً.

فمضت إلى رئيس الممثلين وسألته أن يلحقها بفرقته. وبفضل جمالها، والدروس التى تلقتها من «مروا» العجوز قُبلت وظهرت على المسرح فى دور «ديرسيه»، فلاقت نجاحاً ضئيلاً لأنها كانت مفتقرة إلى المران، ولأن جمهور المشاهدين لم يُشوَّق إلى مرآها بالاطناب فى محاسنها والثناء عليها قبل ظهورها على المسرح. ولكن لم تمضِ بضعة أشهر حتى انفجر بأس جمالها على مسرح التمثيل بقوة اهتزت لها المدينة من أقصاها إلى أقصاها، فهرع أهل انطاكية إلى الملعب حتى اكتظ بهم. واضطرت قوة الرأى العام زعماء الامبراطورية وقضاتها ورؤساء البلد إلى الظهور هناك. وحَرَم الحمالون والكناسون وعمال الميناء أنفسهم النومَ والخبز ليدفعوا أجر مقاعدهم، ومدَحها الشعراء بقصائدهم، وخطب فى تجريحها الفلاسفة الملتحون فى الحمامات والمدارس، وأشاح عنها الرهبان المسيحيون فى أثناء مرورها فى محفتها!

تُوِّجتْ عتبة بيتها بالزهر ونُضحت بالدم. تلقت من عشاقها الذهب بغير حساب، وزناً وكيلاً، لا عدًّا. وتدفقت الكنوز التى ادخرها

الحكام جرائم عديدة اتهمت باقترافها . فسيقت إلى الاعدام وطرحت طعاماً للوحوش الضارية .

* * *

أحبّت تاييس لوليوس بكل ما فيها من هياج التصوّر وسذاجة النفس. وقالت له من أعماق قلبها :

ـــ لم ينل أحد منى ما نلته !

فأجابها لوليوس :

ـــ أنك لا تشبهين أية امرأة فى الوجود .

وظلّ السحر ستة أشهر . ثم انحلت يوماً طلاسمه ، فأحست تاييس فجأة بنفسها خالية وحيدة . ولم يبق لوليوس فى نظرها لوليوس الذى أحبتـه . وفكرت :

ـــ كيف تغيرتُ هكذا فى طرفة عين ؟ وكيف تغير لوليوس حتى انه صار فى نظرى مثل سواه من الرجال ، ولم يعد مثل نفسه ؟

ثم هجرته ، وبفؤادها رغبة خبيثة فى أن تجد لوليوس فى انسـان آخر ما دامت لا تجده فيه نفسه . وخيّـل اليها أيضاً أن الحياة مع انسان لم تحبه قط أيسر خطباً منها مع انسان صارت لا تحبه . وصحبت المترفين من أبنـاء المسرات والفجور فى تلك الولائم الدينية ، حيث كانت ترقص فى المعـابد نخبـة من العـذارى العاريات ، وتقطع السرارى نهر العاصى سابحات . واشتركت فى جميع الملاهى التى أقامتها المدينة البديعة الفاسقة . وأكثرت

وائماً . تألمت ولم تدر سرّ ما تشكو منه . سألت نفسها لماذا تغيرتْ هكذا ، دمن أين دَهِمَتها الكآبة ؟ ردت كل عشاقها لأنهم أزعجوها ، وعافت رؤية الضياء فلبثت سحابة نهارها مضطجعة في فراشها ورأسها غارق فى الوسائد . ثم تهيأت للوليوس وسائل اقتحام بابها ، وأتى عدة مرات يرجو ويلعن تلك البنت العنيدة ، فلبثت فى حضرته خائفة كعذراء بتول ، وأصرّت على قولها :

— لا أريد ! لا أريد !

وبعد خمسة عشر يوماً وهبته نفسها ، إذْ شغفها حباً . فذهبت إلى بيته وعاشت معه ، وكانت ثمّ حياة لذيذة . فكانا يقضيان النهار فى خلوة يحدّق كل منهما فى عينى صاحبه ، ويخاطب أحدهما الآخر بكلمات لا يقولها سوى الأطفال . فاذا جاء المساء تنزها على ضفتى العاصى الخاليتين ، وضلاّ السبيل غير مرة فى الأحراج . واستيقظا أحياناً عند الفجر ليذهبا لقطف السوسن فوق منحدرات « سلبيكوس » . وشربا من كأس واحدة ، وكانت إذا رفعت إلى فمها حبة عنب تناولها بأسنانه من بين شفتيها !

أتت « مروا » بيت لوليوس تطلب تاييس بصيحات عالية قائلة :

— ابنتي ! ابنتي التي أُخِذَت مني عنوةً ! زهرتى المعطرة ؟ حشاشة فؤادى ، وفلذة كبدى !

فصرفها لوليوس بعد أن أجزل لها العطاء . لكنها لما عادت تلحف فى طلب المزيد من قِطَع الذهب بعث بها الفتى إلى السجن ، وحققّت

تايس الراقصـــة

رقصت تايس فنالت الإعجاب ، وأخذها السراة بعد انفضاض الولائم إلى أحراج نهر العاصى ، فسلمت نفسهـا للجميع من دون أن تعرف للحب ثمناً . ولـكن حدث ذات ليلة ، بعد أن رقصت أمام أظرف شباب المدينة ، أن اقترب منها ابن الوالي يتوثّب فتوّة ، ويختال عزّة ، وقال لها بصوت كأنه مرطـب بالقُبل :

— ليتنى التاج المنعقد على مفرقك يا تايس ! ليتنى القميص المزرور على جسمك البديع ! ليتنى نعل قدمك الجميلة ! انى أروم أن تطأي بقدميك هامتى ، وأن يكون قميصك وتاجك من عناقى وقبلاتى . فتعالى أيتها البنيّـة المليحة ، تعالى الى بيتى ، ولننسَ العالم !

نظرتْ اليه وهو يتكلم ، واستبانت محاسنه ، فشعرت على الفور بالعرق يثلج جبينهـا . واستحال لونهـا كالعشب اخضراراً . ترنحت وانتشرت على عينيها غشاوة . فتوسل اليها ثانية أن تتبعه فرفضت ، ولم تغنه نظرات اللوعة وكلمات الحب فتيلاً . ولما أخذها بين ذراعيه ليسير بها على رغمها ، دفعتـه بخشونة ، فعـاد يتوسل اليهـا ويتضرع وهو يذرف أمامهـا الدموع ويريق العبرات ، فامتنعت عليه بسلطان قوة مجهولة لا تقاوم ، فقال المدعوون :

— تبًّـا لها من زمّـارة حمقاء ! انها تنبـــذ لوليوس الفتى النبيل الغنى الجميـــل !

عاد لوليوس وقد كواه الهوى سواد ليـله بناره ، وفى الصبـاح ذهب ممتقع اللون ، أحمر العينين . وعلق الزهر فوق باب الموسيقارة . وكان الهم والضجر قد اعتريا تايس ، فأعرضت عن لوليوس . على انها كانت تتخيله

كانت هذه المرأة ، وتدعى « مروا » ، تأخذ البنات والصبيان من بلد إلى بلد ، وتعلمهم الرقص ثم تؤجرهم بعدها لسراة القوم ليرقصوا لهم فى الولائم والحفلات .

ولما رأت أن تاييس ستغدو عما قليل أجمل النساء ، علمتها الموسيقى والغناء ، مستعينة على ذلك بالسوْط . وكانت تجلد ساقيها البديعتين بسيور من الجلد إذا لم تقف عند سماع نغمات القيثارة .

أما ابنها فكان ثمرة اجهاض ، سقطاً لا تبدو عليه حقيقة سنه ، ولا يميز الناظر اليه كنه جنسه ! وكان ينتهر الفتاة ويصب على رأسها جام حقده على النساء جميعاً . ولما كان ينافس الراقصات متكلفاً رشاقتهن ، فقد تعلمت منه تاييس فن التمثيل الإيمائى الصامت والتعبير عن العواطف الانسانية بواسطة ملامح الوجه والهيئة والوضع . وامتازت بتمثيل أهواء الغرام . ولقد محضها ، على كره منه ، نصح أستاذ ماهر . بيد انه كان يغار من تلميذته ، فيخدش خديها ويقرص ذراعيها أو ينخسها بابرة فى ظهرها حين كان يتضح له أنها خلقت لإمتاع الرجال !

وبفضل هذه الدروس أتقنت ، فى زمن قصير ، فنون الموسيقى ، والتمثيل الصامت ، والرقص . ولم تدهشها قط فظاظة معلميها ، إذ لم تكن ترى أية غرابة فى أن تهان وتساء معاملتها ، بل شعرت بشىء من الاحترام نحو تلك الموسيقية العجوز التى تجرع النبيذ الاغريقى !

ولما جاءت « مروا » مدينة أنطاكية ، أطنبت فى مدح تلميذتها ، كراقصة عازفة ، لوجوه المدينة وأعيانها الموسرين الذين كانوا يقيمون المآدب .

فنظرت تاييس صامتة مطرقة وقد احمر جفناها من كثرة البكاء .

فعادت العجوز تقول :

— يا زَنبقتى البيضاء ! أليست أمك سعيدة الجد لأنها أرضعت معبودة صغيرة مثلك ؟ أو ليس أبوك مغتبطاً من صميم فؤاده برؤيتك ؟

فأجابت الطفلة كأنها تحدث نفسها :

— أبى زقٌّ منتفخ من الصهباء ، وأمي علَقَةٌ شرهة !

فنظرت العجوز ذات اليمين وذات الشمال لتستوثق أن ليس عليها رقيب ، ثم قالت متلطفة :

— أيتها السوسنة النضرة ذات البهاء ! أيتها الحسناء التى تشرب النور وتنهل الضياء ! تعالى معى . وستكون حياتك سلسلة متصلة الحلقات من الرقص والابتسامات ! سأطعمك الشهد ، وسيحبك ابنى ، ابنى الصميم ، حبه لعينيه ، وانه لفتى لو علمت غضُّ الاهاب في شرخ الصبا ، فاتن المحيا ، ليس له فى ذقنه إلا لحية خفيفة ، وجلده ناعم بضّ ، وانه لخنَّوص[1] من خنانيص أشارنيه !

فأجابت تاييس :

— خذينى ، إنى ذاهبة معك !

ثم نهضت وتبعت العجوز إلى خارج المدينة .

* * *

---

(١) الخنوص : الخنزير الصغير

وبعد ثلاث سنوات أصدر قسطنطين ، فاتح ماكسانس ، مرسوماً أمّن فيه المسيحيين .

وكانت تاييس قد بلغت من العمر إحدى عشرة سنة حين مات صديقها معذباً ، فشعرت بحزن عميق وجزع شديد . ولم تكن روحها من السموّ بحيث تدرك أن العبد أحمس كان هانئاً جدّ الهناء بحياته وموته على السواء . وتولد في ذهنها الضيّق أن فى استطاعة المرء أن يكون فى هذه الدنيا صالحاً ولكن ذلك يكلفه عناء التباريح والآلام ، فخافت أن تكون صالحة لأن جسدها الغضّ الرقيق لا يحتمل آلام الصلاح !

وكان لها ، قبل الأوان ، عشاق من صبيان المرفإ ، وكانت تتبع الرجال المسنين الذين يطوفون فى المساء في ضواحى المدينة مفسدين ، وتشتري بما ينفحونها به ما تشتهيه من الحلوى وأدوات الزينة . . .

وأساءت أمها معاملتها لأنها لم تكن تأخذ إلى البيت شيئاً مما تربحه من النقود . فكانت كثيراً ما تهرب وتجرى حافية إلى أسوار المدينة لاجتناب صفعات أمها ، وتختبىء مع الهوامّ فى شقوق الأحجار . وهناك كان يخامرها حسد النساء اللواتى تراهنّ مارّات متبرّجات فى أبهة وبهاء . محمولات فى محفّاتهن على أكتاف الأرقاء .

وفى ذات يوم نالها من الضرب فوق المعتاد ، فخرجت وانطرحت عند بوّابة المدينة ، ثائرة النفس واجمة . وبينا هى على هذه الحال وإذا بامرأة عجوز قد وقفت أمامها ونظرت اليها ملياً وهى ساكنة ثم قالت :

— يا لك من زهرة حسناء أيتها الطفلة الفتّانة ! ما أسعد أباك الذى أوجدك وأمك التى ولدتك !

للمسجونين ، وقيل انه في وقتها تأثر المجرمون والسجان نفسه بكلمانه وآمنوا بالمسيح المصلوب .

ساقوه إلى أحد تلك المفارق التى مرَّ بها فرحاً مغتبطاً ذات ليلة منذ أقل من عامين ، حاملاً تحت عباءته البيضاء تاييس الصغيرة ابنة روحه ، وزهرته المحبوبة .

ولما صلب وسمرت يداه لم يتأوه ولم ينبس ببنت شفه ، غير أنه تمتم قائلاً : « ظمآن ! إنى ظمآن ! » .

ودام كربه ثلاثة أيام بلياليها . ولا يكاد المرء يصدق أن الجسد البشرى يستطيع أن يتحمل مثل هذا العذاب الطويل ، حتى ظُن مراراً أنه مات . وكان الذباب قد التهم بعض جفنيه ، بيد أنه ما لبث أن فتح عينيه الداميتين بغتةً . وفى صبيحة اليوم الرابع غنَّى بصوت جهير ، أرق من صوت الأطفال :

خبّرينا يا مريم ماذا رأيت حيث كنت . . .

ثم ابتسم وقال :

— ها هم ملائكة الله مقبلون . . . ! يحملون إلىَّ خمراً وأثماراً . . . لله ما أندى حفيف أجنحتهم . . .

وأسلم الروح .

وظلّ وجهه وهو ميت مشرقاً بأنوار السعادة الأبدية ، فكان موضع إجلال الجنود الذين كانوا يحرسون الصليب . وأتى ڤيڤانتوس مصحوباً ببعض الاخوان المسيحيين في طلب الجثة لدفنها بين بقايا الشهداء فى قبر القديس يوحنا المعمدان . واحتفظت الكنيسة منذ ذلك الحين بذكر القديس « تيودور النوبى » الموقر .

وأصبحت محافل المسيحيين أكثر انتظاماً ، فأخذ النوبى يحضرها على الدوام . وزادت حميته اشتعالاً ، وكان في بعض الأحايين يفوه بكلمات تنذر بالوعيد كقوله « ان الأغنياء سوف يفقدون أموالهم ! » ، وذهب مرة إلى الساحات العامة حيث اعتاد فقراء المسيحيين أن يجتمعوا ، وهناك جمع اليائسين الراقدين فى ظل الجذران العالية وبشّرهم بتحرير الأرقاء ، ودنو يوم العدالة ، قال :

— سوف يشرب الأرقاء في ملكوت السموات خمراً صافية ويأكلون فاكهة لذيذة ، على حين أن الأغنياء يكونون جاثين عند أقدامهم كالكلاب يلتقطون فتات موائدهم !

لم تبق هذه الأقوال في طى الكتمان ، بل ذاعت فى نواحى المدينة كلها ، وخشي السادة أن يغري أحمس عبيدهم بالتمرد ، وحقد صاحب الحانة عليه حقداً بالغاً ، ولكنه كتم عنه حفيظته .

فى ذات يوم اختفت من الحانة مملحة من الفضة مخصصة لمائدة الآلهة . . فاتّهم أحمس بسرقتها نكاية فى سيده وفى آلهة الأمبراطورية . وكان الاتهام بغير دليل على الاطلاق ، وأنكر العبد التهمة بكل قواه . على انه سيقَ إلى المحكمة ، وحكم عليه القاضى بالموت ، إذ كان على زعمهم عبداً رقيقاً لا قيمة له ولا اعتبار . وقال له :

— ستُسمَّر فى صليب يداك اللتان لم تعرف كيف تحسن استخدامهما .

فسمع أحمس الحكم بهدوء ، وحيّى القاضى باحترام فائق ، وقيد إلى السجن العام . وفى أثناء الثلاثة الأيام التى قضاها فيه ظلّ يكرز بالانجيل

البديعة . وشبّه حياة الاستقامة بنسيج ارجوانى موشّى . قال فى شرح سرّ العماد :

— ان الروح القدُس يرفرف فوق المياه ، ولهذا يتلقى المسيحيون عماد الماء ، غير أن الشياطين يسكنون أيضاً الغدران ، كذلك الينابيع المخصصة للحوريات خطرة مخوفة ، ومن المشاهد أن بعض المياه يسبب أمراضاً مختلفة للنفس والجسد .

وفاه فى بعض كلامه بأحاجى ومعميات ملكت على البنت مشاعرها تيهاً واعجاباً ! وبعد الفراغ من الطعام قدم لضيوفه شيئاً من النبيذ ، فانطلقت ألسنتهم من عقالها وأخذوا ينشدون ويسبحون . ثم نهض أحمس ونيتيدا ورقصا رقصة نوبية تعلماها فى صباهما ، وكانت بلا ريب شائعة فى القبيلة منذ قديم الزمان . وهى رقصة غرامية ، يكون فيها تحريك الأذرع والجسد أكمله ، ثم الاحتيال بالتناوب على الهرب ، ثم اقتفـــاء الأثر ، فأدارا عيونهما الكبيرة وأظهرا أسنانهما اللامعة وهما يبتسمان .

كذلك تلقت تاييس التعميد القدسى .

* * *

هامت تاييس بحب اللهو والمرح ، وتولدت فى نفسها ، وهى تنمو وتكبر ، رغبات مبهمة وأهواء . . . فكانت ترقص وتغنى سحابة نهارها مع أولاد الشوارع المتشردين ، وفى الليل تعود إلى بيت أبيها وهى لا تزال تغنى . . .

ثم أخذت تفضل صحبة الصبيان والبنات على صحبة أحمس الرقيق الرزين . فلم تلحظ أن صديقها قد قلّل اجتماعه بها . وكان الاضطهاد قد انقطع

فى جرن المعمودية ، ومسحها بالزيت ووضع حبّة من الملح على شفتيها ، وبعد تنشيف جسدها الذى كان معدًّا بعد تجارب عديدة للحياة الخالدة ، ألبستها نيتيدا الثوب الأبيض نسيج يديها .

ثم منحهم الأسقف جميعاً قبلة السلام ، وانتهت الحفلة فنزع حلتـــه الكهنوتية .

ولما صاروا جميعاً خارج السرداب قال أحمس :

ــ ينبغى أن نغتبط بتقديمنا اليوم نفساً لله ، فهلم نذهب إلى منزل سيادتكم ونقضى بقية الليل بالحبور .

فأجاب المطران :

ــ أحسنت يا تيودور .

ثم قادهم إلى داره القريبة منهم وكانت مؤلفة من حجرة واحدة متاعها نولان ، ومنضدة كبيرة ، وسجادة يالية .

فصاح النوبى عند دخولهم :

ــ هاتِ يا نيتيدا الموقد وجرة الزيت . ولنطهين أكلة هنيئة !

قال هذا وأخرج من تحت عباءته بعض السمك ، وأشعل ناراً وأخذ يقليه . وجلس الأسقف والطفلة والغلامان والعبدان فى دائرة فوق السجادة ، وأكلوا السمك المقلىّ وحمدوا الله .

وتكلم ڤيڤانتوس عما عاناه من الآلام المبرحة ، وبشّر بفوز الكنيسة القريب . وكانت لغته جافة ، غير أنها فائضة بالمجازات الفصيحة والنكات

وعلى مقربة منه حملت عجوز زنجية ثوباً صغيراً أبيض . فأنزل أحمس البنت إلى الأرض ، وركع أمام الأسقف وقال :

ـــ هذه هى يا أبى ، النفس الصغيرة ، ابنة روحى ، أحضرتها لك حتى إذا ما راقت سيادتك أنعمت عليها حسب وعدك بمعمودية الحياة .

فمد المطران ذراعيه وأظهر يديه المشوهتين ، اللتين نُزعت أظافرهما عقاباً على جهره بالإيمان فى أيام المحن والاضطهاد . فأوجست تاييس خيفة وألقت بنفسها فى حضن أحمس ، لكن الكاهن لاطفها وسكّن روعها بقوله:

ـــ لا تخافى أيتها الطفلة المحبوبة ، فان لك هنا أباك الروحى الذى يدعى بين المؤمنين تيودور ، ولك أم صالحة ترعاك ، وهى التى خاطت لك بيديها ثوباً أبيض .

ثم التفت إلى الزنجية وقال :

ـــ انها تدعى « نيتيدا » وهى على هذه الأرض جارية ، لكن يسوع سيرفعها فى السماء إلى صف عرائسه !

ثم سأل الطفلة المتنصّرة :

ـــ أتؤمنين يا تاييس بالله الأب القادر على كل شىء ؟ وبابنه الوحيد الذى مات فى سبيل خلاصنا ؟ وبكل تعاليم الرسل ؟

فأجاب الزنجى والزنجية ، اللذان كانا قابضين على يديها ، بالايجاب .

وطبقاً لأوامر الأسقف ركعت نيتيدا ونضت عن تاييس ثيابها كلها ، فصارت عارية إلاّ من رقية فى عنقها ، ثم غطسها المطران ثلاث مرات

بل كان يرتدى عباءة طويلة بيضاء لفّ بها تايبس قائلاً لها بصوت خافت :

— تعالى يا روحى ! تعـالى يا عينىّ ! تعالى يا فؤادى ! تعالى ارتدي ثوب التعميد !

ثم حملها ضاماً إياها إلى صـدره ، وكانت خائفة لكنها توّاقة الى الاستطلاع ، فأخرجت رأسها من العباءة وطوقت عنق صديقها بذراعيها ، وقد جرى بها يشق حجاب الظلمات .

سارا فى دروب ضيقة واجتـازا حى اليهود ومرّا أولاً بمقبرة انبعث منها صياحُ العُـقاب الرهيبة ، ثم بمفرق طرق علقت فوق صلبانه أجسـاد المعذبين وقد حطت على أذرعهم الغربان الناعقـة تنقرها . فخبأت تايبس رأسها فى صدر العبد ، ولما فتحت عينيها رأت نفسها فى كهف ضيق مضـاء بشعل راتينجية ، منقوش الحيطان بصور كبيرة تظهر فى دخان المشاعل كأنها أحياء تتحرك . . . وهى صور رجال مرتدين جلاليب طويلة يحملون السعف فى وسط حملان وحمام وغصون كرْم .

وعرفت تايبس من بين هذه الأشكال يسوع الناصرىّ بشقائق النعمان المزهرة عند قدميه . وفى وسط القاعة ، بقرب جرن المعمودية المملوء بالماء ، وقف شيخ هرم مرتد حلة قسيس قرمزية مطرزة بالذهب ، وعلى رأسه تاج أسقف ، وقد تدلت من وجهه النحيف لحية طويلة ، وعلى رغم حلتـه الفاخرة ، كانت تلوح عليـه سيماء التواضع ودماثة الخلق . ذلكم المطران ڤيڤـانتوس الذى كان أميراً مبعداً من كنيسة برقه وأصبح الآن ينسج من شعر المعز قماشاً صفيقاً ليقيم صلبـه . وقد وقف بجانبه غلامان فقيران ،

أحمس سراً تحت جنح الدجى ، واقترب بخفـــة من القش الذى افترشته ، وجلس على كعبيه ، مزدوج الساقين ، معتدل القامة ، جلسةً يتوارثها الخلف عن السلف من أبناء جنسه ، واختفى وجهه وجسده المتشح بالسواد ، فى الظلمات . ولمعت عيناه الكبيرتان البيضاوان وانبعث منهما نور كشعاع الفجر المنبعث من شقوق الباب .

ثم تكلم بصوت أجشّ مؤثر ، فيـــه نغمة الموسيقى المحزنة التى تُسمع عند المساء فى الطرقات . . .

وفى بعض الأحيان كان نهيق حمار أو خوار ثور يصحب صوت أحمس وهو يرنّم آيات الانجيل ، فيتألف من امتزاجها نغم موسيقى كأنه صادر عن جوقة ملحنين للأرواح الغير المنظورة ! !

تدفقت كلمانه بهدوء فى جنح الظلام ، ممزوجة بالحماسة والرحمـــة والأمل . . . فشـــدت المتنصّرة بيدها على يد أحمس وقد اطمأنت لهذه الأنغام التى تجرى على وتيرة واحدة ، وسكنت نفسها لصور مخيلتها المبهمة ، فأخذ الكرى بمقاعد أجفانها ، فنامت وادعة باسمة بين إيقاع ألحان الديجور والأسرار القدسية ، تحت ضوء نجم بزغ من ثقوب فى سقف الاسطبل .

* * *

استغرق تعليمها الأولى حولاً كاملاً ، حتى جاء الموسم الذى يحتفل فيه المسيحيون وهم فرحون بعيد الفصح . ففى ليلة من ليالى ذلك الأسبوع المجيد ، كانت تاييس نائمة على حصيرتها فى القبو ، فشعرت بأن العبـــد قد حملها وعيناه تسطعان بنور غريب ، ولم يكن كعادته فى سرواله الممزّق ،

بيد أن النساء غسلن جثته ودفنّها . ثم قام الأمير يسوع من بين الأموات ، وخرج من قبره ، وصعد إلى الله أبيه » .

ومنذ ذلك العهد يصعد إلى السماء كل الذين يستشهدون فى سبيله .

فيفتح الرب سبحانه ذراعيه ويقول لهم :

« — على الرحب والسعـــة ، لأنكم تحبون ولدى الأمير ! اغتسلوا ثم كلوا واشبعوا ! »

« فيستحمون على أنغام الموسيقى الشجية : ويرون فى أثناء الطعام رقص القيان ، ويصغون لحكايات ما إن لها من ختام ! وهم لدى الله الرءوف أعزّ عليه من نور عينيه ، لأنهم ضيوفه . وسيكون من نصيبهم طنافس قصوره ورمان جناته ! »

ضرب أحمس فى أقواله على مثل هذه الأوتار الحسّاسة ، وهكذا علم تاييس الحق واستهواها ، فقالت معجبة :

— أودُّ لو آكل من رمّان الله تعالى ! !

فأجابها أحمس :

« — ان الذين عُمِّدوا فى يسوع يذوقون وحدهم فاكهة السماء »

فطابت تاييس أن تتعمد ، ولما رأى منها إيمانها بيسوع قرّ رأيه على أن يمعن فى تهذيبها ، حتى إذا عُمّدت أمكن أن تنضمّ إلى الكنيسة . واشتد حبه لها كابنته الروحية .

وكانت تاييس منبوذة عن والديها الظالمين ، فلم يكن لها فراش تحت السقف الأبوى . فنامت فى زاوية من الاسطبل بين الأنعام ، وهناك وافاها

ولما بلغت تاييس السابعة ، بدأ أحمس يحدثها عن الله ، قال :

« — ان الله سبحانه وتعالى قد عاش فى السماء ، كفرعون ، فى خيام حريمه ، وتحت أشجار جناته . وهو أزلى منذ الأزل ، لا بداية له . وليس له من ولد سوى الأمير يسوع الذى يحبه بكل قلبه ، والذى يفوق بجماله العذارى والملائكة جميعاً .

وقال الله للأمير يسوع :

« — اترك حريمى وقصرى ونخيلى وأنهارى وانزل إلى الأرض لخير البشر . ستكون فيها كطفل صغير . وتعيش فقيراً بين الفقراء . سيكون الألم خبزك اليومى ، وستذرف دموعاً غزيرة تجري أنهاراً يستحمّ فيها العبيد المرهقون مبتهجين — اذهب يا بنيّ ! » فأطاع الأمير يسوع وهبط إلى الأرض بمكان يسمى بيت لحم فى أرض الموعد وسار فى الرياض المنمقة بشقائق النعمان قائلاً لصحبه :

« — طوبى لأولئك الجياع لأنى سأجلسهم على مائدة أبي ! طوبى لأولئك العطاش لأنهم سيشربون من عيون السموات ! طوبى لأولئك الذين يبكون لأنى سأمسح دموعهم بنقبٍ أبدع من نقب القيان ! »

لهذا أحبه الفقراء وآمنوا به ، لكن الأغنياء مقتوه خشية أن يفضل الفقراء عليهم .

« وفى ذلك العهد كانت كليوباترا وقيصر قوة فى الأرض لا تتحدى ، وكلاهما كرها يسوع وأمرا الحكام والكهنة أن يقتلوه . فنصب أمراء سورية ، اطاعة لملكة مصر ، صليباً فوق جبل عال وصلبوا المسيح عليه .

كان أحمس مسيحياً ، معمداً . وفى اجتماعات المؤمنين التى يحضرها سراً فى الوقت المعيَّن لنومه ، كان معروفاً باسم تيودور .

فى ذلك العهد كانت الكنيسة تقاسى أكبر البلاء وأشد الاضطهاد . فبأمر الامبراطور هُدمت الكنائس ، وأحرقت الكتب المقدسة ، وصهرت الأوعية الطاهرة والمسارج ، وجرد المسيحيون مما ملكت أيمانهم ، وما كانوا يتوقعون سوى الموت . وساد الرعب طوائف الاسكندرية وبلاد العرب وبين النهرين وغيرها من بلدان الامبراطورية الرومانية . وسُلطت السياط ومطايا التعذيب والمخالب الحديدية والوحوش الضارية على الأساقفة والعذارى فمزَّقتهم شرَّ ممزق . فانقضَّ انطوان ، زعيم المؤمنين الذى كان مشهوراً فى مصر بزهده وتقواه ، انقضاض النسر على مدينة الإسكندرية ، وخف من كنيسة إلى كنيسة يشدد عزائم المؤمنين ، ويبث فى قلوبهم روح الشجاعة والقوة والإيمان والصبر على المكاره ، وكان اضطهاد العبيد على الخصوص بالغاً أشدَّه ، فارتد كثيرون منهم لما أصابهم من الجزع ، وهرب آخرون إلى الصحراء بأمل أن يعيشوا فيها نساكاً زاهدين ، أو لصوصاً ناهبين !

أما أحمس فظل مع هذا كله يغشى كعادته المجتمعات ويختلف اليها . فزار المسجونين ، ودفن الشهداء ، واعترف وجاهر مبتهجاً بدين المسيح . ولما شاهد أنطوان العظيم ، قبل رجوعه إلى الصحراء ، هذه الحمية الصادقة ، احتضن العبد الأسود ومنحه قبلة السلام . . .

* * *

فأحبت تاييس الصغيرة أحمس حب الطفـــلة للأم والأب والمرضع والكلب ! تعلقت بالعبد وكانت تتبعه إلى قبو دنان الخمر وحظيرة الدجاج بين الفراخ الضامرة المنتفشة التي ترفرف طائرة امام مدية الطـاهى الزنجى أسرع من فراخ الفسور ! وفى كل ليلة تقريباً . كان يصنع لتاييس الطواحين والسفن بحجم راحة اليد ، وفيها كل معداتها .

وكانت إحدى أذنيـــه مصلومة من سوء معاملة سادته له ، وقد غطت الندوب جسده ، ولـكن كان على وجهه مسحة الطمأنينة والانبسـاط ، ولم يخطر لأحد أن يسأله من أين استمد عزاء النفس وراحة الضمير ، فقد كان ساذجاً كالطفل . وكان وهو يؤدى عمله اليومى الشاق ينشد بصوت أجشّ أناشيد تبعث في نفس الفتاة الرجفة والأحلام .

كان يترنم مسروراً بصوت جهورى يقول :

« — خبرينا يا مريم . ما رأيت حيث كنت ؟

« — رأيت الـكفن ونسيج الـكتان ، والملائـكة جالسين عند القبر ، وشهدت مجد المبعوث . . . . »

فسألته تاييس مرةً :

— لماذا تتغنى يا أبت بقولك : « الملائكة جالسون عند القبر ؟ »

فأجابها :

— أيتها الصغيرة ، يا نور عينى ! انى أتغنى بذكر الملائكة ، لأن سيدنا المسيح قد صعد إلى السماء .

وتركاها كدجاجة فى حظيرة الطيور البيتية ! فهرت مهارة لا تجارى فى سلب دراهم البحارة السكارى ، تتناولها من أحزمتهم وهى تباسطهم بالأغانى الصبيانية ، والكلمات البذيئة التى كانت تجهل معناها . وكانت تنتقل من رُكبة الى ركبة فى القاعة المتشبعة برائحة الخمور والقرب الراتينجية ، ثم تعود ويداها الصغيرتان قابضتان على الدريهمات ، ووجهها مندّى برشاش الجعة المتطاير ، مخدّش من اللحى الكثّة ، وتجرى لشراء أقراص الشهد من امرأة عجوز جالسة فى كُنّة تحت باب القمر .

وهذه المشاهد كانت تتكرر كل يوم . فيذكر البحارة ما لاقوه من الأخطار فى أثناء اشتداد العاصفة ، ثم يلعبون النرد والكعاب ، ويطلبون ، وهم يجدفون ، أحسن جعة كلكيلية .

وكانت الطفلة تايس تستيقظ كل ليلة على شغب السكارى وعراكهم ، وعلى ما يتساقط فوق الموائد من قذائف المحار وسط الصخب والضجيج المتعالي ، وترى بعض الأحيان ، على ضوء المصابيح الكثيرة الدخان ، المدي تلمع والدم يسيل . . .

ولم تعرف الطيبة البشرية فى ريّق عمرها إلاّ فى شخص « احمس » الذى كانت تقاسمه المذلة . وأحمس هذا عبد البيت ، وهو نوبيّ أشد سواداً من القدور التى يعني بفركها وتنظيفها ! لكنه كان طيباً كالليل الذى يُقضى فى نوم عميق لا يتخلله سهاد ! وطالما وضع تايس على ركبتيه يقص عليها قصصاً عن مغاور مملوءة كنوزاً وقد بُنيت لملوك أشحّاء أعدموا الذين بنوها لهم ! وكان فى تلك القصص أيضاً لصوص حُذّاق يتزوجون من بنات الملوك ، وسرارى يبنين اهراماً !

البَردى

ولدت تاييس من أبوين فقيرين ، وثنيين . وفى أيام حداثتها كان أبوها يدير حانة على مقربة من باب القمر بالاسكندرية يتردد اليها البحارة . فرسخ فى ذهنها تذكار أمور كثيرة عن الحانة وما يتعلق بها . كانت تذكر أباها وهو متربع فى زاوية البهو ، طويلاً ، مهيباً ، هادئاً ، كأنه أحد اولئك الفراعنة الذين كان العمي المتسولون يمجدونهم فى أغانيهم المحزنة وهم جالسون فى مفارق الطرق . وتذكر أيضاً أمها النحيلة المكتئبة تذرع البيت وتطوف به كقطة جائعة ، يملأه صوتها المنكر رعباً ، وعيناها البراقتان شرراً . وقد شاع عنها فى الضاحية انها ساحرة تتحول فى الليل الى بومة لتلاقى عشاقها ! على أن هذه الاشاعة زور وبهتان ! فقد تحققت تاييس من ملاحظتها الدائمة لأمها أنها لم تشتغل قط بفنون السحر ، ولكن لشدة تفانيها فى الشح والجشع كانت تقضى سواد ليلها تحصى دخل يومها .

فأبوها الفاتر الهمة ، وأمها البخيلة ، كلاهما ألقيا حبلها على غاربها

ولكن الجموع كانت قد تسابقت إلى الخروج كالموج الزاخر ، واستطاع كاهن أنصينا أن يتخلص من دوريون المذهول ، فانطلق وهو لا يزال يردد نبوءته .

* * *

وبعد ساعة من الزمن طرق باب تاييس .

وكانت الممثلة تسكن بيتاً محاطاً بجنات وارفة الظلال فيها صخور صناعية ينساب فى وسطها غدير مزدان بأشجار الحور ، فى حى راكوتيس بقرب قبر الاسكندر .

ففتحت له الباب جارية سوداء شمطاء مثقلة بالحلىّ ، وسألته عما يريد ، فأجابها :

— أروم رؤية تاييس ، والله يشهد انى ما أتيت إلى هنا إلا لرؤيتها .

وأبصرت الجارية أنهُ يلبس ثوباً فاخراً ، ويتكلم بأبّهة السيادة ، فسمحت له بالدخول ، وقالت :

— تجد تاييس فى كهف العذارى .

زاد الحزن وجه تاييس حسناً واشراقاً ، وشعر الجمهور بامتنان نحوها لتمثيلها أمامه أهواء الحياة وأشكالها فى رقة فائقة . وسامح بافنوس زهوها الحالى اكراماً لاتضاعها المقبل ، وأثنى على نفسه سلفاً من أجل القديسة التى سيضمها عما قريب الى شعب السماء !

* * *

وقارب المشهد الختام . فسقطت هيكوبا كالميتة ، وتقدمت پوليكسنا ، يقودها عوليس ، إلى القبر المحوط بصفوة رجال الحرب . وصعدت مزفوفة تراتيل الحزن المؤثرة ، إلى قمة الهضبة حيث قدم ابن أشيل الخمر فى كأس ذهبية إلى طيف البطل . ولما مدّ المقربون أذرعهم ليمسكوا بها أشارت اليهم برغبتها فى الموت طليقة غير مقيدة . كما يليق بسليلة الملوك مثلها ، ثم مزقت قميصها وكشفت عن موضع قلبها ، فغيّب فيه پروس حسامه وقد حوّل رأسه ، ففاض الدم ، بحيلة فنية باهرة ، متدفقاً من صدر العذراء الناصع ، وسقطت بحياء وخفر منحنية وقد نكس رأسها ، وغارت عيناها من تأثير الموت وهوله .

كفّن المحاربون الضحية وغطوها بالزنبق وشقائق النعمان فى برهة ملىء الجو فيها بصيحات الفزع والأنين والتأوهات . فنهض بافنوس واعتلى مقعده وتنبأ بصوت جهورى كالرعد ، هذه النبوءة :

— أيها الذين كفروا وعبدوا الشياطين ! أيها الأريوسيون ، وأنتم أشد طغياناً من الوثنيين ! تعلموا ! ان ما ترون الآن إن هو إلا مثال ورمز ؛ هى خرافة تشتمل مغزًى دينياً سامياً . فان المرأة التى مثّلت امامكم التضحية سوف تقبل الموت باغتباط فى سبيل الإله المبعوث[1]

---

(١) يريد به السيد المسيح .

— حاولى أن تؤثرى فى قلب عوليس القاسى ، كلميه بدموعك وجمالك وشبابك !

فأرخت تاييس ، أى پوليكسنا ، باب الخيمة ، وخطت خطوة فاستولت على كل القلوب . ولما تقدمت نحو عوليس بخطى ثابتة سريعة ، بعثت حركاتها المتوازنة ، المرتبطة بأنغام الناى الشجية ، فى أذهان الحضور كلهم أحلاماً لذيذة . فأحسوا كأنها هى المحور الإلهى الذى تدور حوله أنظمة الكون جميعاً ! فلم يروا أحداً سواها ، وكسفت أنوار جمالها كل ما عداها ، ولم يحظ الممثلون الآخرون بأدنى التفات . ثم استمر التمثيل .

أدار « ابن ليرت » الحصيف رأسه ، وأخفى يده تحت معطفه ، ليتحاشى نظرات الفتاة المتضرّعة وقبلاتها ، فأشارت اليـــه العذراء ألاّ يخافها ولا يخشاها ، وقالت بلسان نظراتها الهادئة :

— انى أمَتُـك يا عوليس ! سأتبعك خاضعة للقضاء ، لأنى راغبـة فى الموت . أنا ابنة بريام وأخت هيكتور التى كانت يوماً جديرة بالملوك فلن أرضى سيداً أجنبياً — انى بملء الرضى أنبذ الحياة !

وكانت هيكوبا جاثيـة على التراب ، فنهضت فجأة وعانقت ابنتها عناق اليأس والقنوط ، فأبعدت پوليكسنا ، بلطف لا يقاوم ، ذراعى أمها عنها ، وكأنها تقول :

— لا تعرضى نفسك يا أماه لعدوان السيد ، لا تنتظرى منه شفقة ولا رحمة ، أيتهـا الأم المحبوبة ، هاتِ يدك ذاتِ الغضون وقربى خديك الضامرين إلى شفتىّ !

وظهرت تاييس بعد أن رفعت بيدها البيضاء ستار الخيمة ، ثم لبثت واقفة بلا حراك كتمثال بديع ، وألقت من عينيها البنفسجيتين نظرات الدلال والخيلاء ، ففتن جمالها الباهر كل قلب ، وأحسّ كل من شاهدها برجفة أثارت فيه عوامل الشفقة والحنان .

وارتفعت من الحاضرين أصوات الاستحسان ، حتى أن بافنوس عقد يديه فوق صدره ، وشدّ على فؤاده مفتوناً ، وتنهد متأوهاً ، وقال :

— ربى ان هذا سلطان شديد ، لواحدة من خلقك ، على عبادك !

وكان دوريون أقل تأثراً منه فقال :

— حقاً إن الذرّات التى تألفت منها هذه المرأة كوّنت تركيباً بديعاً يسر النظر . وليس ذلك إلا إحدى دعابات الطبيعة وهى تلهو وتلعب . فالذرات لا تدرك ما تكونه ، وسوف ينحل بعضها عن بعض وتفترق كما اتحدت ، أى بغير شعور بالاتحاد ولا بالتفرق . وأين الذرات التى تكوّنت منها لاعيس أو كليوبطرا ؟ لست أنكر أن النساء فى بعض الأحيان جميلات ، لكنهن جُعلن عرضة للقبح والثقل والقذارة ! !

هذه مسائل تشغل عقول المفكرين ، فى حين أن العوام لا يعنون بها ولا يلتفتون اليها . النساء يضرمن الحب فينا ويوحينه الينا . ولكن الهيام بهن مخالف للعقل والحكمة .

كذلك فكر الفيلسوف ، وكذلك فكر الزاهد فى تاييس ، واتبع كلٌّ منهما سبيل خواطره ، فلم يلحظا اتجاه هيكوبا الى ابنتها وقولها باشاراتها :

وكانت الموسيقى تارةً تعصف وتثور ، وتارةً تئن وتنوح ، وهي تماشي إحساس الجمهور وعواطفه . فصفق الحضور طرباً واعجاباً إلا بافنوس ، الذى يعزو كل شيء الى الله الحق ، فانه قال :

— من هذه القصة نرى كيف كانت قسوة الذين عبدوا الآلهة الباطلة !

فأجابه الأبيقورى :

— ان الأديان كلها تلد الجرائم ! ولحسن الحظ ، أوتى اغريقى الحكمة ، فخلّص الناس من مخاوف المجهول التى لا أساس لها . . .

وهنا غادرت هيكوبا الخيمة التى كانت فيها أسيرة وهى شعثاء الشعر ، ممزقة الثوب . فارتفعت تأوهات عالية من قلوب الحاضرين حين شاهدوا صورة شقائها مجسمة . وكانت هيكوبا قد أنذرت برؤيا صادقة . فبكت واستبكت لنفسها ولابنتها ، فدنا منها عوليس وسألها أن تسلم پوليكسنا ، فشدت شعرها بيديها ، وخدشت خديها بأظافرها ، وقبلت يدى ذلك الرجل الغليظ القلب الذى خاطبها بقوله :

— تعقلى يا هيكوبا واخضعى لحكم الضرورة . فان فى منازلنا أيضاً أمهات عجائز يبكين أطفالهن الذين ناموا تحت أشجار صنوبر إيدا نوما ابدياً

أما كسندرا التى كانت يوماً ملكة آسيا الغنية ، وأصبحت الآن جارية ، فانها حثت التراب على رأسها .

ثم رُفع ستار الخيمة . وظهرت العذراء پوليكسنا . فسرت فى المشاهدين جميعاً هزّة إذ عرفوا أنها تايس . وأبصر بافنوس ثانية المرأة التى جدّ فى طلبها .

يقول لهم : « ما هذا يا أبناء دانوس ، أتعودون إلى الأرض التى لن أراها ثانية ، وتغادرون قبرى بغير أن تقدموا اليه الذبائح والقرابين ؟ »

فاجتمع فوراً قواد الأغريق حول سفح الهضبة ، وبينهم اكناس بن تزيس ، ونستور الشيخ ، وأغاممنون يحمل الصولجان وعلى جبينه عصابة — وجعلوا يتفرسون فيما حدث . وكان پيروس ابن اشيل الصغير ساقطاً على الأرض ، واتضح من حركات عوليس ، المعروف بقلنسوته التى يظهر من تحتها شعره الجعدُ ، انه راض بما يطلبه طيف البطل ، وكان يحاور أغاممنون ، واستطاع المتفرجون أن يفهموا أقوالهما من اشاراتهما ، وحسبوا ملك اتيكا يقول :

— ان أشيل يستحق منا كل إعظام وتكريم ، وهو الرجل الذى مات أشرف ميتة فى سبيل اليونان ، وهو يطلب العذراء پوليكسنا ابنة پريام ليضحى بها على قبره ، فيا أيها اليونانيون ! ادخلوا السرور على طيف البطل واجعلوا ابن پيليه يفرح فى مقرّه الأبدي .

لكن ملك الملوك أجاب :

— لنبقينَّ على عذارى طرواده اللواتى أنقذناهنَّ من المذابح ، فكفى ما نزل من الإحن والمصائب بالجنس البريامى الجليل .

قال ذلك لأنه كان يهوى أخت پوليكسنا ويقاسمها مضجعها . فعيَّره عوليس الحكيم أنه يفضل فراش كساندرا على رمح أشيل .

وأخيراً ، وافق اليونانيون على اقتراح عوليس بأن قرعوا أسلحتهم بعضها ببعض . وتقررت تضحية پوليكسنا ، فاطمأنت روح أشيل واختفى طيفه مغتبطاً .

معلقة فى مسمار من العاج . وأرادت الآلهة أن تبقى الريحانة شاهدة على هذا الشقاء ، تحمل فوق أوراقها الغضة المتجددة وخزات الدبوس الى نهاية الدهور . وقد قطفت إحدى هذه الأوراق ووضعتها فوق مضجعى زجراً للنفس عن التطوح فى مهامه الحب ، مستعيناً بحكمة أبيقور استاذى العظيم الذى من تعاليمه أن الشهوة مخوفة . وصفوة الكلام أن الحب داءٌ محتوم لا خلاص منه غالباً .

فسأله بافنوس :

— فيم مسراتك إذاً يا دوريون ؟

فأجاب دوريون باكتئاب :

— لي لذة واحدة ، هي التفكير . وليس لذي معدة ضعيفة مثلي أن يبحث عن سواها .

فانتهز بافنوس هذه الفرصة ، وبدأ يُعرّف الأبيقورى بالمسرات الروحية الناشئة عن مناجاة الله والتأمل فى ذاته العلية . فقال :

— استمتع للحق يا دوريون وتلق النور . . . !

فما لبث أن رأى الرؤوس والأذرع تتجه اليه من كل صوب تأمره بالسكوت . وخيم على الملعب سكون عميق أعقبته نغمات الموسيقى الحماسية .

بدأت الألعاب ، وشوهدت الجنود تغادر الخيام وتستعد للرحيل ، وعندئذ حدث أمرٌ عجيب رهيب ، إذ غطت سحابة قمة الهضبة ثم اتقشعت وظهر طيف « أشيل » فى درع من ذهب ومد ذراعه نحو المحاربين كأنه

بألسنة من معدن تزيد فى جهارة الصوت ، والمطولات التى كان يلبسها الممثلون فتبلغهم طول الآلهة ، وجلال المأساة والقصائد التى كانوا يتغنون بها — هذه كلها قد امّحت ، وحل الممثلون الصامتون ، والراقصات السافرات محل پولوس وروسكيوس . تُرى ماذا كان الأثينيون معاصرو پركليس يقولون لو أنهم رأوا امرأة تبدو للعيان ؟ ان سفور المرأة عيب ، ولا ريب أن رضانا به تقهقر وانحطاط ، حقًّا ، ان المرأة هي عدو الرجل الطبيعيُّ وسوءة الوجود .

فأجاب بافنوس :

— أصبتَ ! فان المرأة أشدُّ أعدائنا ، لأنها تملك قياد اللذات ، وهذا سر قوتها المخيفة .

فصاح دوريون :

— وحق الآلهة إن المرأة لا تمنح الرجال لذة بل تجلب الحزن والنَّصَب ، والهموم الساحقة ! الحب مصدر آلامنا المحرقة ! اسمعنى أيها الأجنبى :

ذهبتُ فى صباى الى تيريزنا بأرجوليد ، ورأيت هناك ريحانة كبيرة الحجم مثقَّبة الأوراق ، ويقول سكان تيريزيا عنها : انه لما هامت الملكة فيدروس بحب هيپوليتس ، قضت سحابة يومها جاثية فى ضنى وكلال تحت هذه الشجرة . وفى أثناء ضجرها وإعيائها أخذت دبوسها الذهبى الذى يمسك شعرها الأشقر ووخزت به أوراق الشجرة ذات الشذى العطرى . وبعد أن صادت الرجل البرىء الذى نصبت له شرك هواها ، ماتت فيدروس شر ميتة كما تعلم ، فقد أغلقت باب مخدعها وشنقت نفسها بمنطقتها الذهبية

النحل دوى من نصف الدائرة حيث جلس المشاهدون ، وقد تحوّلت وجوههم المحمرة ، من انعكاس الثياب القرمزية عليها ، نحو ذلك المكان الرحب الصامت بهضبته وخيامه . وكان النساء يضحكن وهن يأكلن الليمون ، وكان المترددون على الملعب يتلاقون فيتعارفون بابتهاج وابتسام.

صلى بافنوس فى نفسه ، وأمسك عن لغو الكلام ، لكن رفيقه أخذ ينتقد الملعب ، ويشكو من تأخر حاله ، فقال :

— قديماً كان الممثلون البارعون يلقون من تحت الوجوه المستعارة أشعار يوريبيدس ومناندر . أما الدراما فلا تُلقى الآن وإنما يقلدونها بإشارات كأنهم صم بكم ، ولم تبق لنا من المشاهد السامية التى وُضعت إكراماً لباخوس فى أثينا إلا ما يستطيع أن يفهمه الرجل الساذج ، لأنه ليس سوى مظهر وإشارة ، اما برفع المأساة الذى كان موضع الفم فيه مجهزاً

(تكريم باخوس ، إله الخمر ، في أثينا)

ثم نهض وسار يفكر فى الحلم الذى رآه ويقول فى نفسه :

ــ ان هذا الحلم شر ظاهر ، انه يسيء الى العزة الإلهية بتمثيل الجحيم كأن ليس له ظل من الحقيقة ، حقاً أن هذه أضغاث أحلام من عمل الشيطان !

وبينما كان يعاتب الله على تخليه عنه وتركه لسلطان الشيطان ، كانت تدفعه جماهير من الناس تسير مسرعة فى طريق واحد . ولما لم يكن معتاداً السير فى المدن فانه تعثر فى طيات ثوبه وسقط غير مرة .

وأراد معرفة مقصد أولئك الناس فسأل أحدهم عن سرّ هذه العجلة فأجابه :

ــ ألا تعرف أيها الغريب أن الألعاب ستبدأ ، وأن تايبس ستمثل ؟ هؤلاء كلهم ذاهبون إلى الملعب وأنا ذاهب اليه مثلهم . فهل تروق لك صحبتي ؟

ففطن بافنوس إلى أن رؤية تايبس فى العابها توافق خطته ، وتبع الرجل الغريب .

وكان الملعب أمامهما مزداناً ايوانه بصور الوجوه المستعارة الزاهية ، وعلى سوره تماثيل لا تحصى . فتبعا الجمهور ودخلا دهليزاً ضيقاً فى نهايته مدرج تسطع فيه الأنوار . فجلسا فى أحد الصفوف . وكان المسرح بادياً فى أجمل زينة وأبدع مثال ولا يزال خالياً . ولم يك ثمة ستار يحجب المشهد ، وكان على المسرح هضبة كالتى كان يقيمها الأقدمون لأرواح أبطالهم . وكانت هذه الهضبة فى وسط معسكر . وقد وضعت أمام الخيام حزم الرماح ، وعُلقت التروس الذهبية على الأعمدة بين أكاليل من الغار وتيجان من أوراق شجر البلوط ــ يخيم عليها جميعاً السكون . لكن دوياً كأزيز

— انه جل شأنه لا يفعل شيئاً عبثاً . فعقابهم يقتضى إنارة بصائرهم فاذا ملكوا ناصية الحق أصبحوا كالمجانين .

عاد بافنوس يطل ثانية على الهاوية . وقد طار لبه روْعاً وفزعاً . فرأى طيف نسياس تحت الريحان المحترق يبتسم وجبينه متوج بالزهر وبجانبه « اسپازيا » (١) تختال بدلال ورشاقة فى ثوبها الصوفى ، يلوح عليهما أنهما يتكلمان معاً فى الحب والفلسفة ، وعلى محياهما سمات الملاحة والنبل . وكان سيل النار يتساقط عليهما كأنه برد وسلام . وكانت أقدامهما تطأ الأرض المضطرمة وكأنها العشب الندي . فاهتاج بافنوس لهذا المنظر هياجاً شديداً وصاح :

— عدلك يا رب ، عدلك ! أنزل مقتك وغضبك ! هذا نسياس ، دعه يبكى ويتوجع ! اجعل أسنانه تصطك . انه جنى على تاييس !

واستيقظ بافنوس بين ذراعىّ بحار قوى كهرقل كان يحمله ليضعه على الرمل وهو يقول له :

— هدوءًا وسلاماً أيها الصاحب ! بحق « پرونيه » إلـه البحر ، إنك تضطرب فى نومك ! ولو لم أكن قد أمسكت بك لسقطت فى « الاينوستوس » . فلا تشك فى اننى أنقذت حياتك ، كما لا أشكُّ فى أن أمى تبيع الفسبخ ! !

فأجابه بافنوس بقوله :

الحمد لله !

---

(١) زوجة بركليس المشهورة بالحسن والمعرفة . وكان يتردد على بيتها الفلاسفة ومشاهير الكتاب ومن بينهم سقراط .

الشيخ انا جزاجور ، وكان أصلع أشيب ، يرسم بالفرجار أشكالاً فى التراب ، وهناك شيطان يصب الزيت الغالى في اذنه وهو جاد فى عمله !

ورأى الراهب فيما رأى ، طائفة من الناس على جانب وادى السعير ، يقرأون ويتحدثون فى اطمئنان وهدوء ، وهم يتنزهون كما يفعل الأساتذة والطلبة فى ظل أشجار الأكاديمي ! !

وهناك على حدة ، وجد الشيخ تيموكليس قد اتخذ مكاناً قصيًّا ، يهز رأسه هزة الجحود والانكار ، وبجانبه أحد زبانية الهاوية يحرك شعلة أمام عينيه ، وتيموكليس لا ينظر اليه !

عقدت الدهشة لسان بافنوش فالتفت إلى الوحش واذا به قد اختفى ، ورأى مكانه امرأة مقنعة قالت له :

— انظر واعتبر بهؤلاء المشركين فأنهم خالدون فى جهنم ، فرائس الأوهام التي أغوتهم وأضلتهم فى الحياة الدنيا . لأن الموت لم يكشف الغشاوة عن بصائرهم ليروا . فما الموت بكاف لرفع الحجاب عن الحقيقة . والذين كانوا فى الحياة جاهلين سيبقون فى الجهل خالدين . وما أولئك الشياطين الذين يشتدون فى تعذيب تلك النفوس سوى صور محسوسة يتجلى فيها العدل الرباني . لهذا ترى تلك النفوس عاجزة عن رؤيته والشعور به لأنها بعيدة عن كل حق فلا تدري قضاء الله عليها وتعمى عن الصواب .

فقال كاهن انصينا :

— ان الله على كل شيء قدير ! !

فأجابت المرأة المقنعة :

بالغناء، لكني ما لبثت أن أدركت مبلغ حماقتي فلم تغلبني إلهة البحر على أمري.

ثم جلس على ربطة من الحبال وما لبث أن أستغرق فى النوم ، ورأى رؤيا : خُيِّل اليه فيها أنه يسمع نفخاً في صورٍ ، ورأى السماء حمراء كأنها صُبغت بالدم ، فعلم أن الساعة قد أتت وحانَ يوم الحساب . وفيما هو يضرع إلى الله بحرارة ، رأى وحشاً هائلاً يتقدم اليه وعلى جبينه صليب من نور ، فعرف فيه أبا هول سيلسيليه . فأمسكه الوحش بين فكيه من غير أن يصيبه بأذى وحمله في فمه كما تحمل القطة صغارها وقطع به ممالك عديدة عابراً الأنهار ، مجتازاً الجبال ، حتى أتى مكاناً قفراً مغطى بالصخور الضخمة والرماد الحارّ ، وكانت الأرض مشققة في عدة مواضع يخرج من فوهاتها لهيب وبخار ، فأنزله الوحش على الأرض برفق وقال له :

— انظر !

فأشرف بافنوس من حافة الهاوية فرأى وادياً من النيران يتلظى فى جوف الأرض بين جرفين من الصخور السوداء . وشاهد الزبانية تسوم أرواح الخاطئين سوء العذاب . وقد احتفظت تلك الأرواح بمظاهر أشكالها الجسدية حتى ان قطعاً من النسيج كانت لا تزال عالقة بها . وأدهشه انه كان يبدو على هذه الأرواح علامات الطمأنينة فى هذا العذاب الذى يكابدونه . ومنها روح طويلة القامة ، بيضاء مغمضة العينين ، على جبينها عصابة وبيدها صولجان . غنّت ، فملأ صوتها الوادى الجدب بألحان موزونة ، وشدت بذكر الآلهة والأبطال ، وكانت العفاريت الصغيرة الخضراء تحرق شفتيها ونحرها بحديد محمى . . وظل طيف هوميروس يغنى . . ! ! وعلى مقربة منهُ ،

وكان كلما فكر فى ذلك يزداد ميلاً إلى انقاذ تاييس من وسط الفجّار. وما كان ينقصه إلاّ أن يراها لينتشلها من بينهم. غير أنه كان لا مناص له من التريث حتى يعتدل الجو، إذ كانت الشمس لا تزال رأد الضحى. فسار بافنوس فى شوارع البلد الآهلة، وقد اعتزم الامساك عن الطعام فى هذا النهار حتى يكون أهلاً لما يلتمسه من عون الله ورضاه. وكان لشدة حزنه لا يجرؤ على دخول كنيسة من كنائس المدينة لعلمه بأنها ملوثة بدنس الآريوسيين الذين قلبوا موائد الرب. وكان امبراطور الشرق يشد أزر هؤلاء الهراطقة الضالين الذين طردوا اثناسيوس بعد أن ألقوه عن كرسى أسقفيته، وبثوا الفتن بين نصارى الاسكندرية.

فسار معتسفاً، تارةً يلقي بنظره إلى الأرض فى اتضاع وخشوع، وتارةً يرفع بصره إلى السماء فى تجلي الانجذاب. وبعد أن سار قليلاً على غير هدى وجد نفسه على رصيف من أرصفة المدينة. وكان الميناء يضمّ سفناً عديدة والبحر يموج معجباً بلججه اللجينية الزرقاء. وكان هناك مركب يحمل فى مقدمته «بنت البحر»، وقد رفع البحارة مرساه وهم يغنون ويشقّون صدور الأمواج بمجاذيفهم؛ ولم تلبث السفينة البيضاء المغطاة باللؤلؤ الرطب، أن أصبحت فى عيني الراهب أثراً بعد عين، وأبحرت يقودها ربّانها في مضيق حوض «الاينستوس»، وأوغلت فى عباب البحر الزاخر تجرّ وراءها ذيلاً من الزبد.

فقال بافنوس فى نفسه:

— لقد تمنيت أنا أيضاً أن أمخر عباب أوقيانوس العالم رافعاً عقيرتى

الشهوات الأرضية السافلة ، وإشراب قلبها حب المسيح لتكون عروسه . وإذا لم يفارقنى الروح القدس ، فستغادر تاييس هذه المدينـــة اليوم لتدخل الدير .

فأجاب نسياس .

ـــ احذر أن تغضب « الزُّهَرة » ، إنهـا إلهة قادرة . إن أنت حرمتها أبدع عبادها ، أوغرت صدرها عليك !

فقال بافنوس :

ـــ ان الله سيقيني ويدفع عنى الســـوء . وعسى ربى أن ينـــير قلبك يا نسياس ، ويرفعك من الهوة التى تتردَّى فيها .

وخرج ، فتبعه نسياس حتى أدركه بالباب ووضع يده على كتفه وهمس فى أذنه مكرراً قوله :

ـــ حذار أن تغضب الزّهرة ، فانتقامها شديد !

على أن بافنوس لم يعبأ بهذا النذير وخرج طاوياً عنه كشحه . فلم تبعث فيه أقوال نسياس إلا الاشمئزاز والاحتقار . وقد أحفظه جداً ، إذ علم أن صديقـه نال حظوة عند تاييس . وخيل اليه أن ارتكاب الخطيئـة مع هذه المرأة أشنع وأشد هولاً منه مع أية امرأة أخرى ! كان يرى في هذا الشر مخزاة مستنكرة على مثله ، وأصبح نسيـاس عنده مبغضاً حقيقاً باستنزال اللعنات . كان من طبعه كراهية الرجس ، ولـكنه تمثل هذه الرذيلة فبدت له بأفظع مظاهرها . وما سبق له آن شاطر من صميم قلبه المسيح فى غضبه ولا الملائكة فى حزنها كما شاطرهم الآن ،

فأجاب نسياس :

— لست أظن شراً ولا سوءًا ، لاعتقادي أن الناس متساوون فى العجز عن فعل الشر والخير . فالخير والشر لا يتمدَّان حدَّ الظن والتقدير . وليس لدى الحكيم لأسباب الدعوى سوى العادة والعرف ، انى أحبّذ الآراء الشائعة فى الاسكندرية فى عهدنا هذا . وذلك هو سبب اعتبار الناس إياي رجلاً شريفاً أميناً . فاذهب يا صاحبي وتمتع بما أخذت كيف شئت .

لكن بافنوس استحسن أن يطلع مضيفه على حقيقة الأمر ، فقال :

— أتعرف تاييس ، تلك التى تمثل فى المسرح ؟

— امرأة جميلة فتانة ! وقد كانت يوماً ما عزيزة جدًّا عليَّ ، حتى انى بعت فى سبيل هواها طاحونة وحقلين كانا يزرعان حنطة ! وأكرمتها بثلاثة دواوين من الشعر مشحونة مراثى سقيمة ! حقاً ان الجمال هو أعظم قوة فى العالم ، فانه اذا قدّر لأحدنا أن يظفر به الى الأبد ، أعار « الخالق » و « الكلمة » و « الخلود » أقل ما يمكن من المبالاة ! على انى أعجب يا بافنوس الصالح لمجيئك من أعماق طيبة لتتحدث عن تاييس .

ثم تنهد ، فرشقه بافنوس بنظرة الذعر والخوف ، لأنه لم يخطر بباله قط أن رجلاً يمكنه أن يقترف مثل هذا الإثم بمثل ذلك الهدوء . وتوقع أن يرى الأرض قد انشقت وابتلعته . لكن الأرض لم تنشق . وبقى الاسكندرى الصامت معتمداً رأسه يبتسم بمرارة لتذكارات شبابه المدبر . فوقف الراهب وأجاب بصوت جهورى .

— اعلم يا نسياس انى أروم بمعونة الله إنقاذ تاييس من حضيض

من الإيمان بسميّه القديم ؟ ولكن دعنا من هذا، إنك لم تأت على ما أظن، للجدل فى الأقانيم الثلاثة. فخبرنى عمّا أستطيع القيام به لك أيها الرفيق العزيز.

فأجابه كاهن انصينا :

— أعرنى حلة معطرة ، كتلك التى تلبسها ، ومنّ علىّ بنعال مذهبة وقارورة ملئت زيتاً لأطيّب به لحيتى وشعرى . وزد على ذلك سفطاً فيه الف درهم . هذا ما أتيتك فى طلبه يا نسياس حباً فى الله واكراماً لعهد صداقتنا القديم .

فدعا نسياس بجاريتيه كروبيل ومرتال ، فأحضرتا أفخر حلّة له ، وكانت موشاة على الطراز الأسيوى بصور الزهر والحيوان . فأمسكتها المرأتان ونشرتاها بحذق بحيث بدت ألوانها البرّاقة ، وأمهلتهاه حتى يخلع مسوحه التى تغطيه من رأسه إلى قدميه . فأعلن الراهب أنه يفضل تمزيق لحمه إرْباً إرْباً على أن يخلع مسوحه . فسترتا المسوح بتلك الحلة . ومع ان كروبيل ومرتال كانتا من طبقة الرقيق ، إلاّ أنه كانت لهما على الرجال دالّة الحسن ، فطفقتا تضحكان من الهيئة الغريبة التى أصبح الراهب فيها . ودعته كروبيل مولاها العزيز ، بينما كانت واقفة أمامه بالمرآة . وشدت مرتال لحيته . غير أن بافنوس كان يصلى لله ، ويغض عنها بصره . ولما احتذى النعال المذهبة وشد السفط إلى حزامه قال لنسياس الذى كان ينظر اليه باسماً :

— أي نسياس ! يجب ألاّ تكون الأشياء التى تراها معرّة فى نظرك . كن واثقاً أننى سأحسن استخدام هذا الثوب ، وهذا السفط ، وهذه النعال ، واعمل بها عملاً صالحاً .

ثم أخذ بذراع ضيفه وقاده إلى بهو فيـــه آلاف من أوراق البردي مركومة فى سلال وقال :

ـــ هذه مكتبتى . وهى تحوى شيئاً يســـيراً من الآراء التى ابتدعها الفلاسفة لتفسير ألغاز هذا الكون . ان مكتبة الاسكندرية بكل غناها لا تحويها كلها . وا أسفاه ! ليست هذه سوى أحلام قوم مرضى !

وأرغم ضيفه على الجلوس على مقعد من العـــاج ، وجلس هو أيضاً ، فألقى بافنوس على الكتب نظرة المغتمّ وقال :

ـــ يجب أن تحرق كلها !

فأجابه نسياس :

ـــ انها تكون خسارة يا ضيفى الكريم ! فأحلام المرضى تكون بعض الأحيان مسليـــة . فضلاً عن انه إذا اعدمت كل أحلام الناس وتخيلاتهم فقدت الأرض زينـــة أشكالها وبهجة ألوانها ، وكان نصيبنا جميعاً الرقاد فى خمول محزن .

لـكن بافنوس استطرد قائلاً :

ـــ من المحقق أن تعاليم الوثنيين ليست إلاّ تُرّهات فارغة . لـكن الله وهو الحق بآيات بينات ، قد تجسد وعاش بيننا .

فأجاب نسياس :

ـــ ما أفخم كلامك عن تجسّده أيها العزيز ! لعمرى أن إلهاً يفكر ويعمـل ويتكلم ويمرح حسب الطبيعـة ، كما كان شأن عوليس العتيق على البحر الأخضر ـــ إن هو إلا إنسان عريق . وكيف يخطر ببالك أن تؤمن بجوبيتَر هذا الجـديد ، فى حين أن صبية أثينـا ، فى عصر بركليس ، فرغوا

ثم التفت إلى النساء وقال :

— يا كروبيل ويامرتال ضمخا بالطيب قدمى ضيفى العزيز ويديه ولحيته.

فابتسمتا واقبلتا عليه بابريق وقنانى ومرآة معدنية . ولكن بافنوس وقفهما باشارة الآمر، ثم غض من بصره كى لا يراهما ،لأنهما كانتا عاريتين، وجاءه نسياس بالوسائد ، وقدم اليه طعاماً وشراباً مختلفى الألوان ، فرفضها بافنوس كلها بازدراء وقال :

— اعلم يا نسياس اننى لم أهجر ما سميته خطأً بالخرافات المسيحية ، والتى هي بلا ريب حقيقة الحقائق : « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله . كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان . فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس . . . »(١)

فأجابه نسياس وهو يرتدى جلباباً معطراً :

— أتظن يا عزيزى بافنوس أنك تدهشنى بذكر أقوال مشوشة فارغة ، لا معنى لها ولا طعم ! أنسيت أننى أنا نفسى فيلسوف إلى حد ما ؟ أيخيل اليك أنك تستطيع اقناعى ببعض خرق مُزّقت من ثوب اميليوس الارجوانى ، فى حين أن اميليوس وبورفير وأفلاطون فى أوج مجدهم ما استطاعوا اقناعى ؟ ! ان المذاهب التى أنشأها الحكماء ليست سوى حكايات اختلقت لتسلية طفولة الناس الخالدة ، ويجب أن نلهو بها كما نلهو بحكايات الحمار ، ودنّ النبيذ ، وماترن الافيوسى ، أو أية أسطورة أخرى من الأساطير الميلزية .

---

(١) من الانجيل المقدس (يوحنا الاصحاح الاول والعدد الاول)

ولكزه العبد بعصاه . فتلقى الضربة على وجهه ساكناً ساكتاً ، وكرر قوله بلطف :

— أرجو يا بنيّ أن تؤدي رسالتي إلى سيدك .

فارتجف البواب ، وقد أوجس خيفة مما رأى ، وتمتم قائلاً :

— تُرى من يكون هذا الرجل الذي لا يخشى الألم ؟

وانطلق ليخبر مولاه .

كان نسياس خارجاً من الحمام ، والجوارى الجميلات يمسحن جسده بأدوات التدليك . وكان رجلاً رشيقاً بشوشاً ، يجمع محياه بين حلاوة الدعابة ومرارة التهكم . فلما أبصر الراهب ، تقدم اليه مفتوح الذراعين هاتفاً :

— هذا أنت يا بافنوس ! رفيقى فى طلب العلم ، صديقى ، أخى ! آه ! لقد عرفتك مع أنك — والحق يقال — قادم فى صورة أشبه بالوحوش منها بالبشر . أتذكر أيام كنا ندرس معاً النحو والبيان والفلسفة ؟ كنت فى ذلك الحين ذا مزاج فظ وحشى . ولكننى أحببتك لإخلاصك الذى لا تشوبه شائبة . وكنا اعتدنا أن نقول عنك أنك تنظر إلى الكائنات بعيني جواد غضبان نفور ، ولم يكن جماحك ونفورك بالشيء المدهش . فلم تكن على جانب كبير من رقة القدماء . ولكن كرم أخلاقك لم يكن له حد . لم تكن تضن بمالك ولا تبخل بحياتك . وكنت على خلق شاذ وعبقرية حببتك إليّ وجعلتنى أميل اليك كل الميل . أهلاً بك أيها العزيز بافنوس ، ومرحباً بك بعد فراق عشر سنين ! لقد غادرت الصحراء وزهدت فى خرافات المسيحية وخزعبلاتها والآن تعود إلى حياتك الأولى . ان اليوم ليوم ميمون !

منهم أفلاطون وسقراط وارسطو وابيقور وزينون .

قرع الباب ولبث ينتظر وهو يفكر في « أن من العبث أن يمجد المعدن هؤلاء الحكماء المزيفين ، فترّهاتهم باطلة ، وأرواحهم في نار الجحيم تلظّى ، وافلاطون الشهير نفسه الذي ملأ الأرض بدوي فصاحته ، يجادل الآن الزبانية في جهنم » !!!

ففتح الباب زنجي . ولما رأى رجلاً حافي القدمين يطأ فسيفساء العتبة قال بخشونة :

ـــ اذهب أيها الراهب الهزأة ، واستجد في غير هذا المكان ، ولا تنتظر حتى أطردك بالنبوت .

فأجابه كاهن انصينا :

ـــ لا أسألك شيئاً إلا أن تأخذني إلى سيدك نسياس .

فأجابه العبد وهو يمعن في حنقه :

ـــ حاشا لسيدي أن يلقى الكلاب أمثالك .

فأجابه بافنوس :

ـــ تفضل يا بني وافعل ما طلبتـــه إليك . أخبر مولاك أني راغب في رؤيتـــه .

فصاح البواب الساخط متهيجاً :

ـــ اخرج من هنا أيها المستجدى الملحاح !

اللهم بارك فى هؤلاء الأطفال المساكين !

واستمر فى طريقه مردداً ما يجول بخاطره :

ــ لقد احترمتنى تلك العجوز ، وامتهننى أولئك الصبيان ، وكذا الشىء الواحد يقدَّر على وجوه مختلفة من الناس الذين هم عرضة للخطأ فى أحكامهم . فيجب التسليم بأن الشيخ تيموكليس مع أنه كافر ، لم يكن خلواً من الإدراك ، إذ أنه يعرف أنه محروم النور على الرغم من كونه أعمى . ان كل شىء فى هذه الدنيا سراب خادع ، وظلٌّ زائل ، ولون حائل . والثبات لله وحده .

* * *

اجتاز بافنوس المدينة سريع الخطا ، وتذكر بعد غيبته عشر سنوات كل حجَر فيها ، وكان كل حجر لديه فضيحة تذكره بمعصية . فطفق يطأ حجارة الطريق حافياً بعنف ، وكان يبتهج كلما تركت قدماه الممزقتان أثر دمائهما عليها .

ثم سار عن يمين أروقة معبد السراپيس الفخمة ، فى طريق محفوف بالقصور المنيفة التي كانت كأنها تنطف عطراً . وهناك أشجار الصنوبر والاسفندان شامخة برءوسها فوق الطنوف الحمراء وقواعد التماثيل المذهبة . ورأى من خلال الأبواب تماثيل من النحاس في أروقة من المرمر ، وخيوطاً من الماء النافر ترقص بين أغصان الشجر . ولم يك ثمة صوت يكدر صفو سكون هذه الوحدة الرائقة ، سوى أنغام ناي بعيدة . فوقف الراهب أمام منزل صغير بديع التقسيم ، قائم على أعمدة كأنها لحسن صنعها فتيات . ومزدان بتماثيل نصفية من البرونز لأشهر فلاسفة اليونان ، عرف بافنوس

الشامخ ، وكان على تساميـــه وخيلائه يتربع فى ظله الفقراء البـائسون ، يستجدون المارّة وهم يتأوهون أو يبيعونهم التين والليمون .

وكانت هناك عجوز جالسـة فى اطمار باليـة ، فأمسكت بمسوح الراهب وقبلتها وقالت :

ـــ أى رجل الرب! باركني ليباركني الرب القد ذقت من العيش أمرّه ، وكابدت آلاماً كثيرة فى هذه الدنيا ، وأريد أن أحظى بالمسرات فى الآخرة ، انك آتٍ من عند الله أيها القديس ، لذلك أعدّ تراب قدميك أغلى من التبر

فقال بافنوس :

الحمد لله !

ورسم بيده علامة الفداء على رأس العجوز ، وسار فى طريقه . على أنه لم يكد يبتعد قليلاً حتى اعترضتـه شرذمة من الأطفـال جروا وراءه مستهزئين ، ورجموه بالطوب وهم يصيحون : .

ـــ يا للراهب الخبيث ! انه أسود من القرد الأسخم ، وأقبح التحـاءً من تيس ! يا له من غبي مستميت ! لمـاذا لم ينصبوه لعيناً [1] فى حقـــل لتخويف العصافير ؟ لـكن لا ! ان وضعـــه هناك يجلب البرَد على زهر اللوز ! انه يجلب النحس والشؤم ! اصلبوا الراهب ! اصلبوه !

وانهالت عليه الحجارة مع صيحاتهم ، فتمتم بافنوس :

---

(١) اللعين ما ينصب في الزرع بهيئة رجل لطرد الطيور والوحوش

وكان كلما رأى شجرة مزهرة أو طائراً غرداً ، فكر فى تايبس . وهكذا سار على ضفة النيل اليسرى ، بين البقاع الخصبة الآهلة ، حتى وصل بعد أيام إلى الاسكندرية ، التي لقبها الاغريق بالجميلة والذهبية . وكان الفجر قد تبلج منذ ساعة فلاحت له المدينة الرحبة العظيمة من مرتفع ، تتلألأ قبابها فى ضباب الصباح الوردى . فوقف وضم ذراعيه الى صدره ، وقال :

— إذن ، هذا هو المقرُّ البديع الذى تمخض بي في الخطيئة ! وهذا هو الهواء الذى منه استنشقت العطور السامة ! وهذا بحر الشهوات الذى فيه سمعتُ أغانيَّ بناته ! هوذا مهدى الجسدى وموطني العالمي ! وانه في نظر الناس لمهد الورد والزهر ، ووطن المجد والفخر . ليس عجيباً أيتها الاسكندرية أن يعزك بنوك كأم رءوم . وقد نشأتُ فى أحضانك ذات الرواء وشببت فى ربوعك ربة البهاء . بيد أن الزاهد يستخف بالطبيعة ، والصوفى يزدرى الظواهر ، والمسيحى ينظر إلى وطنه الدنيوى كأنه منفى ، والراهب يعرض عن الدنيا ! أيتها الاسكندرية ! لقد حولتُ قلبي عنك ، فأنا أكرهك وأمقتك لغناك ، لعلمك ، للذاتك ، لجمالك ! لعنة الله عليك يا معبد الشياطين ، يا مضجع الفجّار ! يا منبر الاريوسيين الموبوء ، عليك اللعنة ! وأنت يا ابن السماء ، يا من هدى أبانا الناسك ، القديس أنطوان ، لما أتى من مجاهل الصحراء ودخل معقل الوثنية هذا ليثبت إيمان المهتدين ، ويشد أزر المستشهدين . يا ملك الرب الجميل ، أيها الطفل غير المنظور ، يا نفحة الله الأولى ، حلق أمام عينى وعطّر برفرفة جناحيك الهواء الفاسد الذى سأستنشقه عما قريب مع مردة الشر وأبالسة الظلام .

قال ذلك واستمر فى طريقه ، ودخل المدينة من باب الشمس ، الحجرى

فقال : اذن فالوداع يا تيموكليس التعس !

ثم تنهد تنهداً عميقاً واستأنف سُراه تحت ستر الغسق .

رأى فى الصباح سرباً من « أبي قردان » واقفاً على ساق واحدة لا يتحرك عند حافة المياه التي تعكس ظلّ أعناقه الوردية ، وقد بسطت أشجار الصفصاف أوراقها الغضة الرمادية على الشاطىء إلى مدى بعيد ، وكانت الكراكى تطير على شكل مثلث فى السماء الصافية الأديم ، ومن بين عيدان القصب يتردَّد نواح مالك الحزين . والى آخر ما تستطيع العين أن ترى يتلاطم النهر فى لجّته الخضراء وفوقها الأشرعة البيضاء كأنها أجنحة الطير . وهنا وهناك تنهض على الشاطىء بيوت بيضاء يغشاها ضباب خفيف . وفى ظلال الجزر المثقلة بالنخيل والأزهار والثمار يدوى صياح أسراب البط والأوز والنحام والشرشير . والى اليسار يمتد الوادى الخصيب حتى الصحراء تتمايل حقوله وجنّاته طرباً . والشمس تصبغ السنابل بالذهب ، وقد فاح عَرف التربة المخصبة وعبق شذاها .

ولما رأى بافنوس ، فى روعة هذا المنظر ، برهان وجود ربه ، خر ساجداً يقول :

— تبارك الله الذى وفّقني فى سفرى ! سبحانك أنت الذى أنزل نداه على أشجار التين ، أنزل غفرانك يا إلهى على روح تاييس التي برأتها ، وفى أحسن صورة صورتها : لا تقل عن زهر الخمائل وأشجار البساتين ! دعها يا إلهى تزهر بعنايتى شجيرة ورْد بلسمية ، فى بيت مقدسك السماوى !

فى طيبات هـــذه الدنيا ، وجعلني أعيش فى وحدة وسكون اقتداءً بالهنـــدي .

وكان بافنوس يصغى بانتباه لحكاية الشيخ ، فأجاب :

حقاً يا تيموكليس القوصي ، ان كل ما قلته غير بعيـــد عن الصواب . فمن الحكمة ازدراء متاع هـــذه الدنيا ، ولكن ازدراء النعيم الأبدي ، وتعريض النفس بذلك لغضب الله ، لمن الجنون . انني أرثي لجهـــلك يا تيموكليس ، وسأهديك إلى الحق ، وأقودك إلى محجّة الصـــواب ؛ فإنك إذا علمت أن الله موجود فى ثلاثة أقانيم ، أطعت هـــذا الإلـــه كما يطيع الإبن أباه . . .

فقاطعه تيموكليس بقوله ،

— كفى أيهـا الغريب ! كفى شرحاً وتبياناً لتعاليمك . لا نحاول أن تكرهني على قبول آرائك ، فكل جدل عقيم . ورأيي ألا يكون لي رأي . إني أعيش خلواً من الهموم ما دمت لا أُفاضل بين الأشياء . سرْ فى طريقك إذن ولا تعالج تحويلي عن الجمود المحمود الذي يغمرني كأني فى حمّام منعش بعد مشاغل أيامى المرهقة .

وكان بافنوس راسخ القدم فى أصول الإيمان . ولشدة اختباره لقلوب البشر عرف أن تيموكليس الشيخ قد عدته رحمـــة الله ، وان يوم خلاص تلك النفس الخاسرة لم يحن بعد ، فلم يجب خشية أن تنقلب التبصرة تهلكة . فقد يحدث أن مجادلة الكافرين تزيدهم تمرُّداً وعصيـاناً بدلاً من أن تردّهم مؤمنين ، ولهذا ينبغي لمن هم على الحق أن يذيعوه بفطنة وحذر .

هذه العاطفة أن تحولت الى جُنّة مستعرة وولع شديد . على أن الكورية أبغضتهما كليهما وهامت بزمّار كانت تخلو به ليلاً في مخدعها حيث ترك ذات صباح تاجه الذي اعتاد لبسه في المآدب . فلما وجده أخواي أقسما على قتل صاحبه . وفي اليوم التالى قتلا الزمار ضرباً بالسياط ، ولم تشفع له دموعه ولا توسلاته . ففقدت زوج أخي رشدها من القنوط ، واصبح هؤلاء الثلاثة البائسون كالوحوش يهيمون على شواطيء قوص . وكانوا من شدة جنونهم يعوون كالذئاب ، يعلو الزبد أشداقهم ، وتحدّق في الأرض أبصارهم ، والأطفال يضجّون من حولهم ويرمونهم بالحجارة ، إلى أن ماتوا ودفنهم أبي بيديه . ولم يلبث أن أبت معدته تناول الطعام فمات جوعاً ، مع أنه كان لوفرة غناه يستطيع شراء ما يُشتهى في أسواق آسيا من لحم وفاكهة . وكان يتميز غيظاً من توريثي ثروته التي بددتها بعد موته فى الأسفار . فزرتُ ايطاليا وبلاد اليونان وأفريقيا ، فلم ألق قط عاقلاً ولا سعيداً . درست الفلسفة في أثينا والاسكندرية حتى أصابتني جلبة الحوار بالدوار . ولما وصلت أخيراً إلى الهند ، رأيت على شاطىء نهر الكانج رجلاً عارياً ، متربعاً في مجلسه لم يفارقه منذ ثلاثين عاماً ، وقد علقت بجسمه الضامر النباتات المتسلقة وعششت الطيور فى شعره ، وهو باق حياً . ذكرت لرؤيته تيماسّا والزمار وأخويّ وأبي ، وأدركت أن هذا الهندي حكيم ، وقلت لنفسي : « الناس يتألمون لأنهم محرومون ما يظنونه خيراً ، وإذا نالوه خشوا أن يفقدوه . أو لأنهم يعانون ما يظنونه شرًّا . فاذا بطل كل اعتقاد من هذا القبيل زالت جميع الشرور » . هذا هو السبب الذي حال دون اعتباري شيئاً نافعاً ، وحملني على الزهد

ـــ وماذا يهمك من حجة كلب راقد فى الوحل ، وقرد مفسد ؟

ولما لم يكن لبافنوس سوى غرض واحد ، هو تمجيد الله ، فقد ذهب غضبه ، واعتذر بخشوع قائلاً : ـــ

ـــ اعفُ عني يا أخي الشيخ ! إن غضبتي للحق حملتني على تجاوز حدود الأدب . ويشهد الله أني ما مقت شخصك ولكنني استنكرت خطيئتك ، ولشدّ ما يؤلمني أن أراك تتسكع في ظلمات الضلالة مع اني أحبك في المسيح ، ورغبني في خلاصك تشغل بالي . تكلم ! ادلِ إليّ ببراهينك، أني مشوق إلى معرفتها لأفندها .

فأجابه الشيخ بهدوء :

ـــ أن ميلي إلى الكلام كرغبتي في السكوت ، على أني سأدلي إليك بحججي دون أن أسألك حججك ، فأنك لن تستميلني بأي حال من الأحوال. أنا لا أبالي بسعادتك أو شقاءك ، وسواء لديّ السبل التي تتجه اليها آراؤك . وكيف أحبك أو أكرهك . والميل والنفور كلاهما لا يليق بالحكيم ؟

أما وقد سألتني فاعلم أن اسمي « تيموكليس » ، وأنني قد ولدت في « قوص » من ابوين أثريا من الصناعة . وكانت صناعة أبي تسليح السفن ، وكان ذكاؤه يضارع كثيراً ذكاء الاسكندر الملقب بالأكبر . وكان لي أخوان اتخذا صناعة أبينا ، أما أنا فقد احترفت الحكمة . وأكره والدي أخي الكبير على الزواج بامرأة كورية تدعى « تياسًا » ، فلم ترقه ولا طابت له عشرتها . ثم أن تياسا هذه أغرت شقيقنا الصغير على عشق أثيم . ولم تلبث

أسلم بها . تبدو لي الشمس منيرة ، ولكن طبيعتها خافية عليّ ، وأرى النيران تشتعل ، لكني لا أعرف كيف ولمَ . انك عاجز عن إدراك فكري، ولكن هذا لا يهمني .

— أسألك ثانية لماذا تعيش مكتفياً بالبلح والبصل فى البادية ؟ لماذا تقاسي شظف العيش والحرمان ؟ إنني أتحمل مثل هـذه الشدائد ، وألق ما تلق ، ولكني أفعل هذا إرضاء لله تعالى لكيما أستأهل فى الوحدة السعادة الأبدية! فمن المعقول أن يتعذب المرء لقاء أجر كبير ، ولكن من الجنون أن يعاني الإنسان بمحض إرادته مشقات لا فائدة منها . فلو لم أكن مؤمناً — غفرانك لهذا التجديف أيها النور الذي لم يولد — فلو لم أكن مؤمناً بحقيقة تعاليم الله بلسان أنبيائه وببينة ابنه ، وأعمال رسُله ، وأحكام المجامع ، وشهادة الشهداء المختومة بدمائهم ، ولو لم أعلم أن تعذيب الجسد واجب لتطهير النفس ، أو كنت مثلك أجهل أسرار الدين ، لعدتُ تواً إلى العالم وسعيت لاحراز الغنى لأعيش في ترف ورفاهية كالسعداء فيه ، ثم أصيح فى اللذات قائلاً : هلم يا بناتى ! هلم يا خوادمى ! تعالين جميعاً واسكبن خموركنّ ورحيق غرامكن وعطوركن . ولكنك أيها الشيخ المأفون تمنع نفسك كل الطيبات فتخسر دون أن تكسب شيئاً ، تعطي ولا أمل لك فى أن تستردّ شيئاً مما أعطيت ، وتقلد بسخف أعمال نساكنا العجيبة كقرد وقح يثبّج على الحائط معتقداً أنه يحاكى أمهر الراسمين . فيا أغبى الناس ما حجتك ؟

قال بافنوس هـذا بحدّة وعنف ، لكن الشيخ لبث هادئاً ، وأجاب بصوت رقيق : —

بالمسيح ؟ لماذا تحرم نفسك متاع الدنيا إذا لم تكن تطمع فى نعيم الآخرة ؟

— أيها الغريب ! أنني لا أحرم نفسي شيئاً . ويسرني أني اهتديت إلى عيشة راضية ، وان كانت الحياة خلواً من الطيّب والرديء جميعاً . والحقُّ ان الحياة ليس فيها شيء مما يقـــال له شرف وعار ، وعدل وظلم ، ولذة والم ، وحسن وسوء . ولـكنَّ الناس خصُّوا هذه الأشياء بأوصافها كما يعطي الملح للطعام مذاقاً خاصاً .

— ففي رأيك إذاً ان ليس ثمة يقين ؟ انك تنـكر الحقيقة التي نشدها الوثنيون أنفسهم . انك غارق فى جهالتك كما يغرق الكلب المضنى من التعب في الوحل !

— أيها الغريب ! لا فائدة من سبِّـك الكلاب والحكماء ! إنا لا ندري ماهيَّـة الكلاب ، ونجهل ماهية أنفسنا . ولسنا ندري شيئاً . . .

أتـُرَاكَ إلى جماعة اللا أدريين تنتسب ؟ أأنت إذاً أحد أولئك البائسين المعتوهين ، الذين ينكرون الحركة والسكون معاً ، ولا يميزون بين نور الشمس الساطع وظلام الليل الحالك ؟

— أجل اني « لا أدري » يا صاحبي ، وأنتسب إلى طائفة ، إذا كانت فى رأيك مدعاة للسخرية ، فهي في رأيي جديرة بالاعتبار ، لأن الأشيـاء نفسها لها مظاهر عديدة . فاهرام منفيس تبدو فى مطلع الفجر مخاريط من ضياء وردي ، لـكنها تلوح عند غروب الشمس مثلثات حالكة السواد فى السماء المتقدة كشعلة من نار . فمن ذا الذي يستطيع أن يسبر غورها ويدرك كنهها ؟ أنت تعيّرني إنكار الظواهر ، والظواهر هي وحدها الحقائق التي

— يا سبحان الله ! أتجهل من أنبأت به الأنبياء ، واعترفت باسمه الرسل والشهداء ، وعبـــده قيصر نفسه ؟ ومنذ وقت قصير أنطقتُ أبا الهول بتمجيده ، أفيمكن أنك لا تعرفه ؟

— نعم يا صاحبي هذا ممكن ! وقد يكون يقيناً إذا كان فى الدنيا يقين

فدهش بافنوس ورثي لشدة جهل هذا الرجل وقال له :

— إذا لم تكن تعرف السيد المسيح فمظاهر تقواك لا تجديك فتيلاً ، ولن تنال الحياة الأبدية .

فأجابه الشيخ الهرم .

— عبثاً يأملُ المرء ، سواءٌ سعى أو لم يسع! وسيان عندي الحياة والموت !

— وا عجباً ! أترغب عن الحياة الخالدة ؟ ألست تسكن صومعة فى هذا القفر مقتدياً بالزاهدين ؟

— في الظاهر !

— ألا تعيش عارياً محروماً كل شيء ؟

— فى الظاهر !

— ألست تتغذى بالجذور ؟ ألست متعلقاً بأهداب العفة ؟

— في الظاهر !

— أوَ لم تنبذ لذّات العالم ؟

— الحق أني زهدت فيها لأني رأيتها شغل الناس الشاغل !

— إذن أنت مثلي في الزهد والتقشّف والطهر ، ولكنك لست مثلي في محبة الله ، وطلب سعادة السماء . فلماذا تتمسك بالفضيلة إذا لم تكن تؤمن

فلا ألبث أن ألقى الرجل وأرى أن أهب له قبلة السلام مقتدياً بالقديس المتنسك « انطوان » الذي عانق « بولس الزاهد » ثلاث مرات وهو مارّ !! وسوف نتكلم فى الأبديات ، وربما أنزل الله علينا خبزاً بواسطة غراب فيتفضل بدعوتي لتناول شيء منه !

ثم دار حول الكوخ معللاً نفسه بهذا الأمر باحثاً عن الناسك . ولم يسر إلا قليلاً حتى رأى رجلاً متربعاً على ضفة النيل . وكان الرجل عارياً، وشعر رأسه ناصع البياض كلحيته ، وكان لون جسده شديد الحمرة كلون الآجرّ ، فلم يشك بافنوس فى أنه هو الناسك ، وحياه بتحية الرهبان المعتادة عند اللقيا :

— السلام لك يا أخي ! أمتعك الله بلذات النعيم المقيم !

فلم يجب الرجل ، ولبث بلا حراك كأنه لم يسمع ، فظن بافنوس أن سكوته ناشيء عن حالة الانجذاب الذي اعتاده القديسون ، فركع بجانب الرجل المجهول ، مشبك الأنامل ، وظلّ هكذا يصلي حتى الغروب . ولما رأى أن رفيقه لم يحرك ساكناً قال : —

إذا كنت قد فرغت يا أبتِ من حالة التجلي التي أراك فيها ، فباركني باسم سيدنا المسيح !

فأجابه الرجل دون أن يلتفت إليه :

— أيها الغريب ! لا علم لي بما تعنيه ، ولا أعرف هذا السيد المسيح !

فصاح بافنوس :

فى الصحرآء ، واعترف بألوهية يسوع ، لكيما أباركك باسم الآب والابن والروح القدس !

ولما فاه بذلك سطعت عينا أبي الهول بضوء وردي ، وارتعشت جفون الأسد الغليظة ، وباحت الشفتان الصوانيتان بتأوه — كصدى صوت إنسان — باسم يسوع المسيح . . . وعندها مدّ بافنوس يده اليمنى وبارك أبا هول سيلسيليه !

* * *

استأنف سفره بعد ذلك ، وانفسح الوادي أمامه فرأى أطلال مدينة عظيمة لا تزال المعابد باقية فيها ، تسندها الأصنام بدل العمُد . وقد ألقت هذه الأصنام نظرات طويلة ثابتة على بافنوس ، امتقع لها واضطرب ! وهكذا سار سبعة عشر يوماً ، كان غذاؤه الوحيد فيها بعض الأعشاب والثمار يأكلها فجّة غير ناضجة . وكان يقضي ليله في خرائب القصور مع قطط برية وجرذان فرعونية ، وخلائق لها صدور أنثوية وأعطاف مائية كأنها عرائس بحرية . لكن بافنوس أدرك أنها خرجت اليه من الجحيم فأقصاها برسم علامة الصليب على وجهه ! !

وفى اليوم الثامن عشر رأى كوخاً حقيراً بعيداً عن القرى مصنوعاً من سعف النخيل ، مطموراً إلى نصفه فى الرمال التي سفتها رياح البادية . فجاءه آملاً أن يجده مأهولاً ببعض المتنسكين الصالحين . ولم يكن له باب ، فرأى فيه جرة وركام بصل وفرشاً من الهشيم فقال فى نفسه:

— هذا متاع ناسك ، والزاهدون لا يبعدون كثيراً عن أكواخهم ،

الهندي ، ارتجف فأسدل غطاء رأسه على عينيه حتى لا يشاهد جمال الكائنات !

وبعد مسير ستة أيام وصل إلى مكان يدعى « سيلسيليه » حيث يجري النهر في وادٍ ضيق تحدّه من جانبيه جبال الجرانيت ، هناك تحت المصريون أوثانهم ، أيام كانوا يعبدون الأبالسة . فوجد بافنوس رأساً هائلاً لأبي هول لا يزال قائماً بين الصخور . فخوفاً من أن يكون إبليس قد نفخ فيه من روحه الشيطانية ، رسم علامة الصليب وفاه باسم يسوع ، فطار للحال خفاش من إحدى اذني الصنم ، فعلم بافنوس أنه قد طرد روح الشر الذي سكنت التمثال عدة أجيال ! فازدادت حماسته ورفع حجراً ضخماً قذفه في وجه التمثال . فاستبان إذ ذاك في تقاطيعه كآبة حركت في نفس بافنوس عامل الحنان والشفقة . والواقع أن صورة الحزن البادية على هذا الوجه الحجري كانت كفيلة بأن تؤثر في أقسى الناس قلوباً وأغلظهم أكباداً وأشدهم جموداً

من أجل هذا خاطب بافنوس أبا الهول بقوله :

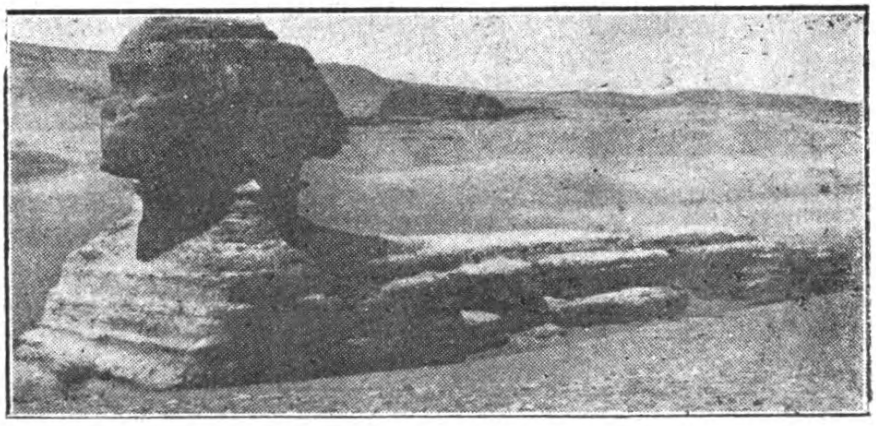

أيها الوحش ! اتبع مثال الجياد والمعز الآدمية التي رآها أبونا انطوان

لا تدنّس الحيوانات التي تعيش فوق الرمال أو الطيور التي تحلق في الفضاء، الكتاب المقدس الذي حفظه في رأس مضجعه ! ودعا الشماس فلاڤيان ليستودعه تلاميذه الثلاثة والعشرين . واكتفى بوضع عباءة طويلة من الوبر ، وسار والنيل قاصداً أن يمشي محاذياً الشاطيء الليبي حتى المدينة التي أسسها اسكندر المقدوني . وبدأ السير عند انبثاق الفجر فوق الرمال مستهيناً بالتعب والجوع والعطش ، وكانت الشمس تحت الأفق حين رأى النهر الرهيب زاخر الموج مخضوباً بالدماء بين صخور الذهب والنيران . سار على الشاطيء مستعطياً بالخبز لوجه الله عند أبواب الأكواخ المنفردة ، متلقياً الانتهار بابتهاج ، غير خائف من اللصوص ولا الوحوش الضارية ، ولكنه توخى أن يتنكب القرى والأمصار التي في طريقه . فقد كان يخشى أن يلقى الأولاد يلعبون أمام منازل آبائهم بالكعاب ، أو يرى الصبايا في جلابيب زرقاء ، يملأن جرارهن مبتسمات . فكل هـــذه أشياء خطرة على الناسك تركبه الغَرَرَ ! بل كان يتهيب أحياناً أن يقرأ في الكتاب المقدس أن « معلم اللاهوت[1] » ذهب من مدينة إلى مدينة وتعشى مع تلاميذه ! فالفضائل التي يطرزها الرهبان بعناية على نسيج إيمانهم ، سريعة التلف بقدر ما هي بديعة ، فان نسمة من نسمات الحياة العادية قد تقتم ألوانها الزاهية . ولهذا امتنع بافنوس عن دخول المدن خشية افتتان يصيب القلب ، أو جوَر يلمّ بالنفس من جراء مرأى البشر .

فانطلق يضرب في الطرق الموحشة . وكلما أمسى فداعب النسيم شجر التمر

---

(١) هو السيد المسيح عليه السلام .

تايس للشياطين الذين يحظون بها . اللهم اهدني سواء السبيل وهيّىء لى من أمري رَشَداً .

وبينا كان في طريقه رأى كيروانا واقعاً في شباك نصبها صياد على الرمال، وأدرك أن الطائر أنثى . لأن الذكر أقبل محلقاً حول الشبكة وقطع عيونها واحدة بعد واحدة بمنقاره إلى أن أحدث فتحةً كافية لخروج رفيقته ونجاتها . فتأمل رجل الله هـــدا المنظر ، ولكونه يستطيع ، بفضل إيمانه وتقواه ، قراءة خفايا الأشياء ، تمثل له أن الطائر الأسير تايس ، واقعة في حبائل الرذائل ، وعلى ذلك ـ طبقاً لمثل الكيروان الذي قطع عيون الشبك بمنقاره ـ يجب أن يقطع بالأقوال المؤثرة البليغة القيود الخفية التي تربط تايس بالكبائر . ولهذا حمد الله وثبت على تصميمه الأول . ولكنه عندما رأى الكيروان واقعاً هو نفسه ، منشباً أظفاره في الشبك الذي قطعه ، عاد ثانية إلى تردده وارتيابه .

فبات مسهداً أرقاً لم يذق طعم النوم سواد ليله ، ورأى عند الفجر رؤيا . ظهرت له تايس مرة أخرى . لم تبدو على وجهها أية علامة للأهواء الضالة أو الملاذّ التي يمازجها الاثم ، ولا كانت مرتدية كعادتها شفوفها المهلهلة ، بل كانت في بُردة تغطيها كلها وتحجب بعض وجهها بحيث لم يستطع الراهب أن يرى سوى عينين تفيضان بالدموع السخينة البيضاء .

بدأ يبكي لرؤية هذا المشهد ويعول أعوالاً . وجرى في ظنه أن هـــذا الحلم وحي من عند الله ، فطلّق التردد ، ونهض لساعته وتناول عصاً معقدة، هي رمز العقيدة المسيحية ، وغادر صومعته . وأغلق الباب بعناية حتى

ـــ لست سوى آثم منكود يا أخي بافنوس . لكن أبانا أنطوان اعتاد أن يقول : « حيثما كنت ، لا تتسرع بمغادرة مكانك إلى مكان سواه » .

ـــ أترى يا أخي پالمون خطأ ما في مسعاي الذي اعتزمت ؟

يا بافنوس الوديع ، أعاذني الله من اتهام مقاصدك يا أخي ! لكن أبانا أنطوان قال أيضاً « كما أن السمك الذي يوضع فوق أرض جافة يموت ، كذلك يضل النساك الذين يغادرون صوامعهم ويختلطون بالعالم فيبتعدون عن طريق الخير » .

وبعـــد هذا القول نكت الشيخ پالمون الأرض بمعوله ، وبدأ يحفر التربة حول شجرة تفاح مثقلة بثمارها . وبينما كان يحفر قفزت وعلة متخطية سياج الحديقة عائثة بالأوراق ووقفت في دهش بلا حراك ، مرتعدة المأبض، ثم بلغت الشيخ الهرم بوثبتين وغطت رأسها البديع في حجر صـــديقها . فقال پالمون :

ـــ أسبح بحمد الله في غزالة الصحراء !

ثم مضى إلى كوخه يتبعه الحيوان الرشيق فأحضر خبزاً أسود أكلته الغزالة من راحته .

ولبث بافنوس شاخصا ببصره إلى حجارة الطريق ، ثم قفل راجعاً يبطء إلى صومعته يفكر بعناية فيما سمع وقال ، وقد تنازعت ذهنه الأفكار :

ـــ لعمري أن هـــذا الزاهد نافذ الرأي بصير ، وانه لحصيف حذور . فقد ارتاب في صواب فكرتي ، غير أنه من القسوة أن أتخلى بعد الآن عن

في قلب رجل متدين . فلو أنه بعث لنا التجارب والغوايات في سياق الفرح والمسرة لما كان مخوفاً نصف هذا الخوف . وا أسفاه ! إنه بارع في إيلامنا ، متفنن في تعذيبنا . أوَ لم يظهر لأبينا ، أنطوان ، طفلاً أسود جميلاً إلى حد أن رؤيته استذرفت دموعه ؟ على أن أبانا نجا بمعونة الله من الوقوع في حبائل الشيطان . وانني لأعرفه مدى الزمن الذي قضاه بيننا طروباً منشرح الصدر مع تلاميذه ولم يك قط كئيباً . لكن ألم تأت يا أخي لنتحدث عن خطة هيأتها في نفسك ؟ إن اطلاعك اياي عليها فضل منك متى كانت لتمجيده تعالى .

— أخي پالمون ، إنني راغب حقيقة في تمجيد الله ، فاشدد أزري بمشورتك ، فأنت عالم مستنير لم يحجب الاثم قط نور فطنتك !

— يا أخي بافنوس ، إنني لست جديراً بأن أحلَّ شراك نعلك ! فان آثامي كرمال الصحراء لا تحصى ولا تُعدّ ، غير أني بلغت من الكبر عتيّا فلن أرفض أن أكون عوناً لك بتجاربي .

— إذاً سألقي اليك همومي وأحزاني يا أخي پالمون ، فاني ليحزنني التفكير في أن هناك بمدينة الاسكندرية غانية تدعى تايس ، تعيش في الخطيئة ويلاً على الناس ومذلةً لهم .

يا أخي بافنوس إن هذا في الحقيقة لرجس محزن ، وإن النساء اللواتي يحيين هذه الحياة بين الوثنيين لكثيرات ، فهل فكرت في علاج لهذا الداء ؟

— سأذهب يا أخي پالمون في طلب هـــذه المرأة بالاسكندرية ، وسأهديها إلى الحق بعون الله . هذه هي خطتي ، فهل تقرني عليها يا أخي ؟

فرد عليه الراهب بالمون بقوله

— وعليك السلام يا أخي بافنوس !

ثم مسح عرق جبينه بكمه

— أي أخي بالمون . ليكن موضوع حديثنا حمد الإله الحي ، الذي وعد بأن يكون بين الذين يجتمعون باسمه ، هذا هو غرضي من المجيء لأحادثك عن خطة لتمجيد الرب .

— بارك الله في خطتك يابافنوس مثلما بارك في خَسّي ! فهو في كل صباح يسبغ عليّ نعماءه بسكب الندى على حديقتي ، وإن رحمته لتدعوني أن أسبح بحمده على ما يمنحني من القثاء والقرع . دعنا نضرع اليه أن يكلأنا برعايته وينزل على قلبينا السلام ! فليس ثمّ ما يخيف أكثر من المشاعر التي تتعب القلوب فلا يلبث المفتونون بها أن يكونوا كالسكارى يترنحون يميناً وشمالاً وهم على وشك السقوط المزري في هوة الشقاء . لقد تغمرنا هذه الانفعالات بفرح مفرط . والذي ينهمك في هذه الغوايات يكون هزأةً تضحك منه البهائم ضحكاً يتردد عالياً في أجواز الفضاء . ولكن قد تطرحنا فتن الروح والحواس فى كآبة مضنية ، وهذه أشأم ألف مرة من الفرح . أي أخي بافنوس ، لستُ الا خاطئاً تعساً ، ولكني وجدت في أثناء حياتي الطويلة أن ما من عدو أعدى للراهب من الكآبة . اعني الكآبة المستعصية التي تغشى الروح كالضباب وتحجب نور الله . وما من شيء مثلها ينافي الراحة والسلام ، وان أعظم نصرة للشيطان أن ينفث الزيغ والنزعات السوداوية

يروعني إلى حـــد أن شعر رأسي يقف رعباً . سيبقى اشفاقي عليها عظيماً كذنبها ، وكلما ازدادت طغياناً زدت حناناً . انني أبكي حين أفكر في أن الزبانية سوف يعذبونها في نار جهنم ، التي كلما خبتْ زادوها سعيراً .

وأنه لكذلك إذ رأى ابن آوى صغيراً مقعياً عند قدميه ، فأدهشه ذلك كثيراً لأن باب صومعته كان موصداً منذ الصباح . ولاح على الحيوان أنه قرأ ما جال بخاطر الكاهن ، فحرك ذنبه كالكلب ، فرسم بافنوس علامة الصليب فاختفى الحيوان . وهنالك علم بأن الشيطان قد دخل حجرته للمرة الأولى ، فصلى صلاة قصيرة ثم عاد ففكر فى تاييس وقال :

ـــ يجب أن أنقذها بعون الله !

ثم نام .

* * *

في صبيحة اليوم التالي ، بعد الصلاة ، زار القديس « پالمون » الذي كان يعيش في دار قريبة عيشة الترهُّـب والزهـــد ، فألفاه هادئاً مطمئناً ضاحكاً مستبشراً ، يفلح حديقته كعادته . وكان پالمون شيخاً هرماً له حديقة تنتابها الوحوش الضارية تلحس يديه ، ولم تقربه قط الشياطين . فقال پالمون وهو مستند إلى فأسه .

ـــ حمداً لله يا أخي بافنوس !

فأجاب بافنوس

الحمد لله ، والسلام عليك يا أخي !

الا فيك وحدك ، لأنها تفنى جميعاً وأنت وحدك الحي القيوم . فاذا كنت قد عنيت بهذه المرأة فذلك لأنها صنع يديك ، وإن الملائكة أنفسهم ليتوجهون اليها بعناية واهتمام . ألم تكن يا إلهي نفحة من روحك ؟ ان عليها أن تضع حدًّا لما ترتكبه من الخطايا مع أهل البلاد والغرباء . لقد انبعث في قلبي شعور عطف زائد نحوها ، إن ذنوبها لفظيعة ، وإن مجرد التفكير فيها

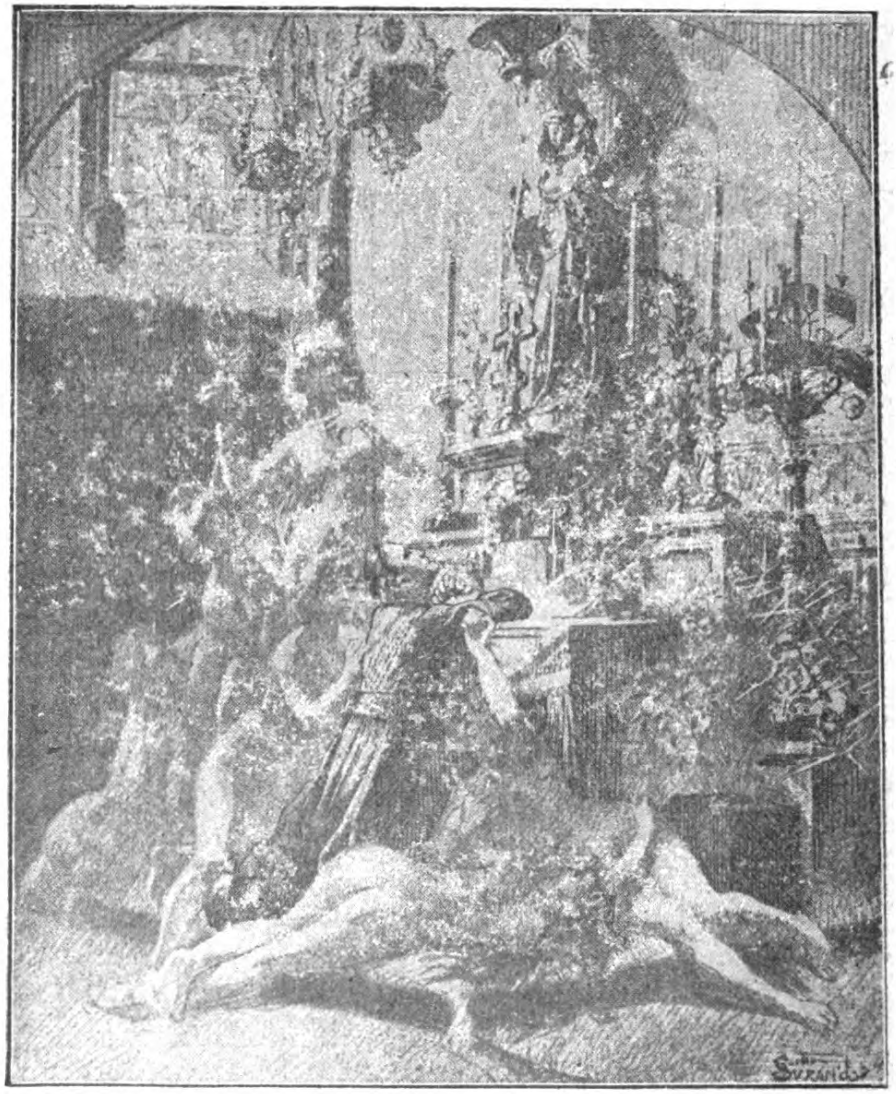

فى حينها لا يستطيع أن يميز بين ما ينفعه وما يضره ، وكانت نزعاته باطلة .

* * *

أما وقد ركع بافنوس فى صومعته أمام صورة ذلك الصليب المقدس المعلق عليه « فديةُ العالم » فقد بدأ يحلم بتايس التي كانت معصيته ، وقد فكّر طويلاً ، بحسب الطقوس الدينية ، فى قبح الملاذ الدنسة المروّعة ، تلك اللذات التى أوحتها اليه هذه المرأة فى أيام التخبط والجهل . وبعد تفكير عدة ساعات تراءت له صورة تايس بجلاء تام ، فرآها ثانية جميلة الجسد كما كانت حين نصبت له حبائل الغواية ، فظهرت له أولاً مثل « ليدا » راقدة فوق مضجع من حجر يمان ، ناكسة الرأس ، مغرورقة العينين المملوءتين نوراً ، باسمة ، ترتجف شفتاها وثدياها ، كزهرتين . وزنداها كجدولين ، فضرب بافنوس صدره عندئذ وقال :

أدعوك ربي لتشهد على شعوري بشناعة خطيئتي !

ثم غيرت الصورة شيئاً فشيئاً ملامحها . إذ زاد ابتسام ثغرها فافتر عن ألم خفى ، وامتلأت عيناها النجلاوان دموعاً ونوراً . وجعل صدرها يعلو وينخفض بالتنهدات وهي تزفر زفيراً يشبه أول هبوب العاصفة . فاضطرب بافنوس لهذا المنظر اضطراباً شديداً أثر فى صميم قلبه ، وخرّ ساجداً رافعاً هذه الضراعة :

— أنت يا من أشربتَ قلوبنا رحمةً مثلما أشربت الرياض ندى الصباح ! أيها الإلـه العادل الرحيم ! تباركت وتعاليت ! انزع من قلب عبدك هذا الحنان الباطل الذي يؤدي إلى الشهوة . وأوزعنى ألاّ أحب مخلوقاتك

وفي العشر سنين التي قضاها بعيداً عن البشر لم يغل في قزان الشهوات الجثمانية ، بل استفاد بمعالجة نفسه ببلسم التقشف .

* * *

وحدث يوماً أن فكر كعادته في ما مضى من حياته بعيداً عن الله ، وعرض خطاياه الواحدة تلو الأخرى ليدرك شناعتها . فتذكر أنه رأى منذ بضع سنين فى ملعب الاسكندرية ممثلة ساحرة الجمال تدعى « تاييس » . كانت تمثل فى الألعاب أدواراً شتى . ولم تكن تتحرج من رقص يثير في النفس بحركاته أقوى الشهوات . ويعرض نفس المرائي لأشنع الرغبات . وتبدو في مشاهد مخجلة ، مما ألصقه الكافرون بالزهرة وليداً پاسيفه . فكانت تشعل نيران الشهوة فى جميع المشاهدين . وكان يختلف اليها الشبان المدلهون والشيوخ الأغنياء المغرمون ، يعلقون أكاليل الزهر ببابها . فكانت ترحب بهم وتنيلهم منها ما يشتهون . فأضاعت بضياع نفسها نفوساً أخرى عديدة .

وكان بافنوس نفسه من المعجبين بها . فقد أضرمت نار الصبابة فى قلبه ، وأشعلت لهيب الشوق فى نفسه . فاقترب ذات مرة من بيتها لكنه وقف بالباب وصدّته الجبانة واحتجزه التهيّب الفطري في الشباب الغضّ (كان في الخامسة عشرة من عمره) وكان تحرجه كذلك خشية أن يُزجر لخلو ذات يده ، إذ كان أبواه يأبيان عليه البذل الكثير . ومن رحمة الله أن قيض له ذلك استنقاذاً له من وزر كبير . بيد أن بافنوس لم يحمده تعالى لأنه كان

* * *

وُلدَ بافنوس فى مدينة الاسكندرية من أبوين نبيلين وتأدب بأدب الدنيا ، ولشد ما أضلته أكاذيب الشعراء ! وكانت تلك الأكاذيب مغالطة لعقله مشوشة لأفكاره فى ريق صباه . حتى أنه صدق أن طوفاناً قد أغرق الجنس البشري كله فى عهد ديوقليس ! وجادل رفاقه في الدرس في طبيعة الله ، وصفاته ، ووجوده . ثم استرسل فى الخلاعة ، وكانت تلك بدعة الخارجين على الدين . وكان لا يذكر ذلك العهد من حياته إلا بخجل واشمئزاز .

واعتاد فى تلك الأيام أن يقول لأخوانه : « لقد غليت في مرجل اللذات الكاذبة » !

يريد بذلك أنه أكل اللحم المطبوخ جيداً ، واختلف إلى الحمامات العامة!

ودرج على سنن الحياة في عصره حتى بلغ العشرين ، وهذه المدة أجدر أن تسمى بالموت منها بالحياة . ولكنه بعد أن تهذب على يدي الكاهن « ماكرين » خُلق خلقاً آخر وعاد رجلاً جديداً .

وكذلك تغلغل الحق فيه ونفذ في روحه - كما كان يقول - كالحسام ! فاعتنق عقيدة الصليب وعبد المسيح المصلوب . وبقى سنة أخرى بعد تعميده ، بين الخوارج مقيداً بسلاسل العادة .

ففى ذات يوم سمع واعظاً فى كنيسة يقرأ من الكتاب المقدس آية مؤداها : « إذا شئت أن تكون كاملاً فاذهب وبع ما تملك واعط الفقراء ثمنه » فباع من فوره متاعه وأنفق ثمنه فى وجوه البر والاحسان وانخرط في سلك الرهبنة.

وكان يرتدي عباءة من الصوف الخشن ، ويجلد نفسه صباح مساء . وطالما انبطح على الأرض ممرغاً جبهته فى التراب !

أما تلاميذه الأربعة والعشرون فبعد أن بنوا أكواخهم على مقربة من كوخه اقتدوا به فى تقشفه ، فأحبهم في يسوع المسيح حبًّا جمًّا . وكان يحضهم دائماً على التقوى . وكان من أبنائه الروحيّين رجال قضوا سنين طويلة فى قطع الطرق ، لكن وعظ هذا الأب الصالح هداهم سواء السبيل فدخلوا فى سلك الرهبنة . وكانت طهارة عيشهم مما يشرف رفقاءهم ، ومنهم طاهي ملكة الحبشة الذي صار بعد أن هداه « كاهن أنصينا » يذرف الدموع بلا انقطاع ! ومنهم أيضاً الواعظ فلاڤيان ، وهو رجل عالم بضروب الكتابة وخطيب قدير . على أن أعجب تلاميذ بافنوس كان فلاحاً صغيراً يدعى بولس ، ولقّب بالساذج لسلامة نيته التي لا حد لها . ولشد ما ضحك الناس من سذاجته . لكن الله شرّفه بأن بعث له بالرؤى الصادقة وأتم عليه نعمة النبوّة .

وقف بافنوس حياته على تهذيب أتباعه وتثقيفهم ومزاولة العبادة والبحث والتنقيب فى تضاعيف الكتب المقدسة يقتبس منها المواعظ والأمثال . فكان على حداثة سنه موفور الحظ من الفضيلة ، فلم تكن الشياطين التي هاجمت الرهبان تلك المهاجمة العنيفة لتجرؤ على الدنو منه . واعتاد أن يجلس فى الليل فى ضوء القمر ، امام كوخه ، سبعة من جراء[1] بنات آوى منصتة بملء الهدوء والسكون . وقيل ، بل تلك سبعة من الجن كان استبقاها ببابه لا تتعدّى عتبته بقوة قداسته !

---

(١) جمع جرو وهو الصغير من الحيوانات .

يجيب كل من يسأله بقوله : « انني أبكي لأن مسيحياً ممن يسكنون هنا قد ضربني بهراوته وردني مفضوحاً » ! . .

أما شيوخ الصحراء فقد مدوا سلطانهم على الآثمين والجاحدين ، وكان صلاحهم فى بعض الأحيان صلاحاً مروعاً . فقد أخذوا عن الرسل سلطة معاقبة عصيان الله الحق . وما من يد كانت فوق أيديهم بحيث تنقذ من يصدر حكمهم عليهم . وتناقل الناس ، حتى فى مدينة الاسكندرية ، أن الأرض تنشق لتبتلع الأشرار الذين تمسهم عصي هؤلاء الشيوخ الزاهدين ! . . . ولهذا كانوا مرهوبي الجانب ، يخاف بأسهم كل الذين يحيون حياة الانس ، ولا سيما أهل المساخر والمراقص ، والقساوسة المتزوجون وربات الخلاعة !

وقد ظهرت فضيلتهم وامتد نفوذها حتى ذلت لها الوحوش . فكان إذا دنا أجل أحدهم ، أقبل أسد وخط له بمخالبه مضطجعاً فيعرف القديس بهذا أن الله قد دعاهُ إليه ، فيتجه نحو اخوانه ويقبلهم قبلة الوداع ثم يرقد بانشراح لينام فى حضن ربه .

ومذ صعد « انطوان » إلى قمة جبل كلزين بعد أن أربت سنه على المائة ، مصطحباً أحب مريديه إليه وهما « مقار واماتاس » ، لم يبق فى طيبة كلها راهب أبر وأصلح من « بافنوس » كاهن بلدة أنصينا (١)

حقاً كان افرايم وسرابيون يحتكمان في كثيرين من الرهبان ، وكانا متفوقين فى خططهما الروحانية والزمنية ، وفي إدارة مناسكهما . أما بافنوس فكان يراعي أقسى أنظمة الصوم ، فيقضي ثلاثة أيام بلياليها لا يذوق طعاماً ،

---

(١) قامت على أطلال مدينة أنصينا بلدة « الشيخ عبادة » المعروفة بالصعيد .

المجاورين في أثناء الحصاد بأجر معلوم . أما الخوارج فكانوا يتهمون بعض الرهبان زوراً بأنهم يعيشون من قطع الطرق ومداخلة البدو الرحل نهبة القوافل . ولكن الحق أن هؤلاء الرهبان كانوا يحتقرون المال والثراء ، وكانت رائحة فضائلهم الزكية تتصاعد إلى عنان السماء . . .

وكان الملائكة يفدون على هيئة فتيان لزيارة الصوامع وبأيديهم عصيهم كالسائحين . فى حين يتخذ الشياطين أشكال الأحباش أو الحيوان ويجولون بين النساك ليضلوهم . وكان الرهبان عندما يذهبون فى الصباح يملأون من النبع أباريقهم يرون آثار أقدام الشياطين على الرمال . . . وكان المتأمل بعين العقل فى حال « طيبة » الروحية يراها فى كل وقت ، وبخاصة فى الليل ، ميداناً للقتال بين النعيم والجحيم . . .

ولما كانت جيوش الشياطين تهاجم الزاهدين هجوماً عنيفاً ، كان هؤلاء يدافعون عن أنفسهم بأسلحة الصوم والتقوى والتقشف مستعينين بالله وملائكته . وكانت شهواتهم البدنية تقسو عليهم أحياناً وتخزهم وخزاً يمزق أحشاءهم ، فتتجاوب تحت قبة السماء ذات الكواكب صيحاتهم المزعجة وعواء الضباع الجائعة ! . . وعند ذلك كانت الشياطين تبدو لهم فى صور فتانة تحول دون معرفة حقيقة أمرهم . فيجزع رهبان طيبة إذ يروا فى صوامعهم مشاهد التمتع غير المعروفة حتى عند معاصريهم المترفين المتهتكين . ولكن لما كان الصليب يعلو صوامعهم فانهم كانوا بنجوة من الغواية . فتتخذ الشياطين النجسة أشكالها الحقيقية وتبتعد فى آخر الليل فى خجل وغيظ . وكان يحدث أن يُرى أحدهم فى مطلع الفجر باكياً منتحباً

الرهبان ايام العيد لأقامة الشعائر والمشاركة فى التبرك بالأسرار الدينية . وكان على ضفة النهر اديار آهلة بالرهبان وكلهم قابع فى كسر صومعته الضيقة لا يتدانون الاّ ليذوقوا طعم الوحدة .

وعاش الرهبان المتبتّلون والعاكفون فى زهد وتقشف ، وكانوا يصومون حتى غروب الشمس ثم يتبلغون بقليل من الخبز والملح . وطمر بعضهم أنفسهم فى الرمال متخذين الكهوف أو المقابر مساكن كانت غاية فى العزلة والانقطاع .

أخذوا جميعاً بأسباب التقشّف ، فارتدوا ملابس من وَبر الإبل . وكانوا بعد طول التهجد يفترشون الأرض ، ويصلون وينشدون المزامير . وقصارى القول ، أن هؤلاء الزهاد كانوا فى كل يوم يزاولون ضروب الصلاح والتقوى جميعاً . ولما كانوا يتأملون فى هول الخطيئة الأصلية (١) كانوا يحرمون أبدانهم كل متاع ولذة ، حتى العناية البسيطة التى لا غنى عنها وفاق رأي عهدهم ، وذلك اعتقاداً منهم ان أمراض البدن تطهر الروح ، وان أشرف حلية للجسم هى البثور والقروح . وهكذا صدقت فيهم كلمة الأنبياء : « يبتهج الفقر ويزهى » . . .

وكان بعض نزلاء « طيبه » المقدسة يقضون أوقاتهم فى التنسك والتصوف ، بينما يسعى غيرهم فى تحصيل معاشهم بضفر ألياف النخيل وخدمة الزراع

---

(١) يطلق المسيحيون هذا الوصف على خطيئة آدم وحواء اذ عصيا ربهما بأكلهما الثمرة المحرمة فطردا بسببها من الجنة وتعرضا هما وسلالتهما لعذاب الدنيا والآخرة . ويعتقدون ان السيد المسيح قد نزل ليمحو أثر هذه الخطيئة ويخلص البشر ، ويفتح لهم من جديد ابواب الجنة . (المترجم)

اللوتس

كانت الصحراء فى ذلك الزمان يسكنها النسّاك فى أكواخ لا تحصى ، بنوها من الأغصان والصلصال ، وهي تمتد على شاطىء النيل متجاورة منثورة ، بحيث توافر لساكنيها الغايتان : العزلة ، والمؤازرة لدى الحاجة ، وبرزت الكنائس هنا وهناك بين الاكواخ ، عليها شارة الصليب ، يقصدها

Ut vitam habeant
et abundent.

لكيما تكون لهم حياة موفورة

هذه هي القصة الأولى من مجموعة الشعلة الخالدة ، نستعين بالله مبعث النور والحياة على نقلها إلى لغتنا تباعاً ، إذكاءً للنار المقدسة فى قلب الشرق العظيم .

أقدمها الى شباب بلادى وغيرهم من طلاب الحب والحق والحكمة . قصة رجل مسكين راح ضحية هذه الدنيا الغرور ، لعلهم يتدبرون مافيها من عظات سامية، فيسيرون فى الحياة فى طريق الاخاء الروحى بأقدام ثابتة، متنكبين رمال التعصب الخائنة ، أوفياء للانسانية ، مخلصين للحقيقة، هائمين بالحكمة ، ناصرين الفضيلة دواماً ـ لكيما تكون لهم حياة موفورة

احمد الصاوى محمد

(صفحة من كتاب الورود الدامية)

لسمو الأديب الأمير حيدر فاضل

الى اناتول فرانس

أفلاطون العصر ومؤلف تاييس

A ANATOLE FRANCE

(Au Platon Moderne).

Ces vers humbles et doux, à toi je les apporte
Du pays de THAIS . . . Daigne les recevoir.
Et pour te les offrir je me fais un devoir
De les déposer tous sur le seuil de ta porte.
O maître, ne crois point qu'un fol orgueil m'emporte
Jusqu'à m'imaginer qu'il soit en mon pouvoir
De taquiner la Muse en caressant l'espoir
De plaire à ton regard que le génie escorte.
Non ! Je suis un rêveur . . . un pauvre troubadour,
Chantant le ciel, la mer, les roses et l'amour,
Respirant ta pensée et toujours vivant d'elle . . .
Et si j'eus le courage, avec l'ami Silvain,
D'entrer à ton foyer pour te serrer la main,
C'est que «FRANCE» à ton nom je demeure fidèle !

* *Roses Ensanglantées*
par S.A. Le Prince Haidar Fazil.

---

* Impr. de l'Institut Français D'Archéologie Orientale,
le Caire, 1919, £ 1.

﴿ أناتول فرانس ﴾

١٨٤٤ — ١٩٢٤

تقـــدمة الكتاب

من الناشر الى الجمهور

نقدّم اليوم الى الجمهور الكريم « الطبعـة الرابعة » من هذه القصة الممتعة ، التاريخية ، الفلسفية ، الجامعة لدعابات « اناتول فرانس » المشهورة ، وفنه الجميل ، الذى يفتح أبواب الخيال من أقدم الأجيال بمفتاحه السحري — القلم

نقدّمها مغتبطين كدرّة من درر الفن الخالدة ، واثقين انها ستلقى من نفوسهم المتسامحة ارتياحاً ، ومن عقولهم الراجحة رضًى وقبولاً .

ونجدد العهد على بذل الجهد فى التوفيق بين أدب الشرق والغرب ، ولغات الافرنج ولسان العرب ، قياماً بالواجب علينا نحو النهضة الشرقية والناطقين بالضاد ؟

الياس انطون الياس

ANATOLE FRANCE,

del'Académie Française,

THAÏS

Traduction

de

AHMED SAOUI MOHAMED

Traducteur de Le Lys Rouge, Aphrodite, etc.,

4me Édition

EDITEUR

ELIAS A. ELIAS

B.P. 954, **Le Caire (Egypte)**

CANCELLED

30 [illegible] 1967

تائيس

رواية

وضعها الكاتب العظيم

أناتول فرانس

(عضو الاكاديمي الفرنسيه)

نقلها الى العربية الأستاذ

احمد الصاوى محمد

الطبعة الرابعة

(جميع حقوق الطبع محفوظه لناشر الكتاب)

ST. ANTONY'S COLLEGE, OXFORD
LIBRARY

عُنِيَ بنشرها

إلياس أنطون إلياس

صاحب

المطبعة العصرية

بالفجالة ، بشارع الخليج الناصرى رقم ٦ بمصر